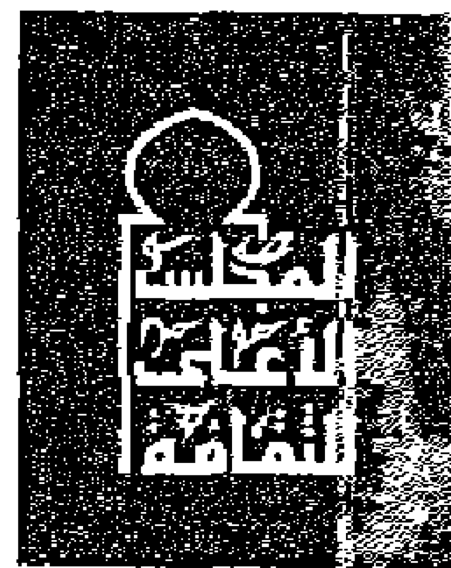
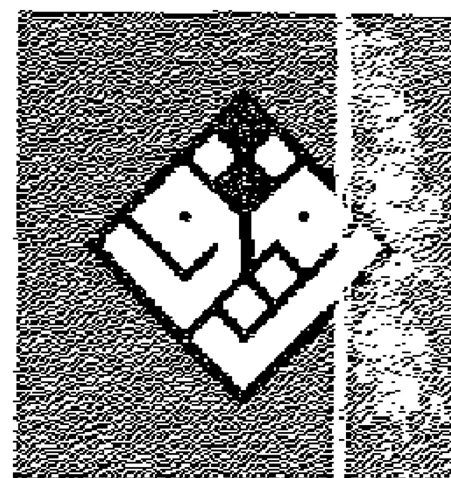
رواية





المشروع القومي للترجمة

تلميذ بابنبيرج

حياة فى ثنايا الحلم



362

تأليف: هاينريش شبورك

ترجمة: سيد أحمد فتح الله

المشروع القومى للترجمة

تلميذ بابنبيرج
حياة فى ثنايا الحُلم

تأليف : هاينريش شبورل
ترجمة : سيد أحمد فتح الله



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٣٦٢
- تلميذ بابنبيرج (حياة فى ثنايا الحُلم)
- هاينريش شبورل
- سيد أحمد فتح الله
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة عن الألمانية لرواية :

Die Feuerzangenbowle

Heinrich Spoerl : تأليف

الصادرة عام ١٩٣٣ عن : **Droste Verlag Gmbh,**

Düsseldorf Wihelm Heyne

Verlag GmbH, Co . KG,

München

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

مقدمة المترجم

كاتب هذه الرواية أديب تخصص فى كتابة أدب الفكاهة وبرع فيه حتى صار من أهم رُوّاده فى ألمانيا وربما فى العالم أجمع فترة ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين . وُلد هـذا الكاتب - هاينريش شـبورل - فى ١٨٨٧/٢/٨ م فى دوسلدورف بألمانيا ، وبعد إتمام دراسته عمل محاميًا فى مستهل حياته العملية ، وفى عام ١٩٣٧م قرر أن يتفرغ للكتابة والتأليف ؛ فكتب أعمالاً روائية تتسم عامة بالفكاهة اللاذعة وأحيانا تتسم بالنقد الاجتماعى المغلف لعصره ، وكما كتب الرواية كتب كذلك القصة ، وروايته التى نقدمها بين يدى القارئ العربى اليوم هى أشهر رواياته على الأطلاق ، وقد كُتبت عام ١٩٣٢م ولم تظهر إلا عام ١٩٣٥م حسب ما ذكرته عنها موسوعة « كندلر » للأدب ، وقد مثلت هذه الرواية سينمائياً وظهرت فى فيلم ذائع الصيت يعرفه القاصى والدانى فى ألمانيا ويحمل نفس عنوانها الأصلى **Die Feuerzangenbowle** ، ونشرت فى بداية ظهورها تحت اسم رمزى (س س) لأسباب سياسية ، ولهاينريش شبورل عدد آخر من الروايات غير هذه الرواية ، فقد كتب

عام ١٩٣٦ روايتي " الكمَّامة " ، و " لو كنا جميعًا ملائكة " وفي عام ١٩٤٠ نشرت له رواية " رجل الغاز " ، وله فيما عدا ذلك مجموعتان قصصيتان ظهرت أولاهما عام ١٩٣٧ بعنوان " يمكننا أن نتحدث عن ذلك بهدوء " ، وظهرت الثانية عام ١٩٤٦ بعنوان " رحلة شهر العسل " ، وقد طبعت أعماله مرات عديدة ، وظهرت كل مؤلفاته في مجموعة كاملة عام ١٩٩٠ .

توفي هاينريش شبورل في ١٩٥٥/٨/٢٥م في روتاخ إجرن Rottach Egern بعد أن أثر في الحياة الأدبية الألمانية تأثيراً لا ينكر ، وكان تأثيره على ابنه ألكسندر شبورل Alexander Spoerl واضحًا لدرجة جعلته كأنما يكرر مسار حياة والده ، فبرغم كونه مهندسًا في الأصل ، إلا أنه كتب إلى جانب مؤلفاته في الهندسة والكمبيوتر روايات فكاهية وقصصًا في أدب التسلية ، ويبدو أن « المدرسة » كانت موضوعًا محببا لهذه الأسرة فكتب ألكسندر شبورل (عاش من ١٩١٧/١/٣ – ١٩٧٨/١٠/١٦ م) رواية " ذكريات تلميذ متوسط " عام ١٩٥٠ ، كما كتب أبوه عن المدرسة من قبل ، وفضلاً عن ذلك فقد كتب الابن (ألكسندر) روايات أخرى مثل " عاشق غير ذي موهبة " (عام ١٩٥٢) ، و " في قلب الطبيعة" (عام ١٩٥٦ م) ، وكذا رواية " زوج غير موهوب " (عام ١٩٧٢) إلى جانب مؤلفات متنوعة عن السيارات وكاميرات التصوير ...

إن العنوان الأصلي للرواية التي بين أيدينا هو Die Feuerzangen-bowle ويعني بالعربية " نبيذ ملقط الجمر " وهو نوع من الشراب الذي يتناول بهيئة معينة ، وبترتيبات خاصّة ، وهناك عنوان فرعي ذكره المؤلف تحت هذا العنوان الأصلي تعني ترجمته تقريبًا " شقاوة في المدينة

الصغيرة " ، وقد لجأنا إلى تغيير العنوان قصداً إلى ما هو جوهرى فى القصة بحيث لا يخل تغيير العنوان بالفحوى أو المحتوى ، ونعنى بما هو جوهرى كون الرواية حلمًا عاشه تلميذ فى المدرسة التى رُسمت غاية لأشواقه ، وتذكر موسوعة "كندلر" للأدب Kindlers Literaturlexikon أن جزءًا كبيراً من هذه الرواية نشأ بمساعدة القصاص الساخر والمسرحى وكاتب المقال المعروف هانز رايمان Hans Reiman ، ولم يعرف هذا الأمر إلا عام ١٩٥٩ عندما نشر رايمان سيرته الذاتية تحت عنوان معجزتى الزرقاء Mein blaues Wunder ، لكن الرواية على كل حال قفزت بشبورل إلى آفاق النجاح وجعلت له فجأة مكانة مرموقة بين كتاب الفكاهة الراقية فى ألمانيا إبّان عهد الرايخ الثالث وفترة ما بعد الحرب .

إنّ رواية " تلميذ بابنبيرج " التى بين أيدينا من أكثر روايات أدب التسلية قراءة فى ألمانيا على الإطلاق حتى اليوم ، وقد وضع مؤلفها عبارة على هيئة شعار لها يتصدر أولى صفحاتها قائلاً : " هذه الرواية أغنية مدح للمدرسة ، إلا أنه من الممكن ألا تلاحظ المدرسة ذلك " ، وتدور أحداثها فى عالم قصصى مختلق فى مدينة لا وجود لها هى بابنبيرج Babenberg ، غير أن نقطة بدء الأحداث كانت فى برلين حيث كان البطل د . هانز فايفر – الكاتب المعروف – جالساً ذات مرّة مع زمرة الأصدقاء بعد أن عادوا جميعًا من مراسم دفن أحد مدرسيهم أيام التلمذة . كان جميع أصدقاء د . هانز فايفر أكبر منه سنًا ، وراح كل واحد منهم يحكى ذكرياته فى المدرسة ومقالبه وممارسات العفرتة أيام الثانوية ، وكان الحديث يدور وهم جلوس حول نبيذ ملقط الجمر تتصاعد أبخرته ، الوحيد الذى كان معتكر المزاج من بين الصحاب الذين استبدت بهم

سعادة الذكرى هو د. فايفر ؛ ذلك أنه لم يعش حياة التلمذة الجميلة التى يحكون عنها ، وإنما أتمَّ تعليمه على يد مدرس خاص استحضره والده له ولقنه دروس الثانوية بالمنزل حتى نال شهادتها ثم درس بالجامعة ونال بعدها درجة الدكتوراه ، كان حزينًا إذن لأنه لا يفهم مما يقوله الصحاب ولا مما يقصونه شيئاً ، وكلما زاد السرد جمالاً وازداد أثره فى مزاج الصحاب حول نبيذ ملقط الجمر بهاءً ازداد هو حزنا وازدادوا هم لحاله رثاءً ، كيف لا وقد فاته فى رأيهم " أجمل ما فى الحياة " : فترة التعليم المدرسى ، عندئذ تتولد لدى الصحاب فكرة مجنونة – لا يدرى أحد من كان مصدرها – تقضى بأن يعوض فايفر ما فاته ويذهب من الغد إلى مدرسة ثانوية فى مدينة صغيرة هى " بابنبيرج " فيغادر فايفر برلين التى يعيش فيها كاتبًا ذائع الصيت ، ويتوجه إلى بابنبيرج ويرتدى زى التلاميذ ويجلس على مقعد الفصل ، وفى ثانوية المدينة الصغيرة يصير التلميذ فايفر بطلاً للعديد من الفصول الضاحكة والمقالب المرحة ، قام بمعظمها ونسب إليه أحيانًا ما لم يفعل ويحقق بالجملة نجاحًا باهراً فى دنيا التلمذة ، وفى النهاية يفوز بابنة الناظر الحسناء زوجة له .

لقد اتبع الكاتب فى هذه الرواية تقنية الفصل بين المشاهد القصصية التى تمثل شقاوة التلاميذ ولم يجعل بينها تداخلاً يذكر ، والبديع فيها أنها مواقف أصلية مبتكرة وغير مقلدة ، وقد أحكم المؤلف حبكتها وتصويرها ، وتتميز لغة الرواية بما يمكن أن يسمى لغة وميضية مقتضبة ، فلا نكاد نرى جملاً طويلة بلا داع ، والنكتة هنا نكتة محسوبة ، بعيدة عن المبالغة الفجة أو السخرية الفاضحة ، وحوار الرواية حيوى وفعال ومكوِّن بالغ الأثر فى البناء القصصى بما لم يعتده هذا اللون من

روايات الفكاهة الشعبية ، لقد برع الكاتب فى أن يصور - بوسائل قصصية بسيطة - حياة المدينة الصغيرة وحياة المدرسة بمواقفها البالغة الفكاهة من جهة ، والروح البروسية المعروفة بصرامتها من جهة أخرى (ممثلة أكثر ما تكون فى الناظر كناور) واستغل هذا التفاوت فى إيجاد مواقف لا يملك المرء معها إلا أن يضحك بمجامع نفسه .

إن رواية " تلميذ بابنبيرج " مثال رائع للأدب النوستالجى ، والنوستالجيا Nostalgie مصطلح يعبر عن حنين مشبوب للماضى الجميل ، وهو ماضٍ ليست له معالم محددة لأنه من نسج الخيال الشعبى التواق لإيجاد عوالم فاضلة هربًا من الواقع الذى لا يكون فى كثير من الأحيان ملبيًا لتطلعاته النفسية ، فيميل إلى استرجاع " جنة مفقودة " رسمها هذا الخيال عن ماضٍ جميل لم يكن ، ماضٍ تخلو مقوماته من كل النواقص ويزخر عالمه بكل ما تتمناه النفس ، لهذا فالنقد الاجتماعى هنا عامل فرعى وملمح ثانوى ، لأن المجال هنا هو رسم واستعادة الحلم النوستالجى .

إن بناء الرواية بناء بسيط لا يشتمل على مستويات قصٍّ متفاوتة زمنيًا بل تكاد الأحداث جميعًا تقع فى زمن قصصى واحد ، يعبر عن رؤية القاص لبطله وللأحداث ، وبعدما نمضى مع الأحداث ونرى البطل وهو يمر بكل تلك المواقف الموغلة فى الفكاهة نكتشف فى النهاية وبإيضاح الكاتب ذاته أن القصة مختلقة ، فلم يكن هناك هؤلاء الأبطال أبدًا ولا وجدت يومًا مدينة باسم بابنبيرج ولم تكن هناك أيضا حبيبة البطل ولا أبوها ناظر المدرسة ولا كان فايفر ، لم يكن هناك سوى الفكرة ، فكرة أفرزت تصورًا عن ماضٍ جميل ومكان جميل ، والفكرة تبقى لأنها متجسدة فى الحنين إلى ما لا يمكن استعادته .

وكما أن الزمان والمكان مختلقان تبدو الأحداث كذلك غير مرتبطة بمكان بالضرورة ، فالمكان هو كل مكان مثل مدرسة ما بمدينة ما كمثال بابنبيرج ، والزمان هو أى زمان تحدث فيه مثل تلك الأحداث المماثلة التى نراها فى المدينة وفى المدرسة ، وقد اتبع شبورل فى روايته هذه تقنية التأطير فالأحداث محصورة بين بداية ونهاية يمثلان واقعًا ما وبينهما حلم نتج عن فكرة القيام بدور التلميذ ، فالبداية كانت مع بزوغ الفكرة فى أذهان الصحاب وهم جلوس حول الشراب ، والنهاية كانت إيضاحًا بأن كل ما قرأناه من أحداث لم يكن إلا تعبيراً عن فكرة الماضى الجميل، أو إن شئت قل عن وهم جميل ينسجه خيالنا عن عالم نتمناه لأنفسنا ، ويمكننا إذن القول بأن الحلم الذى انبثق عن الفكرة محصور بين واقعين قصصيين واضحين هما جلسة الصحاب فى برلين والختام الذى يدلنا مباشرة على اختلاق الحلم ، فكأنما كانت البداية انطلاقا من واقع والنهاية عودة إليه ، وبينهما كان هناك الحلم ، ويبرز عامل الصدفة موثراً واضحًا فى مناسبة الأحداث حيث كان منبع الفكرة وظهورها وليد صدفة أدت إلى حديث عابر عن حياة التلمذة وجمالها ربما ما كان له ولا لما استتبعه من أحداث أن توجد لولا أن الصحاب شاركوا يومها فى جنازة مدرس قديم قام بتعليمهم ذات يوم ، من هذه الصدفة بدأ الحديث عن المدرسة وأدى الحديث إلى ما سنقرأه فى الرواية الآن ، إن هذا النص يعبر عن أوهــام مرضية تعترينا أحيانا وتصور لنا عالمًا نحلم به عندما لا نرتضى واقعنا ، أو عندما يصدمنا هذا الواقع بما لا نستطيع تحمله ، فنهرب إلى الحلم .

تؤكد هذا وتنسجم مع ذلك الجو اللاعقلانى الحالم والجانح إلى التغييب مشاهدُ الشراب الكثيرة في الرواية ، و يتجلى ذلك أكثر من خلال كون القصة فى مجملها نتيجة ومحصلة لفكرة نشأت بين جماعة من المخمورين ، والحق أننى فكرت أثناء الترجمة أن أحذف مشاهد الشراب تلك أو حتى بعضها - برغم أننى من أنصار الأمانة التامة فى النقل والترجمة - ذلك أن كثرة هذه المشاهد قد يصدم مشاعر الكثيرين منا وأنا أولهم ، إلا أن القارئ العزيز سوف يرى كيف أن هذه المشاهد قد جعلها الكاتب مؤثرة فى بناء النص بحيث إذا حُذفت شُوِّه البناء وضاعت منه أركان وانهدمت أعمدة ، فلزم أن ننقل الرواية كما هى وعياً منا بأننا لا ننقل إلا بهدف معرفة الآخر : فكره وأدبه وما يضحكه أو يحزنه وليس تسويغًا لمبادئ ولا ترويجًا لأخلاقيات نرفضها نحن دينًا وحضارة وانتماء ، ونحن على ثقة من أن قارئنا يدرك هذا ، وإلا فقد بينا قصدنا من نقل هذه القصة التى تعد علامة بارزة فى أدب الفكاهة فى ألمانيا وربما فى العالم كله ، ونشعر نحن من جانبنا أن من حق القارئ العربى أن نطلعه على ما يضحك الألمان بعدما بلغه ورآه وعلمه من جدية هؤلاء القوم وصرامة وجدانهم .

إننا حين نقرأ فى ثقافات الآخرين وآدابهم إنما نقف - فضلاً عن استقاء الحكمة من أى نبع أتت - على حدود المشترك الإنسانى من عواطف جامعة لنا ولهم ومشاعر نشترك فيها معهم تشمل النفس البشرية بأشواقها ، وأمانيها ، بأفراحها وأتراحها وطموحاتها ومراميها ، وماتجاوز المشترك الإنسانى بيننا وبينهم وشرد خارجًا عن منظومتنا

القيمية المقدسة فلا نلقي إليه بالاً ولا ننقله عندما نترجم إلا من باب الأمانة في النقل بعد أن ندقق أولا في اختيار النصوص ؛ فهناك كثير غث لا يصلح لأن ننقله بحال ، على أنني أرى أن نص هذه الرواية التي تحتل مكانة تنفرد بها في الأدب الألماني جديرة بأن يتعرفها القارئ العربي وينفعل بها ويرى هنا مزيداً من خيالات الآخرين وتجاربهم ، فكل عمل أدبي تجربة إنسانية في حد ذاته ، وهناك تجارب أدبية بارزة جديرة بأن نطلع عليها ، وكما يقول الناقد الراحل سيد قطب - يرحمه الله - عن أهمية الاطلاع على تجارب الأدباء والكتاب المعتبرين كلما أمكن لنا هذا : " وما دمنا قادرين على أن نعيش تجارب هؤلاء الأدباء مرة أخرى وننفعل بها كما انفعل بها أصحابها ، فإن هذا رصيد يضاف إلى أعمارنا ، وزاد يضاف إلى أزوادنا في الرحلة القصيرة المحدودة على هذا الكوكب الأرضي الصغير" (١) ، فسوف يرى قارئنا العزيز أن هذه التجربة القصصية التي بين أيدينا جديرة - برغم ما ذكرنا - بأن نقرأها وننفعل بمعظم أحداثها متعة ورصيداً وزاداً .

لقد استخدم الكاتب هنا تقنية القصة داخل القصة ، وإن شئنا الدقة القصص العديدة داخل قصة تشملهم ، حيث إن الرواية تتألف من مواقف منفصلة كل منها يمثل قصة في إطار القصة الكبرى التي صورت الحياة المدرسية للبطل فايفر ، وقد أشار مطلع الرواية إشارة لا تَخفَى إلى ذلك القصد التقني للمؤلف ، حيث يقول أحد الصحاب وهم في

(١) سيد قطب : " النقد الأدبي . أصوله ومناهجه " ، القاهرة : " دار الشروق " الطبعة الخامسة ١٩٨٣ ، ص ٢٠ .

جلستهم حول الشراب جملة تدل تماماً على مدار الرواية كله عندما يقول: " فإذا جد الخطب فلا حاجة بي إلا أن أقف وأقول : ماذا تريدون مني على الإطلاق ؟ إني هنا (أي في المدرسة) بدافع المزاح فقد انتهيت من إتمام الشهادة الثانوية منذ زمن طويل " وهذا ما فعله فايفر فيما بعد، فذهب بدافع المزاح إلى المدرسة ليعوض مالم يكن له فيه نصيب من قبل.

ولابد أننا سندرك من خلال مطالعة الرواية كيف أن هذه المعايشات هي في طبيعتها صدى نوستالجي لأشواق شديدة الاختلاف عن الواقع ، إذ إن الحلم هنا هو البيئة المدرسية وقد صورت بصورة محلقة ومفارقة وشديدة المبالغة ، أي أن المبالغة النوستالجية ليست محصورة في تجربة فايفر المدرسية فحسب ، بمعنى قيام كاتب مشهور بالالتحاق بمدرسة ثانوية ليتعرف على ماهية التلمذة – وهو أمر أبعد ما يكون عن واقع – وإنما كذلك في تصوير المدرسة بمعايشاتها بصورة لا تكاد تتفق مع واقع المدارس بحال ، والسبب في ذلك أن هذه المدرسة – وكما جاء في نهاية الرواية – إنما هي تصوير خيلته لنا " مرآة التزيين التي تكمن في ذكرياتنا " ، أي أن الذكريات لا تحتفظ بالأشياء على حقيقتها وإنما تزينها لتصير دائماً " ذكريات أجمل " كما صورتها الرواية هنا ، حيث صورت الأجمل ليس بمفهومه العام بطبيعة الحال بل الأجمل في سياقه الخاص وهو هنا " جمال شقاوة المدرسة " ، ونهاية الرواية تكون بهذا انتقالاً حاد الانعطاف من " الدنيا البديعة " إلى الواقع القائم وفصلاً جلياً بين الحلم والحقيقة .

إن هذه الرواية مثال على الفكر النوستالجي الذي ساد ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، وهو فكر مثَّل محاولة أراد بها الوعي الجمعي في

ألمانيا وقتها تجاوز آثار الهزيمة ، ونادى الكثيرون من الكتاب والأدباء والمفكرين بالعودة إلى جذور الشعب وأصوله ، وصار " الماضى الجميل " شعاراً ذا سحر يغرى بالعودة إليه هروباً من مرارة الواقع ، وهو شعار يلتقى مع فكر التغييب الذى مارسه بعض شعراء وأدباء وكتاب ألمانيا ذلك الوقت ، وتتجلى فى هذه الرواية ملامح كثيرة من آثاره ، مثل مشاهد الشراب الكثيرة التى ذكرناها ، ومثل المبالغة فى تجميل الحلم المدرسى وغير ذلك ، إلا أنه يتضح أكثر ما يتضح فى الإيهام بإمكانية تحقيق مثل هذا الحلم فى عالم الواقع فتتداخل الحقيقة والخيال لدرجة يبدوان معها أنهما شىء واحد ، هذا التداخل يبدو أول ما يبدو فى قرار الأصدقاء حول نبيذ ملقط الجمر (وهو مشهد واقعى) بأن يذهب البطل إلى بابنبيرج ويلتحق الكاتب الشهير تلميذاً بمدرستها (وهذا كله خيال) ثم يتأكد هذا التداخل فيما بعد من خلال زيارة " ماريون " خطيبة البطل القادمة من برلين (واقع) إلى التلميذ فايفر وهو فى لحظة من لحظات التلمذة الباهرة (خيال) ، وفى مشهد آخر قام رفقاؤه البرلينيون بزيارته وهو تلميذ فى بابنبيرج فى تداخل بديع بين الواقع والخيال حيث صار صناع الحلم النوستالجى جزءاً منه عندما صارت زيارتهم فصلاً من فصوله ، وهذه المشاهد تلتقى تماماً مع مفهوم النوستالجيا من حيث ذوبان الفارق بين الحقيقة والخيال وضياع الحدود بينهما .

مع ذلك فقد صوَّرت الرواية كلاً من المدينة الكبيرة (برلين – وإن كان ذلك قد تم بصورة عابرة) والمدينة الصغيرة (بابنبيرج – وهى التى تحتل مجمل الاهتمام كمسرح للأحداث) بحيث يحتفظ كل منهما

بخصائصه ، والذى يهمنا هنا هو صورة بابنبيرج التى تمثل الريف الخيالى الجميل ، الذى هو مهد الوطن المنشود من حيث روعته الحالمة ، وهذا التصوير يلتقى مع تعريف الأديب والفيلسوف الألمانى شيلر للأدب السنتمنتالى SENTIMENTA LISCH وهو الأدب الساعى لتقليد الطبيعة ، فى مقابل التصوير النابع من الطبيعة ذاتها والذى أسماه هو الأدب الساذج NAIV ، وفى الأدب السنتمنتالى يبرز لون من الحنين إلى تحقيق حالة من التوحد بين الروح والطبيعة (١) ، فتصوير المدينة هنا يعد انعكاسًا لهذا الحنين وصدى لذلك الشوق النوستالجى ، آية ذلك أن المدينة قد رسمت هنا جميلة صغيرة تدب فيها حياة بسيطة تهدأ تماما عند المساء وتبدو فى صورة أقرب ما تكون إلى مدن الحضارات القديمة التى لم تلوثها ملوثات المدنية المعاصرة بمركباتها ، ومصانعها وضوضائها ، فليس فى " بابنبيرج " إلا صيدلية واحدة ، وحافلة واحدة تتنقل فى شوارعها كيفما اتفق ، وسكانها يبدون فى معظمهم كأنهم أبناء عائلة واحدة ، فمعظمهم يحمل اسما مشتركا هو مويزيتسال Mäusezahl وبها شرطى مرور واحد تعرفه كل المدينة اسمه ترومل وصالون الحلاق مُضاء بمصباح غازى ، والماء يأتى من خزان يملأه صَبِىُّ الحلاق بضخ المضخة عدة مرات كل يوم ، والصحف قديمة مر على إصدارها شهور ، ويبدو بيت السيدة ڤيندشايد صاحبة البيت الذى استأجر التلميذ فايفر حجرة فيه بيتًا من بقايا العصور القديمة ، ببنائه،

(١) شيلر ، فريدريك Schiller, Friedrich: " Über naive und sentimentalische Dichtung " . In: Werkin vier Bänden . Hrsg.v . Stenzel , Gerhard Salzburg : Caesar 1983, Bd . 1 S . 456 .

وبحديقته الصغيرة ، وبهوه الممتد امتداداً مضحكاً وخزاناته وصواناته العجيبة ، ثم السيدة ڤيندشايد ذاتها والتى تمثل دور الأم الحريصة على الفتى اليافع ، وعنصر الأم الحنون عنصر هام فى التصوير النوستالجى وقد تم تحقيق هذا العنصر من خلال تلك السيدة ، وفى بابنبيرج تسود قيم أخلاقية عالية لا يتفق معها سلوك السيد كنول : الذى يستأجر حجرة أخرى فى بيت السيدة ڤيندشايد ، والسيد كنول يعد رجلاً منبوذ السلوك لشربه وطول سهره كما أفصحت عن ذلك السيدة ڤيندشايد ذاتها ، وفى بابنبيرج يحرص الناس على نزهة الأحد ، ويمتد مسيرها من نُزُل أكسماخر حتى مكتبة بائع الكتب مويزيتسال ، ويحيى الناس بعضهم بعضاً لأن الجميع يعرف بعضهم بعضاً ، كذلك فالحياة الأسرية مثالية فى بابنبيرج وهى تتمثل فى أسرة السيد ناظر المدرسة كناور ، وقد صورت الرواية هذه المثالية الأسرية تصويراً هازلاً يسخر من صرامة الروح البروسية الحريصة دائماً على النظام حتى وإن كان خطأ .

وأبنية المدينة ، خاصة جزؤها القديم ، حيث السور العتيق و " بوابة الساحرات " والنهر الصغير ، وقصر المدينة بأجوائه الغامضة ، وممراته التى يفوح منها عبق الماضى ، وقباب القصر المهيبة ، وقلعته الشامخة ، وأسواره السميكة المتعرجة ، وممرات السور التى تصيب بالدوار ، وبرجه الغليظ الهائل ، كل ذلك رسم رسماً رومانسياً يعكس عالماً ماضياً زاخراً بالأسرار ، ولقد اتضحت تلك المقابلة بين عالم اليوم بما فيه من ملامح المدينة المرهقة (برلين) وعالم الأمس بما فيه من روعة مبتغاة وجمال منشود (بابنبيرج) بمجرد وصول هانز إلى المدينة الصغيرة ، حيث تقول الرواية " إنه لم تصدمه هنا رائحة البنزين والأسفلت ، وإنما وجد

العصافير والخيل " إن هذا العالم المثالى كان أنشودة محببة للكتاب والشعراء في تلك المرحلة بعد انهيار الإمبراطورية فى عام ١٩١٨ ونشوء جمهورية فايمار عقب الهزيمة المشينة لألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ، ولقد تأثر الفكر الشعبى والأدب الشعبى خاصة بهذه التحولات الكبرى فى ألمانيا ، وصاحب ذلك الحال نشوء لون من الفكر النافر من المدينة الحديثة واكبه أدب شعبى موافق له فى التوجه ، وليس غريبًا أن يكون من الأعمال التى أفرزتها تلك الحقبة مؤلف شبنجلر " سقوط الغرب " (١٩١٨ - ١٩٢٢) الذى أعطى الأساس النظرى لمنظومة قِيَمِيَّةٍ جديدة تنفر من كل تقدم صناعى وتنفر من المدن الكبرى (خاصة برلين) فنشأ أدب يعادى الحداثة وينادى بالرجوع للجُذور ويعلى قدر الجنس الآرى ويوضح تميزه وتفوقه كنوع من التعويض عن الكرامة المهدرة بعد الهزيمة ، ثم صارت العقيدة النازية بعد ذلك تصعيداً متطرفًا لمقومات هذا الفكر ونتيجة لمقدماته ، هذا رغم يقيننا بأن الرواية التى بين أيدينا لا تقرأ كجزء من السياق السياسى المذكور وإنما كأثر من آثاره - إن كان الربط لزامًا - فالفارق هنا واضح بين الرواية وبين ذلك الفكر ، إلا أنها تشترك معه فى الأساس النفسى الحافز على الهروب إلى ماضٍ جميل ، ولكنها تختلف تمامًا عنه فى مدى الهروب وكيفيته ثم فيما ينبغى أن يتمخض عنه هذا الهروب ، وفى هذا السياق نقول إن " بابنبيرج " ليست إلا وجوداً زمانيًا وليست وجوداً مكانيًا ووجودها الزمنى نتاج خيال حالم عن واقع لم يعشه أحد .

أما المدرسة فهى بؤرة هذه الجنة ولبابها ، « فشيطنة » التلاميذ و"مقالبهم" والصور الكاريكاتيرية للمدرسين - خاصة البروفسور كراى -

تم صوغها بكيفية موغلة فى الغرابة وموغلة فى الفكاهة معًا ، كيف لا وهى ركن الرواية المكين ؟ وتبلغ المعايشة المدرسية ذروتها بدخول هانز فايفر حجرة الحبس المدرسى الذى صورته الرواية عماداً للرومانسية المدرسية حتى أن هانز اعتبر حصوله على هذه العقوبة نجاحاً له وتتويجاً لتجربته التلميذية ، وكذا علاقة الحب المدرسية بين هانز وإيفا – والتى كان مشهدها الأول فى أثناء حبس هانز – هى مكون رئيس من حياة التلمذة ، لذا دخل هانز إلى هذه العلاقة بقوة ، وحرص على تأجيجها رغم أن له خطيبة ناضجة فى برلين ، هى ماريون ، وهناك كذلك عنصر الشاعر الذى يكتب أغنيات الرحيل ، فكل النوستالجيين يشغلهم عنصر الرحيل ويكتبون عنه الشعر ، وهكذا فعل هانز ، لقد قام هانز بكل ما يقوم به تلميذ الثانوى فى عرف الرواية وانغمس فى حلمه حتى النخاع ، كل هذه مقومات عالم صورته الرواية غايةً للأشواق النوستالجية ورسمته مقصداً للحنين .

تنقسم تشكيلة الشخصيات فى المدرسة إلى قسمين يتواءمان تماماً مع نمط الروايات الضاحكة : مدرسين غريبى الأطوار وتلاميذ أفظاظ ، والناظر كناور مثال لعقلية حقبة الثلاثينيات المحدودة الأفق ، فهو رجل ضعيف الشخصية لا يهتم إلا بالنظام الشكلى وليست لديه القدرة على النفاذ إلى جوهر الأشياء ، وهو يخشى كثيراً كلام الناس ورأى رؤسائه أكثر مما يمليه عليه ضميره ، وهو كذلك يتصور فى كل شىء كارثة تحل به أو بمؤسسته المدرسية ؛ ومن ثم فهو يتجنب أى لون من النزاع ، وهو شخص مزعزع القرار ولا يتسم بالصرامة إلا فى أمور هامشية وحسب ،

وهو ينطلق فضلاً عن ذلك دائما من موضع " رد الفعل " وليس له على " الفعل " إقدام ، ويتضح ضعفه خاصة من خلال ابتزاز " فايفر " له عند نهاية القصة حين أصرَّ على الزواج من " إيفا " ابنة الناظر ثمنًا لإنقاذه كرامة المدرسة وهيبة الناظر عندما قام بدور البروفسور كراى وأعطى الحصة للتلاميذ أمام مفتش التعليم كليل البصر ، وتعد " إيفا " ابنة الناظر ممثلة لدور فتاة الثانوى الرومانسية فى تصوراتها عن الناس وعن الحياة والدنيا ، وهى جزء من تجسيد جنة بابنبيرج ، لأنها تمثل الحبيبة التى لابد أن يتوفر عليها عالم المدرسة فى دنيا بابنبيرج الأفلاطونية على حسب ما رسمته الرواية .

ومن أشهر روايات الكاتب هاينريش شبورل بعد " تلميذ بابنبيرج " رواية " الكمَّامة " التى ظهرت عام ١٩٣٦ ، وتدور أحداثها فى مدينة صغيرة تقع على نهر الراين ، حيث يتهدد الانهيار نظام المدينة الاجتماعى ، بفعل حادثة غير مسبوقة ، حيث قامت يد آثمة بتدنيس النصب التذكارى لأبى الولاية ، وكان واحداً من الأشراف ، ففى أحد أيام الآحاد شدّت اليد الآثمة كمامة حول فم تمثال الرجل العظيم الذى اشتهر أثناء حياته بأنه لا يتحفظ أبداً أمام أحد فى إبداء آرائه ، وكانت الكمامة حقيقية ومتينة ومصنوعة من جلد الحيوان ومشدودة الوثاق حول فم الرجل ، ويبدأ التحقيق لمعرفة ما إذا كان الدافع على الجُرم شقاوة صبيانية أم إهانة سياسية مشينة ، يستغل المدعى العام السيد فون ترسكوف تحقيقه فى الحالة من أجل الصعود درجة أعلى فى الهرم الوظيفى ، وحيث أنه هو الذى ارتكب جنحة الكمَّامة فى لحظة سُكرٍ

عارم، حتى أنه لم يتذكر بعد فعلته شيئًا منها على الإطلاق ، لذا فقد اصطدمت تحقيقاته بمصاعب جمّة ، وفي آخر المطاف يتحمس كل من زوجته وابنته وواحد من الفنانين واثنين من " أولاد البلد " فيعترفون بالجرم مقابل مكافأة سخية ، ورواية " الكمامة " مستوحاة من مسرحية هاينريش فون كلايست " الجرة المحطمة " التي صورت قاضيًا يحقق في جريمة هو مرتكبها ، ورواية الكمامة هي بداية الظهور الحقيقي لشبورل ككاتب مستقل لم يعاونه فيها أحد ، كما حدث في رواية "تلميذ بابنبيرج".

إن أدب هاينريش شبورل يعد نموذجًا لما يضحك به وعليه الألمان ، وكما أنهم صارمون في جديتهم ، فهم كذلك صارخون في فكاهتهم ، وربما كان ما ثبت في أذهاننا وتصوراتنا عنهم قاصرًا على الجانب الأول ، فانطباعنا عن الألماني يضعه غالبًا في قالب شخص جاد منضبط ، ساع دائمًا إلى التجويد في عمله متسم بالدقة واحترام النظام ولا يكاد يفهم المزاح ، وكل هذه صفات حقيقية إلا الأخيرة ، إذ إن الألماني له كذلك مزاحه وهو يضحك – حين يضحك – بشدة ، ويلهو – عندما يلهو – كمن لم يعرف في حياته غير اللهو ، فإذا حان وقت الجد بدا كمن لم يعرف اللهو أبدًا . لقد ترسخت الشخصية الألمانية مزايا معينة وطابع إنساني ذو ملامح واضحة ومحددة ، وقد دخلت هذه المزايا والملامح علم الاجتماع وعلم الأجناس في الأدبيات المعاصرة والسابقة منذ تبلور للألمان كيان موحد ، هذه الملامح برزت وتأصلت رغم أن القومية الألمانية تكاد تكون الوحيدة من بين القوميات الأوروبية جمعاء التي لا ترجع نشأتها لأرض موحدة أو لانتماء قبلي واحد ، وإنما هي قومية نشأت من

الانتماء للغة ليس إلا ، أى أن اللغة هى التى وحدت بين انتماءاتهم القبلية المختلفة وإماراتهم المتعددة فصنعت منهم كيانا قوميًا واحداً ، فلم يكن هناك ذكر يعتبر لاسم " الألمان " قبل تقسيم امبراطورية الفرانكيين فى القرن التاسع الميلادى ، وكما أن الأمة الألمانية نشأت بفعل اللغة فإنه إلى اليوم يكمن ثقل ألمانيا فى بعدها اللغوى الحضارى ودورها الثقافى الريادى داخل أوروبا ، وإن كان سبقها الصناعى والتقنى أمر لا ينكر كذلك ، ولم تتخل ألمانيا عن دورها الثقافى إلا فى فترات انتكاس قليلة فى تاريخها ، فكانت بحق أمة الأدباء والمفكرين والفلاسفة منذ عصر النهضة ، إلا أن أبرز فترة فى تاريخها والتى مثلت طفرة تاريخية حقيقية صنعت البعد العالمى للفكر الألمانى قد حدثت فيما سمى فى التاريخ بفترة " الحركة الألمانية " ، جاءت هذه الحركة زمنيًا عقب مرحلة النهضة وعصر الباروك ، حيث سادت نزعات التغريب (نزعات غريبة على الفكر واللغة الألمانيين) فى هاتين الحقبتين وصاحب ذلك اهتمام باللغات الكلاسيكية القديمة على حساب اللغة الألمانية ، فجاءت " الحركة الألمانية " بين عامى ١٧٧٠ - ١٨٣٠ لتصنع طابعًا ألمانيًا عالميًا له كيان واضح وملامح مميزة تطورت باطراد وشملت مناحى الثقافة والفن والفكر والفلسفة ، ومر الأدب فيها بين فترات زاهية صنعت للألمان مجداً أدبيًا ثابت الأركان وهى فترات (العاصفة والدفع ، والكلاسيكية الثانية ، والرومانسية) وأخرجت للعالم عمالقة الأدب جوته وشيلر اللذين يمثلان أعلى مستوى إبداعى وصل إليه الأدب الألمانى فى تاريخه على الإطلاق (خاصة مع جوته) ، وتعد هذه أول حركة ألمانية خالصة فى الفكر والثقافة منذ العصور الوسطى ، فمنذ المرحلة الكلاسيكية الألمانية القديمة

– التى وضعت جذوراً أولى للوعى الألمانى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى والتى مالبث نبتها يضعف وضوؤها يخبو – لم يكد تاريخ الفكر والثقافة فى ألمانيا يسجل مرحلة ازدهار تذكر ، حتى جاءت هذه الحركة أواخر القرن الثامن عشر ، وصاحبها بروز الوعى القومى الألمانى كوعى أمة عظمى على يد روّاد من أمثال فيشته ، وأرنت ، ويان ، وتأسس من ثم فكر الدولة السياسية على يد فيلهلم فون همبولت (وهو شقيق ألكساندر همبولت أشهر باحث فى العلوم الطبيعية فى عصره) ، وفرايهر فون شتاين ، وهاردنبيرج ، وكلاوزيفتس ، وغيرهم ، ولقد كان لهذه الحقبة أثر بالغ الأهمية فى تاريخ فكر الألمان وأدبهم ، وتأسست الإمبراطورية الألمانية بعد حروب التحرير ضد نابليون واستمر الرايخ الثانى من ١٨١٥ – ١٨٧١ قوياً مهاباً ونهضت فيه الصناعة نهوضاً كبيراً بفعل دخول الآلة وتقدم وسائل المواصلات وأُعلن الرايخ الثانى قيصرية عام ١٨٧١ واستمر حتى ١٩١٨ وحاولت ألمانيا فى هذه الفترة منافسة القوى العظمى فى السياسة الاستعمارية فسعت لإيجاد مستعمرات لها خاصة فى أفريقيا ، ونجح بسمارك بدهائه فى تحقيق الكثير من المكاسب لألمانيا فترة إمساكه مقاليد سياستها (١٨٦٢ – ١٨٨٨) دون أن يتورط مع القوى العظمى (فرنسا وإنجلترا) فى حروب ، و بلغت علاقاته بروسيا درجة عالية جداً من التنسيق والثقة المتبادلة ، واستمر هذا الحال حتى جلس القيصر ڤيلهلم الثانى على العرش عام ١٨٨٨ .

يُطلق اسم عام القياصرة الثلاثة على العام ١٨٨٨ حيث شهد موت القيصر ڤيلهلم الأول الذى حكم من ١٨٦١ كملك ثم أعلن نفسه قيصراً بعد ذلك بعشرة أعوام سنة ١٨٧١ ، واستمر قيصراً حتى موته عام

١٨٨٨ فتولى الحكم ابنه القيصر فريدريش فيلهلم الثالث الذى باغته الموت مبكراً فبقى على العرش أقل من ثلاثة أشهر (من ٩ مارس إلى ١٥ يونيو ١٨٨٨) ثم تولى الحكم بعده ابنه فيلهلم الثانى ، وكان لا يزال حديث السن (٢٩ عامًا) عندما اعتلى العرش فى نفس هذا العام (١٨٨٨) ، وقد هدم بتهوره كثيراً من إنجازات الشعب الألمانى ، ودخلت ألمانيا فى عهده مرحلة جديدة حافلة بالأزمات مع القوى الاستعمارية الأخرى نتج معظمها عن طيش القيصر الشاب سواء فى تصريحاته وخطبه أو فى سياساته وخططه ، وسيطرت عليه نزعة رومانسية لتحقيق مجد فريد شملت حتى تصريحاته التى أزّمت العلاقات مع الدول الأخرى (خاصة بريطانيا) تأزيماً خطيراً ، وكان شغوفًا بكل ما هو عسكرى ، ولأنه كان يقود الجيش والحكومة فى وقت واحد معًا فقد سيطر الطابع العسكرى على شكل الحكم ومضمونه ، فبعد عامين من توليه الحكم عزل المستشار المحنك " أوتو بسمارك " وانطلق فى تهوراته السياسية واحداً بعد الآخر ، وبالجملة جاءت الحرب العالمية الأولى محصلة لهذه السياسات المتوترة وصداها على القوى الأخرى ، وبانتهاء الحرب مالبثت القيصرية كذلك أن صارت تاريخًا وتجرعت ألمانيا مع هزيمتها كأس الهوان ، وحلت جمهورية فايمار محل الإمبراطورية ، واتسمت هذه الجمهورية بعدم الاستقرار الداخلى الذى استمر إلى أن جاء هتلر بحزبه النازى إلى سدة الحكم عن طريق انتخابات ديمقراطية فى فترة من انعدام التوزان التى انتابت العقلية الألمانية ، حيث أصيبت بنوع من « سُعار الكرامة » نتج عن إذلالها على يد القوى العظمى التى أملت شروطها إملاءً مخزياً ومهيناً لألمانيا بعد انتصارهم عليها فى الحرب ، وبلغت قيمة التعويضات التى صار على الشعب الألمانى أن يدفعها

للمتنصرين حداً أغلق على الشعب الألماني منافذ الأمل في إمكانية الانعتاق من وطأة هذا العبء الثقيل في أي مستقبل منظور ، وبلغ الانكسار والحنق مداه بين الألمان . في هذه الظروف التي اقتطعت فيها كذلك مناطق كانت تابعة للسيادة الألمانية لصالح القوى العظمى ظهر للشعب الألماني الجريح والمهان منقذ يعدُ باستعادة العزَّة المُهْدَرَة ، كان هذا المخلِّص هو هتلر الذي أسس الرايخ الثالث وبدأت مرحلة في تاريخ ألمانيا والعالم أسوأ من سابقتها .

وما يهمنا في هذه الفترة بالذات هو تأثير السياسة على حالة الأدب والفكر في ألمانيا إبان حكم النازي ، وذلك أن هذه المرحلة هي التي شهدت ظهور رواية هاينريش شبورل " تلميذ بابنبيرج " بل وشهدت ظهور معظم أعماله الروائية ، فعندما جاء هتلر إلى الحكم رفع شعار " الدم والأرض " وجعله رمزاً لحكمه ومبدأ لسياسته ، والحق أنه حين اتخذ هتلر هذا الشعار منهجاً إنما تبنى مبدأً كان قائماً بالفعل وموجوداً بقوة على ساحة الفكر والأدب الألمانيين قبل أن يصعد نجمه ويعتلي سدة الحكم ، فمنذ العشرينيات وعقيب نهاية الحرب الأولى كان هناك عدد من الأدباء يذكون الروح القومي الألماني بشدة في كتاباتهم ومن أبرزهم هانزجريم ، وفسبر ، وشتراوس ، وجريزه ، وشيفر ، ودينتر ، وبلاير ، بل إن بعضا منهم لم يتورّع عن تمجيد الحرب والتسويغ لها تمرداً على حالة الاندحار السياسي والنفسي التي جثمت على ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى ، وكان ممّن تبنى هذا الخط المحرّض على الحرب بويملبورج ، ودفنجر ، وفينر ، وذلك في مطلع الثلاثينيات ، كذلك كان

إرنست فون سالومون واحداً ممن مهّدوا لظهور النازية ، وينبغى أن نذكر هنا أن النازية - على خلاف معظم الحركات الثورية - لم يكن لها أدبها الخاص ، أى أنها لم يتولد عنها أدب يحمل فكراً جديداً ، وإنما تبنت فكراً وأدبًا قائمًا بالفعل يُمَجِّدُ الألمان ويبعث فيهم روح الانتفاض والتمرد ، بل والمحاسبة والانتقام ، فالنازية تبنت عقيدة " الدم والأرض " الموجودة بالفعل وبلورتها عقيدة لها ، وكان هذا التوجه الفكرى والأدبى بارزًا جداً فى ألمانيا قبيل صعود نجم النازى ولم يقتصر على كتاب النثر فقط بل كان هناك من الشعراء من انخرط فى إنتاج شعر خطابى حماسى ذى نبرة تحريضية عالية مثل أناكر ، وبومه ، وشيراخ ، وميتزل ، بل شملت هذه الموجة العارمة كذلك بعض علماء الأدب مثل فريتس شتريش ، غير أنه كانت هناك أعمال بارزة يبقى التلازم بينها وبين التمهيد للنازية أوثق مما عداها ، وأبرز مثال على ذلك رباعية هانز جريم الروائية " شعب بلا أرض " التى ظهرت عام ١٩٢٦ أى قبل مجىء النازى بسبعة أعوام ، وكذلك ثلاثية كولبنهاير " باراسلزوس " التى ظهرت فى الفترة من ١٩١٧ - ١٩٢٥ ، وفى مقابل من مجّدوا الحرب وتغنوا بها كان هناك أدب يحذر منها ويندد بها مثل كتابات لودفيج رِنّ ، وإيجون إرفين كيش ، وفرانك تيس ، ويوسف مارتن باور ، لكنّ صوت هؤلاء كان خافتًا وصدى أعمالهم ضعيفًا أمام طوفان التحريض الجارف والذى كان مرحبًا به أكثر ترحيب فى الشارع الألمانى ، وهذه الحالة تفسر لنا بجلاء لماذا انسجم أدباء مثل هانز جريم ، وهانز يوسط ، وبلونك ، وفسبر ، وإينا زيدل ، وبوريس فون مينشهاوزن ، وآجنس ميجل ، وشتير ، وكولبنهاير ، وبويملبورج ، وتسوبرلاين وغيرهم مع النظام النازى منذ البداية .

يبقى أن نذكر أن هؤلاء الكتاب ليسوا من كتاب الصدارة ولا ممن ينتمون إلى ذلك الطراز المتميز من الأدباء الألمان الكبار ، الذين لمعت أسماؤهم لأنهم يكتبون أدبًا عالميًا بلغة ألمانية كدوبلين ، وبرشت ، وتوماس مان ، وتسفايج ، وأنًا زيجرز وغيرهم كثيرين ، والسبب فى ذلك كما هو واضح أن أولئك الأدباء الذين مهدوا للنازية وتعاونوا معها قد حصروا أفقهم الأدبى فى نطاق القومية الضيق وكرسوا جهدهم الإبداعى فى الدوران حول قضية فقيرة الأبعاد يعوزها المدى الإنسانى الأشمل وسخروا أقلامهم أدواتٍ لطوفان التعصب ، فلا نكاد نلمح عندهم ما يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان ، إنما هم يخاطبون جانبًا مرضيًا شائهًا ذا خصوصية معينة ، نشأ فى ظروف غير عادية مرت بها الشخصية الألمانية فى فترة عصيبة من تاريخها ، لذلك خمُل ذكرهم ولم يكد أحد يعرفهم أو يسمع بهم خارج ألمانيا إلا فيما ندر ، وهذا هو شأن الأدب الذى يتخذ الشعارات السياسية ديدنا له ، وتزيد الطامة إذا تبنى الأدب فكرًا سياسيًا متعصبًا وأهمل قضايا الإنسان الأكثر رحابة .

على الجانب الآخر صارت الأغلبية الساحقة من الكتاب الألمان فى خطر عظيم باعتلاء النازى سدة الحكم ، وتأثرت حالة الأدب والأدباء بهذا الحدث تأثرًا سريعًا ومتتابع الحلقات ، وصار مبدأ " الدم والأرض " عقيدة مُعلَنة لأدب الدولة الرسمى ، وشعر الأدباء الذين لا تنسجم رؤاهم الإبداعية مع هذه السياسة بالتضييق عليهم بادئ الأمر ثم مالبث النازى أن فاجأهم بإجراءات الرقابة الصارمة ثم تلاحقت صور أخرى من الاضطهاد والاستبعاد ، ووصل الأمر ذروته بحادثة إحراق الكتب غير

المرغوب فيها من النظام ، وهى حادثة مشهورة وقعت فى ١٠ مايو ١٩٣٣ ، فشعر الكتاب بتهديد لوجودهم ، وعلى الفور بدأت موجة هجرة ثقافية ليس لها مثيل فى تاريخ ألمانيا وربما فى تاريخ العالم كله ، حيث غادر ألمانيا حوالى ١٥٠٠ (ألف وخمسمئة) كاتب من الأسماء المعروفة قاصدين دولاً أخرى فى أوروبا فراراً من الخطر المحدق بهم ، ومالبثت مدن ڤيينا ، وبراج ، وأمستردام أن صارت مراكز لأدب المهجر ، وصار لأدب المهجر مطابعه وصحفه فى الخارج ، فلم يكن أمام الأدباء المعارضين إلا الهجرة ، فهذه هى الإمكانية الوحيدة أمامهم من بين خيارات ثلاثة : الهجرة ، أو التعاون مع النظام ، أو الخضوع للقمع النازى، وفى سبتمبر من عام ١٩٣٣ كتبت صحيفة " أوراق ألمانية جديدة" – وهى صحيفة مهجرية تصدر فى براج – كتبت تصف الحالة المزرية لوضع الأدباء والكتاب مع بداية الحكم الفاشى تقول : " يمكن أن يبقى الكاتب فى ألمانيا ويهاجم الفاشية متخفيا وراء أقنعة فنية ومخابئ لغوية ، مستحضراً أنه إن عاجلاً أو آجلاً سيكمم فمه وينتزع قلمه من يده ، ويمكنه أن يعمل بتوقيع " مجهول " داعمًا الأدب المحظور داخل الدولة ومسانداً للصحافة المناهضة للفاشية فى الخارج ، وأخيراً يمكنه أن يتحدث عبر الحدود ويخاطب الألمان من الخارج " . بعض الذين هاجروا لم يستطيعوا تحمل التبعات النفسية والمادية لحياة المهجر فانتحر عدد منهم مثل ڤالتر بنيامين ، وتولر ، وتوخولوسكى ، وهازنكلفر وانتحر ڤينكلر كذلك وهو فى سن الرابعة والعشرين .

لقد كان إدراكُ الحكم النازى لأهمية دور الكلمة فى توجيه الجماهير إدراكَ الواعى بالشىء والمجرب له ، كيف لا وقد كانت الكلمة سلاحًا

جباراً عرف هتلر وحزبه كيف يكسبون به الجماهير أولا لصفهم ثم يوجهونهم كالقطيع فى الوجهة التى يرون ، هذه الأداة البالغة الأثر رصد لها النازى وزيراً برع فى إدارتها وتحريك الجماهير بها هو وزير الدعاية النازية جوبل ، لقد كان هذا الإدراك لخطورة الكلمة هو السبب الأساسى فيما أرى للعداء الذى أبداه النظام منذ اليوم الأول لحكمه للكلمة الحرة ؛ لذلك لم يكتف النازيون بتخويف وإقصاء الأدباء وإحراق كتبهم بل امتدت أيديهم لهم بالاغتيال عندما أدركوا خطورة نشاطهم فى مقاومة نمط الحكم الفاشى ، وكان ممن اغتالوهم ت . لسنج ، وهاوزهوفر ، وميهزام ، وبعضهم مات من جراء قهر التعذيب وقمع المعتقلات مثل كارل فون أوسيتسكى ، وكورنفيلد ، وجوتفريد كولمار .

مع اندلاع الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ بدأت موجة هجرة جديدة ، لكن وجهتها هذه المرّة لم تكن أوروبا كسابقتها وإنما اتجهت إلى شمال وجنوب أمريكا ، ولقد نشأ فى المهجر عدد من أهم الأعمال الأدبية الألمانية فى النصف الأول من القرن العشرين منها مثلا : رباعية توماس مان " يوسف وإخوته " التى ظهرت بين عامى (١٩٣٣ – ١٩٤٣) ورواية " الصليب السابع " لأنّازيجرز (١٩٤٢) ، ومسرحيتا برتولت برشت " الأم شجاعة وأولادها " (١٩٤١) " وحياة جاليليو " (١٩٤٣) ، وظهرت ثلاثية " الأمازون " لألفريد دوبلين فى الفترة من (١٩٣٧ – ١٩٤٨) ، وكذا رواية هاينريش مان " هنرى قطر " وهى من جزأين (١٩٣٥ – ١٩٣٨) .

وعلى كل حال فقد كان من اللافت للانتباه أن جميع الأسماء اللامعة والمعروفة عالميًا قد غادرت ألمانيا والنمسا فراراً بأنفسهم من

الجحيم الذى يترصّدهم بالداخل ، وكان منهم الأخوان تسفايج ، وليون فويشتفانجر ، وأوسكار ماريا جراف ، وفرانتس ڤرفل ، وكارل تسوكماير ، وباول تسيش ، وأونروه ، وأنا زيجرز ، وروبرت موزيل ، وهرمان بروخ ، وتوماس مان ، وهرمان هسه ...

أما الذين بقوا فى الداخل فيما عدا من انخرطوا فى التعاون مع النازى فقد نأى العدد الأكبر منهم بنفسه عن مشاركة النظام عقيدته ، ولكن مساحة الحرية المتاحة لهم بلغت أدنى مستوى يمكن تصوره فانطوى أغلبهم على ذاته فيما سمى بعد ذلك " بالهجرة الداخلية " وأظهروا عدم التأثر بالوضع القائم ، ورغم رفضهم لهذا الوضع إلا أنهم لم يكونوا على اتصال بالمقاومة الفاعلة وكان من هؤلاء أدباء مثل إريش كستنر ، وڤيرنر برجنجرين ، ونيكش ، وكايزر إيدشميد ، وبيشل ، وهرمان كايزلنج ، وشرويدر ، وڤالتر فون مولو ، وشنايدر ، وإرنست فايشرت ، وكليبر ، وفرانك تيس ، وكارل كرولوڤ ، وڤيلهلم ليمان ، وجرد جايزر ... .

ومعظم هؤلاء اتبعوا أسلوب التمويه بوسائل أدبية ولجأوا للاستعارة ، والأمثولة ، والأسطورة لإخفاء مقاصدهم الحقيقية فى نبذ الحكم القمعى ، وكان أكثر الجميع شجاعة ريكاردا هوخ ، وإرنست بارلاخ اللذين أعلنا صراحة معارضتهما للنظام ، أما جوتفريد بن فقد انقلب على النازى بعد أن أظهر تأييده له بادئ الأمر .

أما الجيل الثانى من الأدباء غير الفاشيين داخل ألمانيا (مثل فريدولاميه ، وأيش ، وكوپن ، وفلايسر ، وكاشنيتس ، وجوز ، ونوزاك ،

ويريتنج ، ولانججيسر) فقد مالوا إلى تبنى الخط الأوروبى المحافظ ، واجتهدوا فى إبداء نوع من التوزان فى إنتاجهم الأدبى ظل يتطور حتى عام ١٩٤٥ تحت تأثير الوجودية .

وكان هناك أخيراً لون من الأدب يكتب ويوزع فى الخفاء أو كما سُمّى " أدب تحت الأرض " فهو يكتب ويوزع بصورة غير رسمية وبعيداً عن الأعين الرقيبة ، وقد كان له دور فاعل فى التحريض على مقاومة النازى ، ولكنه يبقى فى النهاية ذا تأثير ضعيف إزاء طاغوت القوة وسطوة التنكيل التى ما فتئت تزداد شراسة كلما ازداد تأييد الجماهير المغيبة عن الوعى للحكم النازى ، فلقد كان كل يوم يمر يمثل زيادة فى شعبية حزب هتلر وبدا الشعب كأنما فتن بسحر المجد الذى يبشر به النازى وببراعة القائد (الفوهرر) فى إلهاب حماس الجماهير التى وقعت تحت تأثير الدعاية المنظمة والمكثفة بصورة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً ، وكان من رواد أدب الخفاء ڤيلى بريدل ، ويان بيترسن .

وإذا أردنا أن نضع شبورل فى مكان بين هذه التصنيفات العديدة بين أدباء الداخل نجده أقرب ما يكون إلى أدباء الهجرة الداخلية ولكن على طراز وكيفية خاصة ، فقد آثر الكثيرون من أدباء الهجرة الداخلية الهروب إلى الميثولوجيا وشعر الطبيعة والتحليق فى المجهول والتعلق بالمُجرّد ، وتناولوا كذلك موضوعات ميتافيزيقية سحرية مغلّفة بإبهام أسطورى غير محدد المعالم ، لذا فشبورل أقرب ما يكون إلى هذا

الصنف المنسحب إلى عالم هروبى لا يواجه واقعه ولا يريد ، إلا أن انسحاب شبورل كان فريداً من نوعه ، لأنه انسحب إلى عالم النوستالجيا ولكن على متن مركبة الفكاهة والتسلية ، وكأنه يسخر من واقع صار عبثيا إلى الحد الذى لا يرى هو معه فائدة من التصدى له على أى وجه جاد ، لقد آثر شبورل السلامة وأظهر نوعًا من الهجرة الداخلية – إن صح انطباق الوصف عليه – بطريقته الخاصة ، ومن المفارقات العجيبة أن تشهد هذه الفترة الحرجة فى تاريخ ألمانيا الْمَوْصُومَة بالقهر والمفعمة بالصراع والإرهاب والترقب – أغلب وأفضل أعمال هاينريش شبورل المسلية الضاحكة ، إنها معادلة غريبة بين أديب وواقعه .

تلك إذن كانت الظروف التاريخية والملابسات السياسية والأدبية التى صاحبت كتابة رواية " تلميذ بابنبيرج " . ويحسن أن أعطى هنا نبذة عن الطريقة التى اتبعتُها فى ترجمتها ، فلقد راعيت فى ترجمتها المحافظة قدر الإمكان على المواءمة بين الألفاظ والتراكيب الألمانية وما يقابلها فى العربية بما يحقق أقصى قدر ممكن من أمانة النقل بدءًا باللفظ وانتهاءً بالفقرة مروراً بالتراكيب القصيرة والجمل ، فكنت أختار اللفظ الأكثر تأدية لنظيره فى الألمانية ثم أختبر اللفظ فى سياق الجملة ثم أقيس الجملة على سياقها وفقرتها لأرى مدى التوافق بين ما قصده المؤلف وما تفيده جملة الترجمة ، وكانت الأولوية للفظ مقابل ما يؤدى معناه فى العربية إن كان هذا يحقق تركيباً صحيحًا وتعبيراً سليماً فى العربية ، وإلا حيد عن مقابلة اللفظ باللفظ إلى دلالة التركيب مقابل التركيب فى الألمانية ، وقد كان حرصى على نقل روح النص لا مجرد لفظه ديدنًا لى على مدار القيام بالترجمة ، لأن هذا نصٌ تحمل أغلب

الألفاظ فيه دلالات ضاحكة فينبغي المحافظة عليها ونقلها قدر الإمكان إلى القارئ العربي ، لذا فقد حاولت دائمًا تقليد الظلال اللغوية التى أضفاها المؤلف على حديث أبطاله ، وأحيانًا لم أتمكن من ذلك ، فكنت أستعيض عنها بشرح هذه الظلال فى الهوامش حتى تكمل الفائدة ، هذا كما قلنا مع المحافظة على إعطاء اللفظ المقابل عربيًا لما فى النص الألمانى إلا إذا أثر ذلك على صحة المعنى فعندئذ تصير الأولوية للمعنى لا اللفظ ، ولم يقتصر دور الهوامش على هذا الإيضاح اللغوى وإنما أوضحت فيها كذلك ما يحتاج إلى بيان مما ورد فى نص الرواية الألمانية من أشخاص ، وأسماء ، وأشياء ، وأحداث قد تحتاج إلى نوع من التعريف السريع بها ، ثم التزمت نقل الجمل والمسميات الأجنبية كاللاتينية والإنجليزية والفرنسية كما هى فى متن الترجمة وشرحت معناها فى الهامش ، وكان نقلها كما هى باللغة الأجنبية دون أن أترجم معناها مباشرة فى النص ضرورة من وجهة نظرى ، لأن الكاتب وضعها فى الأصل الألمانى هكذا وقارئه الألمانى يجدها كذلك بلغة أجنبية ، ولا يخفى ما فى ذلك من ضرورة نقل هذا القصد للمؤلف إلى القارئ العربى ، ثم لا يخفى كذلك ما ينطوى عليه هذا من ظلال لغوية ودلالات لا تؤديها الترجمة المباشرة فى مثل هذه الحالات .

هذا وقد التزمت باللغة العربية الفصحى برغم أن الرواية هى من روايات التسلية ، ولقد يسأل سائل لم ذاك ؟ وأجيب أولا لأن الأصل مكتوب كذلك بالألمانية الفصحى إلا فى القليل النادر من حديث المدرسين فلزم نقله كما هو فى أصله بالفصحى ، ولعل هذا يبين لنا الأهمية التى تحتلها اللغة الفصحى عند الألمان ؛ فهى لغة الحوار ، ووسائل الإعلام ،

والبرامج الجماهيرية فى الإذاعة والتلفزة ، وهى لغة المسرح ، والسينما والأغاني والمتجر ، والمدرسة ، والبيت ، وهى لغة الشارع والجامعة ، حتى النكات والقفشات والمسرحيات الكوميدية ، وروايات التسلية كلها تصاغ بالألمانية الفصحى فى صورة من الاعتزاز الشديد لقوم بلغتهم بلغ حد الإجلال ، لذلك فالنمط اللغوى عندهم موحد والتراكيب اللغوية الفصحى شائعة وللأشياء دلالات ومعان محددة عند سائق سيارة الأجرة وعند الوزير ، ولهذا أعظم الأثر فى توحيد نمط الفكر وإبراز هوية الأمة ولقد لمست من خلال معايشتى للألمان فترة ليست بالقصيرة كيف أن هذا النمط اللغوى الموحد والأقرب ما يكون للغة الكتابة قد أسهم فى تيسير التفاهم بين الأفراد بعضهم وبعض وبين المؤسسات العلمية والبحثية والإدارية ... إلخ ، لأن اللغة المستخدمة واضحة الدلالة للجميع ، ولقد كنت أصاب بنوع من الإحباط كلما رأيت أطفال الألمان يتحدثون أثناء لعبهم لغة بينة لا تكاد تفترق عما يتعلمونه فى الكتاب المدرسى فى شىء بينما سادت عندنا اللهجات بصورة مزرية ولو أتينا بأجنبى يتعلم العربية فلن يستطيع فهم شىء مما يتحاور به الكبار عندنا فضلا عن الصغار .

إن اللغة الفصحى دوراً هائلا فى بلورة وعى الأمة وسَتُسْهِمُ لغتُنا العربية الفصحى – إذا نحن أوليناها قسطًا يليق بها من اهتمامنا – فى بلورة وعينا المعاصر بأنفسنا وهويتنا ، وليس هذا بدعًا من القول ، فكل الأمم المتحضرة مثلت اللغة لها عاملاً هائل الأثر فى نهضتها ولا نكاد نجد هذا التشرذم اللغوى إلا فى عالمنا العربى ، لقد صار من غير المقبول عندنا – للأسف – أن يتحدث المتحاورون ، والمذيعون ، ومقدمو البرامج الجماهيرية بالعربية الفصحى إلا فى القليل النادر ، وصارت

الفصحى وقفًا على بعض المثقفين ، وعلماء الدين ، وصارت أجيال متعاقبة من الشباب وغيرهم تنفر من الفصحى كأنها عار عليهم بينما العار كل العار عند الألمان ، وعند كل الشعوب التى نهضت ألا يتحدث الواحد منهم ، ولو كان من عامة الشعب بله الدارسين والمثقفين والطلاب والمعلمين - لغة فصحى واضحة خاضعة لقواعد النحو سليمة البناء .

لقد صار مستوى القرب من اللغة الفصحى معياراً للحكم على الفرد الألمانى بين بنى جلدته فإن أبدى ركاكة كان مثار سخريتهم ، وسوف يرى القارئ فى نص الترجمة كيف أن الفصحى صاغت أوثق الأمور صلة بمظنة التبذل والتبسيط - وهو الفكاهة - صياغة باهرة لم تسلب النكتة ولا المرح شيئًا من أبعادهما ولا دلالاتهما ، علينا إذن أن نقتدى بهذه الأمم التى نهضت ونعرف قيمة اللغة ونعطيها حقها من الاهتمام فلم يعد أمامنا اليوم عذر فى ذلك ، علينا أن ننفض عن كاهلنا هذا التردى الجاثم وأن نقلع عن هذا الجرم الآثم فى حق لغتنا العربية الفصحى وإذا أردنا لصفوف هذه الأمة أن تجتمع فاللغة الواحدة ذات النمط الموحد - أو الأقرب ما يكون إليه - النمط الذى يتحدث به ويفهمه المصرى ، والخليجى ، والمغربى ، والشامى ، والعراقى ، والسودانى - تلك اللغة هى بوابة المجد والمدخل إليه ، فهلا دلفنا بقوة ؟! لقد قطعت أوصالنا اللهجات فصار لكل قطر لهجة " رسمية " فضلا عن عشرات أو مئات أخرى فيه فلا يكاد المصرى يفهم المغربى ، ولا يكاد المغربى يفهم السودانى ، أو السورى إذا كان الحديث باللهجات التى صارت حائلاً دون التفاهم الذى هو أداة التواصل والتعاون ثم التوحد ، بينما تجمعنا

لغة فصحى رائعة بيانها السحر ، فلماذا تخاذلنا عنها ؟ أنا لا أقول أن اللهجات يمكن إلغاؤها فهذا أمر غير معقول لأنه غير واقعي ومناف لطبائع الاجتماع ، إنما أقول ينبغي أن نبرز دور اللغة الفصحى ونحجم دور اللهجات خاصة في وسائل الإعلام والبرلمانات والمؤسسات ، وفي كل الدنيا لهجات ولكن الدول الرائدة في العالم اليوم لها نمط لغوى موحد ، هو الذى يربط الجميع ، والكل ملزم به إذا خاطب المجموع ، وله أن يتحدث باللهجة فيما عدا ذلك في بيته أو مع أولاده أو أقاربه كيف شاء ، لا ينبغى أن تستمر سيادة اللهجات فى عالمنا العربى على اللغة الفصحى بحال ، ولا ينبغي أن نترك هويتنا تمزقها الركاكة الموصلة إلى الجهالة. فكيف نفهم العالم وننشد أن نكون فاعلين فيه ونحن لا نحسن لغتنا ؟ كل أمة تحترم كيانها تحرص على لغتها حرصها على كرامتها ، لأنه لا فلاح لها بدونها ، والألمان - كمثال - يحرصون أشد الحرص على لغتهم ، ويعقدون بالتعاون مع الدول الأخرى الناطقة بالألمانية كالنمسا وسويسرا من أجل ضبط قواعد إملائها ورسم كلماتها وتقنين نحوها مؤتمرات عديدة وتنفق نفقات هائلة ، والكل يحرص على الحديث بها فتشكّل نمط موحّد للغة يجمع الكل هو اللغة الفصحى أو فى أقل تقدير مستوى أقرب ما يكون لها ، لذلك فلا يكاد ما يكتب باللهجات فى ألمانيا يقاس إلى ما يكتب باللغة الفصحى حتى فى المسرح الذى يتوجه مباشرة بالفن إلى جمهوره ، ولا نكاد نجد مسلسلاً تلفزيونيًا أو فيلمًا سينمائيا ناطقًا باللهجة إلا فى أقل القليل ومعظمه مما يكون وثائقيا ، فأين نحن من كل هذا ؟ وأين وسائلنا، وأدواتنا التى يمكن أن تنهض بهذا الدور وتبث فى الناس الحرص على اللغة الفصحى قولاً وعملاً خاصة بعد أن ولى زمن

الأمية أوكاد ؟ أين المسرح الذى يخاطب الناس بالفصحى وأين السينما التى تحرص عليها ومتى تخرج الفصحى من سجن الكلمة المكتوبة والمسلسلات التاريخية ونشرة الأخبار لتنطلق فى رحابة الحياة وتدور بها الألسن فى الشارع والمصنع والمؤسسة والجامعة ؟ ليتنا نتعلم من الأمم التى نهضت ، وعسى أن نرى قريبًا نهضة لغوية فى بلادنا تقودنا إلى ذرى محلقة ، إن الألمان يترجمون كل علوم الدنيا إلى لغتهم ، فالنقل إلى الألمانية يمثل أكثر حركة ترجمة إلى لغة ما فى العالم ، وهم بذلك فى سعى دائم ودءوب من أجل استحواذ كل العلوم : طبيعية ، وفلسفية ، وأدبية ، وتقنية ، ورياضية ، وفلكية ، وتوفيرها فى لغتهم لتكون متاحة لكل باحث ومهتم باللغة التى يفهمها ، فالتجويد فى الشىء لا يأتى إلا من صحة تمثله ولن يتمثل المرء علمًا لم يفهمه ولن يفهمه إلا بلغته ، هذا على مستوى الشعوب وعلى مستوى القاعدة العريضة من المهتمين من غير أهل الاختصاص ، أما هؤلاء - أهل الاختصاص - فدورهم كذلك أن ينقلوا ما عرفوه فى لغات أخرى لينتفع به نووهم ممن لم تتح لهم معرفة تلك اللغات . والله من وراء القصد وهو يهدى السبيل .

ـــ سيد أحمد فتح الله

هذه الرواية هى أغنية مدح للمدرسة
إلا أنه من الممكن ألا تلاحظ المدرسة ذلك

سائل أحمر بلون الدمّ يتصاعد منه بخار .

رجال يجلسون حوله القرفصاء .

واحد منهم - الأكبر سنًا - يقبض بالملقط الحديدى على قطعة سميكة بيضاء بلون الكريستال ويمسكها فوق الوعاء .

الثانى يمسك بيده زجاجة مُغبرَّة ويصب منها سائلاً أبيض فوق تلك القطعة .

الثالث يُشعلها ، تندلعُ فيها شُعلة زرقاء كأنها شبح ، ويعلو لهَبُها ، تئزُّ القطعة البيضاء وتبدأ فى الانصهار ؛ فتنفصل قطراتٌ سميكةٌ لَزِجة لتسْقط فى الفيض الأحمر السائل محدثة طشيشًا ، وينطلق ضباب خفيف ومخدر فى رواق القاعة صاعدًا إلى الرؤوس .

الرابع يعدل من وضع الأكواب ، الخامس يفتح علبة سيجار برازيلية ، السادس يقلِّب خلطة الشراب .

وعلى السابع ، وهو أصغر الحضور سنًا ، أن يصب الشراب .

ينهض صاحب المشورة (*) السيد فروبل واقفًا ويقول :

" لقد قـمنا بعد ظـهر اليوم بـدفن عزيزنا بافـيان (**) الطيب ، من فضلكم لا تضحكوا ياسادتى . كان بافيان يسمى فى الحقيقة شميتس (***) ، وكان مـعلمنا العجـوز للغة اللاتينية ، لقـد كان يحـشو رءوسنا بقيـصر ، وهوراس ، وكنا نكافئـه على ذلك بأن نحضر له الجـعارين معنا إلى قـاعة الدَّرس أو نَدهن له السبُّورة بالشَّـحم ، ألا تعرفون ذلك ؟ إنه لأمر رائع : سبورة لا تؤدى دوراً ، وتلتف فى صمت أسود - إنه ينعم الآن بما يستحق من راحة وليس لديه الآن فتيةٌ أشرار يعذِّبونه ، عسى ألا ينقصه ذلك هناك فى العُلا . فلنشرب نخبه ! " .

تتقـارع الأكواب ثقيـلة ، يتصاعـد منها البخـار ، بينما تئـز المروحة وترتعش الشموع وتمر سحب الدخان فوق المائدة .

" فى صحته ! "

" بهذه المناسـبة أقـول إنه لم يكن واحداً ممن يبصـقون داخل القـاعة ، فليس لأحدٍ أن يشنع عليـه بهذا ، وفى أيام الاثنين كان يأتى أحيـانًا مصابًا ببعض التَّعب ، فيصعد المَنصَّة ثَقيل الخُطى ، ويطلُبُ منَّا أن نكتب شيئًا ما ،

(*) صاحب المشورة لقب كان يطلق أساسًا على أحد أعضاء الهيئة الاستشارية التى تقع مباشرة تحت إمرة أحد الإقطاعيين ، ومنذ القرن السابع عشر أصبح يطلق على العضو فى إحدى الوزارات ، وظل يستخدم حتى عام ١٩١٨ كلقب لكبار الموظفين . (المترجم)

(**) بافيان Pavian كلمـة تعنـى فى الأصـل القـرود - وهـو نـوع من القرود . (المترجم)

(***) شميتس Schmitz كلمة تعنى فى الأصل ضربة أو خبطة . (المترجم)

ثم يأخذ رأسه بين يديه وينعس ، لكننا جماعة الأشقياء لم نكن نتفهم حالته تلك ، وذات يوم تآمَرْنا وتسلَّلْنا بفظاظة وبلا شفقة من الفصل واحداً بعد الآخر ، وحين استيقظ كان يجلس أمام أدراج خاوية . سادتى ، إنكم تضحكون مبكراً فقد كان للأمر نهاية مأساوية ، ولقد أدمت الحادثة قلب معلمنا بافيان ومكث عدَّة أيام لا يأتى إلى المدرسة - ثم أقلع عن السُّكر» .

يتدخل مستشار العدل (*) قائلاً : " كان لدينا معلم هو كائن مُضحك لم يحمل منديلا قط ، وكان يمسح نظارته بلسانه ، وحين فعل أحدنا يومًا مثلما يفعل ، غضب المعلم غضبًا شنيعًا ، وطلب منا أن نكتب موضوع إنشاء تحت عنوان : (**) Quad licet jovi, non licet bovi "

« أما نحن فكان عندنا معلم لئيم ، لم يكن يغض طرفه عن الفصل ثانية واحدة ، كان كالمرَوِّض أمام حيواناته المفترسة ، حتى حين يكتب على السُّبورة ، كان يتجه بوجهه إلينا ويكتب بذراعه فى وضع مائل ، لم يكن هناك سبيل لعمل شىء مع هذا المعلم ، لكننا فعلناه ذات يوم ، فقد اتفقنا معًا وأخذنا نحملق فى دولاب الفصل بلا كلل طوال الحصة ، لم يلاحظ هو ذلك فى البداية ، كان ينظر فقط بين وقت وآخر إلى الدولاب بارتياب ، لكنه لم يستطع أن يكتشف شيئًا . وبالتدريج ثارت أعصابه ، فاتجه فجأة نحو الدولاب ، لم يكن هناك شىء يلحظه ، وأخيراً لم يعد

(*) مستشار العدل : هو رجل قانون لكنه لا يعمل فى وظيفة حكومية . (المترجم)
(**) « ما يصح لجوبيتر لا يصح للثور» . باللاتينية فى الأصل . (المترجم)

الأمر بالنسبة له محتملاً ، ربما ظن أن هنـالك آلة جهنمية ، وبسرعة فائقة جذب باب الدولاب بعنف : لا شيء ، أمر بإخلاء الدولاب : لا شيء » .

وهنا يتساءل الدكتور هانز فايفر في براءة " وماذا كان في الدولاب؟ »

فكانت الإجابة ضحكًا مدويًا .

عندئذ يُطرح سـؤال : لماذا يكون المعلمون غـريبي الأطوار ؟ وتأتي الإجابة : أولاً هم ليسـوا كذلك على الإطلاق ، فخيال الصغـار والمبالغة في الإشاعة هو ما يجـعلهم كذلك ، وليس هناك من إنسان ، ليس هناك من قائد يقف بين يـدى جماعة من قـساة القلوب المتـوثبين للسخرية كـما يقف المدرس أمام أعين تلامذة لا تـرحم ، وفي سعيه لحفظ كـرامته ولكي لا يفتضح أمره فإنه يتحايل ويشذ ، أو أنه يخمد ويتهاون في حق نفسه .

يضيف إتسل العجوز : " كان مـعلم الرياضيات لدينا مثالاً لذلك ، وغالبًا ما كان يأتي الفـصل مرتديًا نصف زيِّه ، فمرة يأتي بلا ربطة عنق ، ومرة بفردتي حذاء مختلفتين ، وأحيـانًا تكون بعض أزرار قميصه غير مزررة ، كنا نضحك ونمسك بأفواهنا ، وكان الأمر عنده سيان » .

« وكان عنـدنا مدرس للغناء لديه ولَع غـريب في أن يتحـفنا في كل حفل مدرسي بقطعة مـوسيقية طويلة على البيـانو ، وذات مرة ، في عيد ميلاد القيصر ، انطلق يعزف قطعة مؤثرة ، بينما قاعة الاحتفال في صمت شامل ، فجعل البيانو يخرج صوتا غريبا : بر-بر ، بر-بر ، بر-بر ، ولم يكن النغم مؤثرًا بحال» .

« آه ، إذن فـقد وضـعتم على الأوتار سـلسلة ؟ يحدث ذلك أيضًـا بالورق الناعم . كان عندنا مرة . . . »

« أتعرفون مـا يحدث حين يضع المرء الطباشير فى الحـبر ؛ إنه يفور وتنتج عنه عفاشة عظيمة " .

« وضعنا ذات مـرة قطعة إسفنج مبللة على كـرسى المنصة ونتج عن ذلك أن خرج هيمندال العجوز عن طوره حين ابتل سرواله » .

يُطرح سؤال آخر : فلماذا يُعذب التلامـيذ معلميهم ؟ أبدافع الشر ، أم دفاعًا عن النفس ؟ أم درءًا للملل ؟ أم أنهـا غريزة ؟ إتسل العجوز لديه الإجابة : لأن ذلك يبعث على المرح ، ولازال ذلك يبعث على المرح حتى اليوم ، لمجرد أن الحديث يدور حوله ، وقـد فعل معملونا الشيء ذاته مع معلميهم أيضًا .

يعود الـرفاق إلى سابق حـديثهم ، وكلّ واحـد منهم يسهم بـالقول إسهـامًا يَضْحَك هُو عليه أكـثر مما يضحك الآخـرون ، وكل منهم يعرف شيئا أكثر جاذبية ويلتقط من فم الآخر الكلمة ، كان الأفضل فيما يبدو أن يقُص الجمـيع حكاياتهم فى وقت واحد معًا ، لقـد كانوا سعداء كـأطفال المدارس ، وهُم من هُم سـادةً أجلاَّء ، خلّفَ كلّ منهم وراء ظهـره نصف قرن من العُمُر ، ضحكـوا حتى تدحرجت على وجناتهم الدموع ، ونبض وعاء النبيذ الكبـير بموجات ناعمة ، تدور أبخرة الدخان فى سـماء القاعة ، تئز مروحـة التهوية ، وترتعش الشموع ، ويُرى صـانع البراميل وهو يتلكأ فى مشيته على مقرُبة ويتعجب « أتحلم أنت أيضا ولو لمرة بالمدرسة ؟ »

أوه ، إنهم جميعا يحلمون بها ، والشيوخ بصفة خاصة . « منذ فترة قريبة حلمت أنني توجهت مع صغيرى للمدرسة لكن ذلك كان بدافع المرح، وبطبيعة الحال لم يكن لدى ومضة فهم ولو ضئيلة ، وكان على الولد أن يلقنني كل شيء غير أنني مع ذلك لم أكن خائفًا ، وحين تأزم الموقف لم أكن بحاجة إلا لأن أنهض وأقول : ماذا تريدون على الإطلاق ؟ إنني هنا بدافع المزاح ، لقد حصلت على الشهادة الثانوية من وقت طويل » .

« وأنا لا أحلم إلا بأنني قد نسيت كتابى للتاريخ ، وبصفة خاصة عندما أكون قد أثقلت في طعام العشاء » .

« يالك من تافه ، فما كان لى يومًا كتب ولكم كُنت أتحسر على المال ، فقد كان يُبَدّد على شراء النبيذ ، وحين حدث ذات مرة و . . . » .

« هل قصصتُ عليكم ذلك ؟ كان ذلك في الأول من أبريل ، حيث قام واحد منا بـ . . . » .

« كان عندنا دائمًا أبريل ! »

« كان لدينا . . . » .

« قمنا ذات مرة . . . » .

السادة لا يتيحون لأنفسهم الاستمتاع بشيء مما يُقال ، يحاول كل منهم أن يغطّى بقوله على قول الآخر ، والحلم والواقع يصب كل منهما في الآخر ، والرجال الستة - هؤلاء السادة - آباء لأبناء من الدارسين بالجامعة ولبنات متزوّجات ، بَدوا صغارًا عن أعمارهم الفعلية بصورة كبيرة.

كان صانع البراميل قد ولّى منذ فترة طويلة ، وفى رقّة انسحب أيضًا صاحب الحـانة ، وكان على الرائى أن يتوقع فى كل لحظة أن يبـدأ السادة الذين تحللوا من كل قـيد فى رمـى بعضـهم بعضًـا بكُريات الورق ، أو أن يبدأوا النقر على أرجلهم .

واحـد منهم فقط كـان يجلس مـهمـومًا وهو يرقب مـا يدور ، إنه الدكتور هانز فايفر ، أصغر الرفـاق سنًا . كان له بالفعل اسم كبير ككاتب شاب ، ولقد مَوَّل إتسل العجوز أوليات كتـبه التى يتهافت عليها الناشرون اليوم ، ونالت كتاباتُه الفكاهية شهرة عـالمية ، وكان ينسجم انسجامًا رائعًا مع هؤلاء السـادة الكُهـول ، لكنـه ليس منسجمًـا اليوم ، فهو لا يفهم ما يتكلمون عنه ولا يدرك علام يضـحكون ، وهو يجد ذلك كُلَّه هُراءً نوعًا ما ، إذ ما المدرسة بصورتها الحقة ، ذلك مالا يعلمه فايفر إلا من خلال الكتب التى ليس لها وجود .

وهو نفـسه لم يكن يومًـا ما فى مَـدرسة ثانوية ، فـقد تم إعـداده للشهادة الثـانوية بأموال أبيه على يد مدرس منزلى عـجوز ، لم يكن ممكنًا ممارسة أى نوع من العبث معه ، لأنه كان رجلاً مسكينًا .

انهزم هانز فـايفر تمامًا وامتـلأ حسدًا على الرفاق ، فـلابد أنها شىء رائع تلك المدرسة بمُدرسيـها الحقيقيين وفـصولها الحقيقـية وزملاء الدراسة الحقيـقيين أيضًا ، لقد تـصور نفسه بأعوامـه الأربعة والعشريـن كهلاً بين هؤلاء السادة الأكبر منه سنًا .

وبدأوا هم بدَورهم يَرثُون لحاله .

« آه . أنت ليس لديك فكرة عن هذا يا فايفر » .

« حقًا يـا فايفر فقـد فاتك هنا شيء هام . لقد فاتك أجـمل ما في الحياة » .

« يعلمُ اللهُ إنه لأجملُ ما في الحيـاة ، وليس بإمكانك أن تستعيده . في صحتك يا فايفر ! »

نعم ، ليس بإمكانه أن يستعيده .

بدأ نبيذ ملقط الجمر يَبْرُد ، وجعل الرفاق يتحدثون كثيراً ويشربون قليلاً ، وفايفر يقدم الشراب ، وتدور عُلبةُ السيجار البرازيلية .

فجأة تُحلِّقُ فكرةٌ في القاعة ، فكرةٌ صغيرة وغبية ، لا أحد يعلم من أثارها أو عمن وردت ، ربما من نبيذ ملقط الجمر ، ثم إنها ليست إلا دُعابة، مجـرد سخـرية عابثـة لكنها أثيـرت وتمكنت من الرءوس واستـحكمت ، ضحك الرفاق عليها وهزّوا رءوسهم ، ثم تحدثُوا عن شيء ما آخر . لكن هذه الفكرة ما فتئت تطفو بين الحين والآخر ولم يعد ممكنا محوها .

« ماذا ترى يا فايفر ، ألديك الشجاعة ؟ »

الشجاعة لم ؟ ما الذي يمكن أن يحدث له ؟ بإمكانه أن يرجع في أي يوم متى لم تعد الحالُ تروقُـه ، أو أن يدع نفسه يطرد إذا تجاوز قدره . إن معه شهادته الثانوية على كل حال .

يتفكر فايفر ، من المؤكد أن ذلك سيكون مزاحًا فريدًا ، وربما يصير أيضًا مادة لرواية أو فيلم ، وتثيره المغامرة بقوة ، ذلك الرومانسى الذى لا يفصح عن رومانسيته . ولكن . . .

ليس هناك ولكن ، وتدافعوا عليه من كل جانب .

« معلوم يا فايفر أنك لن تأخذ معك سيارتك » .

« ولن تأخذ أيضا خطيبتك ماريون » .

« ولابد أنك ستستطيع اجتياز عدة شهور ليس فيها أى تغيرٍ فى إيقاع الحياة » .

وانطلقوا يتباحثون حول التفصيلات والطريقة . إنه مايزال يبدو صغيراً إلى حد ما ، ويمكن أيضًا الاستعانة ببعض الأشياء ليبدو تلميذًا ، واشتعلت المائدة المستديرة حماسًا بالفكرة .

تصر المروَحة، و ترتعش الشموع ، وتُحلّق أبخرة الدخان فوق الرءوس الساخنة ، وفى طبعة ثانية مزيدة ومحسَّنة تزايد مقدار نبيذ ملقط الجمر .

« فى صحتك يا فايفر ! »

« متى يكون البدء ؟ »

« اللعنة ! إنهم يريدون مرافقتى فى السفر » .

« أنت ياهذا ! بإمكانى أن أقتلك ! »

عادت الكئـوس الثقيلة تصطك ببـعضهـا بعضًا ، ثم أعـيد ملؤها ، واصطكت مراتٍ ومرات .

وببطء ولكن بثقة أخذ نبيذ ملقط الجمر يؤدى واجبه .

فى نبيذ ملقط الجمر يكمن الـسر ، ليس لسبب ثقل الرأس والشعور بالهمـود أثناء النهار ، وهو شعور يـنتاب من عاقروا الخـمر طوال الليل ، فهذا موضوع مستقل بذاته .

إن نبيـذ ملقط الجمر ليـس نبيذاً ، إنه شىء وسط بين ردىء الخـمر والسِّـحر ، ولئن كـانت البيـرة تتجمـع فى الساقين ، والخـمر يقـر فوق اللسان، والعـرق يزحف إلى المخ ، فإن نبيـذ ملقط الجمر يتجـه أثره نحو المزاج (*) إنه يلف النفوس ناعمًا دافئًـا وينفض عنها ثقل ارتباطها بالأرض فيحول كل شىء إلى نسيم وضباب .

ولكن بقيـت الفكرة ، وانتصرت الخـاطرة وتحولت إحـدى الأمنيات الحالمة إلى حقيقة .

* * *

(*) نبيذ ملقط الجمر هو خليط شراب ساخن يتكون من النبيذ الأحمر وكمية كبيرة من شراب الروم مختلطين ببعضهما وبالسكر المنصهر ، حيث يمسك قمع من السكر بماسك ويُصب عليه الكحول ويُشعل ثم يوضع القمع بحاله هذه بحيث يسقط السكر المنصهر فى وعاء الشراب قطرة بعد أخرى . (المترجم)

ثمة استعدادات كان ينبغي اتخاذها ، أولّها الذهاب للحلاق « يُحلق الشارب ويُقص الشعر من الخلف قصيراً ومن الأمام يكون طوله ستيمترين » .

« . . . ماذا تقول من فضلك ؟ »

ثم إلى محل الملابس الجاهزة . « بذلتان جاهزتان . موديل شبابى ثم تُقصَّر السراويل والأكمام » .

« . . ماذا من فضلك ؟ »

ثم إلى صانع النظارات . هنا تستبدل النظارة الباغة بأخرى ذات إطار من النيكل يوحى شكله بالأسى .

ثم يجىء دور الأوراق ، شهادة الميلاد وشهادة التعميد وشهادة التطعيم ، أما كتب المدرسة فيمكن تدبيرها برقيًا .

إنه لا يزال يتذكر الكثير من علوم الثانوية العامة ؛ ولسوف يستطيع اجتياز القبول للسنة النهائية .

ثم تحزم كل الأمتعة مع استبعاد كل ما يدل على أى نوع من الرفاهية ، وداعًا يا قمصان حرير شانتونج (*) وداعًا أيتها الجوارب الإنجليزية ، وداعًا ملح الخزامى والأشياء المستوردة ، وداعًا برلين وأمسيات الجاكت الاسموكنج وبذلة السهرة الرسمية ذات الثنيات المحشوة بالقطن ! وداعًا سلة الأوراق وصحاف القيشانى ، والأشكال الفنية الصناعية الأخرى !

وأيضًا وداعًا ماريون !

(*) حرير شانتونج يُنسب لمقاطعة شانتونج الصينية . (المترجم)

لقد أرجأ أصعب المهام لآخر الوقت . كانت ماريون هى خطيبته الملائمة ، فحين تكون أكبر بأربعة أعوام عن خطيبها المشهور المكلل بالجوائز وحين يكون عملها فى اتحاد الورش الوطنية للفن الشعبى ، فإنها تكون بذلك خطيبة مناسبة . تكون خطيبة يوثق فيها .

ذات مرة أفسدت عليه رحلة ، عندما أرسلته دار النشر إلى بلاد النيل ، وحينها أرادت بكل إصرار أن تسافر معه ، تُرى هل تريد هذه المرة أيضًا . . .؟

حين دار بِخَلَده هذا الأمر قفل راجعًا بالسيارة ، فالأفضل أن يتصل بها هاتفيا ؛ فهذا أقل خطراً .

« وى ، هانز أهذا أنت ؟ »

فَقَد اتِّزانه بمجرد أن سمع صوتها الجاد .

« نعم - لا ، أنا لست هو » ثم وضع السماعة ، فلم تسعفه شجاعته على أن يتم اتصالاً هاتفيا بها ، الأفضل أن يكتب لها .

بدأ الكتابة ، ثم رمَى بالوَرَقة ، وبدأ من جديد ، ثم رماها مرة أخرى ، وعندما أتى على ورق الخطابات كله قرر أن يتخلى عن أى نوع من الوداع ، وقال لنفسه إن إتبل العجوز سوف يضع أمر خطيبته فى نِصَابِه .

أخيراً جلس فى القطار . الآن لا يمكن لشىء أن يحدث ، وانطلق به قطار الركاب السريع إلى مدينة بابنبيرج .

* * *

بلليم - بلليم - بلليم - بلليم - بم - بم .

ها هو ذا هانز فايفر يقف فى فناء المدرسة الفسيح ، إنه يسمع للمرة الأولى الرنين الصفيحى لجرس المساكين الصغير ، الذى سيحدد إيقاع حياته حتى إشعار آخر ، شفته العليا حليقة ، وعلى وجهه الشاحب تقبع نظارة النيكل غريبة وباردة ، حُلته الشبابية ضيقة عند الصدر والكتفين وتقرص إبطيه ، ويبرز فى خلف ياقة سترته المتدلية إلى أسفل زرها الصغير ، ولما كان الكُمَّان قد تم تقصيرهما فقد برز منهما معصماه أكبر من الحجم الطبيعى لمعصمى تلميذ . إنه يبدو بالفعل صبيًا زاد جسمه على سعة زيّه ، إلا أن كاب التلاميذ الذى يلمع من شدة جِدَّته يبدو أكبر قليلا مما ينبغى ، ويقبع فى غير استواء جامدًا فوق شعره المقصوص على هيئة الفرشاة ، يشبه فى ذلك بيريه العمل الذى يحمله ناظر المحطة فوق رأسه .

يقف هانز فايفر وحيدًا تبدو عليه خيبة الأمل ؛ لقد تصور الأمر غير هذا تمامًا ، فمن المؤكد أنه هنا ليس كاتب برلين المحتفَى به ، لكنه على كل حال التلميذ الجديد الذى يمثل حدثًا فريدًا لمدرسة بابنبيرج الثانوية . أكان واهمًا ؟ لقد ظن أن الجميع لابد سليتفون حوله فى دائرة كثيفة يتفرسون فيه ، ويعجبون به ، ويسألونه ، ولقد تفكر مليًا فى كل ما أراد أن يقصه عليهم .

لكن - وأسفاه - لا أحد يسأله ، وللأسف أيضًا لم يكترث أحد به .

إنهم يتجاهلونه تمامًا كما لو لم يكن فى أمره ما يستلفت الانتباه على الإطلاق ، الحق أنه تصور الأمر على خلاف ذلك تمامًا .

فى أثناء ذلك كان الصغار من الفتيان قد كفّوا عن مشاحناتهم واكتظوا أرتالاً عند دخولهم الأبواب ، أما الكبار فكانوا يتبخترون خلفهم متمهلين ، المدرسون فقط هم الذين يمشون جيئة وذهابًا ؛ فهم لا يبدأون العمل إلا بعد دق الجرس للمرة الثانية .

تُرى أليس من الأفضل أن يعود الآن فى الوقت المناسب ويتخلى عن تبعات نبيذ ملقط الجمر ؟

لكن التيار جرفه ، وقبل أن يفيق ألفى نفسه فى قاعة الدرس .

إنها المرة الأولى التى يرى فيها مثل هذه القاعة من الداخل ، ها هى ذى النوافذ الثلاثة الكبيرة ، تبدو موضوعية ومغطاة من نصفها الأسفل بزجاج مصنفر لكى لا ينظر أحد للخارج - أو يطل أحد على الداخل ، وهنا مقاعد التلاميذ مصطفة صفين يفصل بينهما ممر فى المنتصف ، وعلى مسافة محترمة تقف منصة المدرس عالية وضيقه من الأمام وفوقها تمثال من الجص لفريتس العجوز (*) ، فى أحد ركنى الحجرة تقبع المدفأة بماسورة مائلة وحوض ضخم للفحم ، وأمامها سبورة الفصل الكبيرة التى مازال

(*) فريتس العجوز وصف لفريدريك الثانى ملك بروسيا من ١٧٤٠ - ١٧٨٦ . بلغ نظام الحكم المطلق فى عهده الذروة ، لكنه أسس جيشًا قويًا وضم لملكته العديد من الأراضى المجاورة . (المترجم)

عليها بعض من آثار حـصة الجبر الأخيـرة قبل العطلة ، وفى الركن الآخر يقف دولاب الفصل ذو الباب الواحد مرتفعا ، وتحت أولى النوافذ وضعت سلة الأوراق وفى كل الجوانب حوائط عارية طليت بزيت أخضر رمادى ، ومزينة بترمومتر وبعض رشات الحبر . كل شىء مستهلك نوعًا ما ، ومغبر نوعًا ما ، وخاوٍ أصلاً لدرجة لا يمكن وصفها .

لم يعد لهـانز فايفر أن يشـكو الآن من الإهمال ، فهـو يقف بجوار الحائط حائرًا ويشـعر بأربعة عشر زوجًا مـن العيون التى ترمقه وتتفـحَّصه وتَزِنُه ، بعضها يلوح منها العداء وأغـلبها ينبئ عن تعالٍ ساخر : هئ هئ ، التلميذ الجديد ! ما باله يبدو هكذا ؟

يشعر هانز فايفر أنه قد بالغ إلى حـدٍ ما فى الظهور بصورة التلميذ ، ربطة العنق المخيطة ، اليـاقه الجامدة التى تبدو أوسع مما ينبـغى ، والسترة التى انحسرت بفعل نمو جسم التلميذ ، شَعْرُه الواقف على هيئة الفرشاة ، إنه يبدو كـرسم طار من أحد المنشـورات ، الصخب يملأ قـاعة الدَّرس ، لكن هانز فايفر لا يفهم أى كلمة. يبـدو أنهم يتحدثون عنه ، يهيأ له كأنما يسمع بين وقت وآخر ضحكًا خفيفًا ، فيـشعر أن لونه قد استحال أحمر ، يخيل إليـه أنه على خشبة المسـرح ، أصبح له فجأة عـشرون ذراعًا ، ولا يعرف إلى أين ينظر ، بل إنه لا يعرف أيضا إن كان من الضرورى أن يبقى واقفًا أم أن يقعـد على أى مقعد خال ، ليته يسـتطيع العودة إلى الخارج ! إذن لكان بإمكانه أن يتصرف كالذى ضل سبيله .

فى تلك اللحظة نهـض التلامـيذ فـجأة انـقطعت الضوضـاء وأغلق أحدهم الباب ، ودخل البروفسور كراى وقال بلهجته :

« جلوس ! »

هانز فـايفر لا يدرى يقـينًا إن كان ينبـغى عليه الآن أن يتـقدم منهـيا وضعه هذا .

« ينبغى أن تجلس » .

هانز يضغط نفسه فى مـقعد خال ، ها هو ذا يجلس الآن ولا يدرى كيف ينبغى عليه أن يتصرف كتلمـيذ ، استرق النظر يمنة ويسرة ليرى أعلى المرء أن يضع ذراعيه وضـعًا معينًا - يبدو أنه لا ينبـغى - أيجوز للمرء أن يضع ساقًـا فوق ساق ؟ يبـدو له حاله ذاك كامـرئ تسلل إلى كنيسـة تتبع مذهبًا غيـر مذهبه ؛ فهو يريـــد أن يؤدى مع الحـضـور كل الطقوس حتى لا يلفت إليه الأنظار .

لاحظه البروفسور كراى فى تلك الحال . فقال :

« أنت التلميذ الجديد ؟ »

ولكن لماذا يتحدث من أنفه ؟ ولماذا يقول « التلموذ » (*) بهذه الصورة ؟ « إننى أرحب بك باسم مؤسستنا العلمية وباسم تلاميذ السنة النهائية ترحيبًا

(*) تبقى لهجة البروفسور كراى علامة مميزة فى هذه الرواية وكذلك لهجة المعلم بومل وغيرهما ، لكننا لا نستطيع إيجاد المقابل اللغوى العربى لهذه اللهجات الألمانية ، التى أحسن المؤلف استغلالها لمزيد من الفكاهة ، وهو أمر لا يخفى على حصافة القارئ العزيز . (المترجم)

من القلب ، وآمل أن تشعر حقًا بالسـرور معنا . اجلس هنا فى المقدمة ، فهنا أستطيع أن أراك جيدًا - أنت تُدعى . . . ؟ »

« فايفر ، يوهان » .

« بفاء واحدة أم بفائين ؟ »

« بثلاثة ، سيدى البروفسور » .

« ؟؟ »

« واحدة قبل المقطع - آى - واثنتان بعده . » (*)

يضحك التلاميذ ، لكن البروفسور كراى ينظر إليه مشفقًا ويقول بذات اللهجة : « أنت عبيط نوعًا ما ، أنت لم تسبق لك الدراسة فى مدرسة ؟ هذا واضح سيتوجب عليك أن تتعود على التربية الصارمة » .

وهنا أضاف محاضرة عن مبادئ التربيـة الكلاسيكية التى يتبـعها ، والتى تبلغ ذروتهـا فى جملته : « الحـال مع المدرسة كـالحال مع الدواء ، لابد أن يكون مرًا وإلا انعدمت فائدته » .

جلس هانز فـايفر مـرة أخرى بهدوء ، وجـعل يتفـحص من منظور الضفدعة الذى تُتيـحُه جلسته القريبة - مُعلِّمَه الذى يقف مـباشرة أمامه . فأمام أنفه مباشرةً يتقـوَّس كِرش لدن يلفه صدار من البيكيه الأبيض الناصع ومزين بسلسلة ذهبية ملفَوفة لفًا معقدًا ومدلاة من ساعة جيبه .

(*) تكتب كلمة فايفر Pfeiffer بثلاثة أحرف F وقد تخطينا فى الترجمة عن حرف P الأول لأنه ينطق مدغومًا فى F التالية وهو ما لم يعهده القارئ العربى فى لغته ، فلم ننقل " بفايفر " توقيا للخطأ فى النطق . (المترجم)

واصل هانز النظر لأعلى ليجد ربطة العنق الرمادية تلوح منها لمسة الفن ، وعليها لؤلؤة هى على ما يبدو حقيقية ، يعلوها مباشرة وجه وردى اعتُنى به جيداً ، يجتهد عبثًا فى إخفاء حسن طويته خلف كرشه القائم ونظارته القماطة المقوّسة لأعلى . من الجيب العلوى للجاكتة يتدلى منديل حريرى عظيم فشرانى اللون ، يستخدمه البروفسور أكثر من اللازم لمسح وجهه وأنفه .

إلا أن أغرب شىء على الإطلاق كان لهجة المدرس ، التى لم يحتملها هانز ، أيُقلد الرجل فى الواقع ذلك البروفسور هايتسرلنج بطل قصة إكشتاين « زيارة فى الحبس المدرسى »(*) أم أنه يريد أن يمنح صوته نغمةً أكثر فخامة ؟

فى أثناء ذلك كان البروفسور كراى قد عاد إلى إتمام فكرته وتحدث مراراً عن «التربية المدرسية الصارمة» . . . وهنا صدر صوت ارتطام «بنج» : كرة ورقية صغيرة ، مبتلة ومصوّبة تصويبًا دقيقًا قرعت جبهة المُربِّى .

ما كان لهذا العمل الآثم أن يحدث ، لو لم يُرد التلاميذ إظهار براعتهم أمام زميلهم الجديد ، توجَّه البروفسور بلهجته المضحكة سائلاً :

« من فعل هذا ؟ »

(*) «زيارة فى الحبس المدرسى» قصة هزلية كتبها إكشتاين عام ١٨٧٥ . (المترجم)

كان هذا بالمناسبة الضُّحى الأول بعد عطلة عيد الفصح .

« من كان هذا ؟ »

نادراً ما يصمت فصل كما يصمت أمام مثل هذه الأسئلة البليغة.

« من أى ناحية جاءت هذه ؟ »

فصاحت الأصوات فى المقاعد الأمامية : « من الخلف ! »

وهدرت أصوات الجالسين فى الخلف : «بل من الأمام ! »

وأعلن البعض ارتيابه فى النافذة المفتوحة ، وانقسمت الآراء انقسامًا عظيمًا .

عندئذ نهض روزن الطويل ، إنه يجلس بجوار الجالس خلف فايفر ، قال روزن : «سيدى البروفسور : اسأل التلميذ لوك» .

كالسهم ينهض لوك الصغير إلى أعلى ، شاحبًا كجثة ، ولا يستطيع من فرط الاستياء أن يقول شيئًا . قال البروفسور :

«روزن ، أرأيت أن لوك هو الذى فعل ذلك ؟ »

«ما قلت إلا أن تتفضل بسؤاله ، فهو بالغ الذكاء ويعرف دائمًا كل شىء » .

يضج الفصل بالضحك ، لكن البروفسور كراى حزين: «روزن ، إنك أحمق ، وينقصك النضج الأخلاقى » .

عندئذ يتوصل كراى إلى فكرة فَرْد الكرة الورقية وفحصها بعناية ، وتغمُر وجهه ابتسامة ماكرة: «قطعة الورق منزوعة من كراس مدرسى.

« أرونى كراساتكم ! »

ويبدأ البحث المنشـود ، إنهم أربعة عشر تلميذًا ، وبهـانز خمسة عشر ، كل واحد معه خمس كراسات ، كل كراسة بها أربع وعشرون صفـحة ، عندما يصل كـراى إلى التلميـذ الحادى عشـر يرن الصوت المنشود : بلم بلم - بلم بلم - بلم بلم .

وينتهى هذا الإجراء الرمزى ، ويقول الأستاذ بلهجته الغريبة :

«استعدادًا للحصة القادمة ، عليكم مراجعة ما ناقشناه اليوم ! »

وبينما هو يـخرج ، تنطلق خلفه كـرة ورقية أخـــرى تحيــة الوداع ، ويمر صريرها فوق رأسه بسنتيمترين . لابد أنه أحس بتيار هوائها .

هانز فايفر مُعجب بما رأى ويتساءل ألا زال فى الدنيا شىء كهذا؟

ويزداد فوق ذلك إقـدامًا ، ويبــدأ حديثًـا مــع إرنست هوزيمان جاره فى المقعد .

«مِنْ فَضلك ، ما الذى كان لدينا فى الواقع منذ لحظات ؟ »

« تاريخ » .

« آها . وكان هذا إذن مُعلِّمنا ؟ »

« نعم . إنه شناوتس » .(*)

« شكرًا جزيلاً ! » .

إذن فقد كان هذا هو شناوتس .

فى الحصة التالية تعرّف هانز على الصورة المعاكسة تمامًا لمعلم الحصة الأولى . رجل قصير ، نشيط الحركة ، يدخل مسرعًا ، ويبقى واقفًا أمام التلميذ . يشد جسمه شدًا ، ويضرب الأرض بقدمه ، فيسأل هانز بحياء مصطنع : «ماذا هنالك من فضلك ؟ »

«بريت ، هو اسمى » .

يتماسك فايفر ويقدم نفسه أيضًا .

كاد أن يقول : «الدكتور فايفر » .

يقف بريت أمام الفصل ويُصدر أمرًا :

« قيام ! خروج من المقاعد ! انتباه ! الذراعين - ثنى ! الذراعين - مدّ ، الركبتين - ثنى ! الركبتين - مد ! » .

(*) يطلق التلاميذ عادة اسمًا هزليًا غير الاسم الحقيقى على كل مدرس ، و«شناوتس» هو اللقب الذى أطلقه التلاميذ على البروفسور كراى ، وهى كلمة تستخدم أكثر فى سويسرا بمعنى شارب ، وهى مخففة من اللفظة الفُصحى Schnauze وتدل على بوز الحيوان ، أى منطقة الحنك والأنف فيه . (المترجم)

كان قد فتح النافذة وأخذ يؤدى التـمرين أمام الفصل وظهره إليه ، إنه يفعل ذلك مع تلاميذه كل يوم ، أو على الأقل هذا ما يتصوره هو ، إذ إن الفـصل لا يفكر إطلاقًا فى أداء التـمرين مـعه ، بل إن الـفتـية يسـتندون فى تراخ على مـقاعـدهم ويتـأمّلون ضاحكين ، كـيف أن معلمهم يؤدى التمارين حتى تقرقع مفاصله .

« الذراعين – مدْ ! الذراعين – ثنى ! الوسط – لف ! » .

حتى هانز فـايفر ، الذى شـارك أول الأمر فى أداء التـمارين ، سرعان ما تخلى عن ذلك وتساءل فى عـجب: لماذا يظل التلاميذ جامدين؟ يبـدو أنهم قد اعتـادوا هذه العروض المنـفردة من معلـمهم ، بينمـا لا يرغبونها هم أنفسُهم .

لم يكن إلا لوك الصغـير الذى يُمـارس التمـارين مع أستاذه ، كم هو مـؤثر فى النَّفْس حين يراه المرء وهو يـطوِّح ذراعيـه النحـيلين ويثنيهما للأمام وللخلف ، لكنه لا يحرك بمنظره هذا أى نوع من الشفقة فى قلوب أقـرانه على الإطلاق ، ففى كل مـرّة يثنى للأمام يقـرصه زميله تيـو شرنك فى أكـثر مواضع الجـسم الإنسانى مـواءمة لذلك ، ويبدو لوك الصغير كالذى يعتبر الأمر شيئًا بديهيًا .

ينتهى د. بريت من تمارينه ، ويتجه ظافراً نحو الفصل ، إنه يشع ضياءً ، ويقول : «هكذا تبدون الآن مختلفين تمامًا ، كأنكم ولدتم من جديد Mens Sana in Corpore Sano (*) لماذا تضحك ؟ »

(*) العقل السليم فى الجسم السليم . باللاتينية فى الأصل . (المترجم)

كالمتشنج يبحث هانز فايفر عن حجة .

« آه - إنى تذكرت نكتة قالها السيد البروفسور شناوتس ! »

يجمح السرور بالفصل ، ولا تبدو على وجه د. بريت أية بادرة .

يتطلع هانز حوله بتعجب متكلَّف ، ويقول :

« أنا هنا منذ اليوم فقط ، ولا أستطيع أن أعرف ما اسم البروفسور كراى فى الحقيقة » .

يتجاهل بريت كل هذا « ماذا كانت النكتة؟ احكها لنا ! بسرعة تامة من فضلك ! ولسوف أبرهن على أنه لم يكن هنالك نكتة ، ولكن هناك حجة » .

مُفاجأً يُثبِّت هانز نفسه فى مقعده ، ينبغى أن يحكى نكتة بمنتهى السرعة ، وبدهىّ ألا تُسْعفه الآن نُكتَة ، ومن ثمَّ فعليه أن يخترع واحدة ، فمن أجل هذا يكون المرء كاتبًا .

« لكننى لا أدرى ما إن كانت مناسبة أو جيدة » .

«عندما يكون الزميل كراى هو الذى حكاها فهى جيدة ومناسبة . تفضل ! »

« نَعَم ، إذن - كان فيما كان رجل ، وكان لهذا الرجل أبناء ثلاثة » .

« أكمل ! »

« كان الابن الأول غبيًا إلى حد فظيع ، والثانى كان وسطًا ، أما الثالث فكان موهوبًا بدرجة رائعة » .

« أكمل ! »

« نعم . والآن أصبح على ثلاثتهم أن يصيروا شيئًا ما . فالأول الغبى ، صار راعى غنم - والثانى ذو المستوى المتوسط من الذكاء ، صار بيطارًا » .

« والثالث ؟ »

« الثالث ؟ الثالث أصبح معلمًا فى مدرسة ثانوية » .

« هكذا ؟ وأين النكتة فى هذا ؟ »

« أنا أيضًا لم ألاحظ إلا متأخرًا ، أن هذه نُكْتة » .

تَمُر لحظة كصمت الموتى ، ثم ينفجر الفصل دويًا .

ويضحك د. بريت معهم عاليًا ، ثم يغصب نفسه على الجد ، ويرمق التّلميذ الجديد فى عينيه بِحدَّة ويقول :

« لم تنته القصة عند هذا الحَدِّ ، فبعد عدة أعوام توجَّه المدرس إلى أخيه راعى الغنم ، وقال له : أخى ، هلاّ بدَّلنا ، إنى أفضل أن أرعى الغنم » .

لم يضحك الفصل هذه المرة ، ورأى هانز من الحكمة أن يندس فى مقعده متواضعًا .

« ابق واقفًا يا فايفر : بيِّن لزملائك ، أنك لا تستطيع اختراع النكات وحسب ، وإنما تفهم أيضًا شيئًا من حساب مثلثات الدائرة» .

لابد أن يقوم هانز الآن بإجراء بعض الحسابات على السبورة السوداء الكبيرة أمام الفصل ، يستجمع قواه بِشدة ، ويشعر كيف يتوقد زملاؤه الأربعة عشر انتباهًا ، تحدوهم البهجة مُقَدَّمًا لمشهد فشله ، ربما لا يتعدى الأمر معهود الشماته ، وربما يحسدونه بعض الشيء أيضًا، يهتز ثباته ، فهو أمر حاسم يدرك أبعاده ، ما عساهم سيقولون عنه ؟ التلميذ الجديد لا يعرف شيئًا ؟ حقًا ، الجديد لا يعرف شيئًا ؟ أوه بل الجديد يعرف في الحق شيئًا .

المعلم بريت يشاركُه شعوره ، ويساعده بطريقة غير ملحوظة ، يلحظ كل تأرجح بسيط ينتاب هانز ، ويدرك كل التباس يعتريه ، ويقفز هنا وهناك بأسئلة بسيطة ولكنها مدبَّرَةٌ بعناية ، وهكذا يبدو كمن يقود من الخلف تباعًا حل المسألة في الطريق الصحيح .يُتم هانز حل المسألة ، مفعمًا بالزهو يلقى نظرةً شاملةً على الفصل ، ثلاثة عشر تلميذًا يتصنعون اللامبالاة وينظرون في الهواء أو في الكتب ، بينما يعض لوك الصغير شفته السُّفلى انفعالاً وسعادة بهانز ، ويبتسم د. بريت هو الآخر للتلميذ الجديد .

* * *

حان وقت الفُسحة الكبيرة ، ويتولى دق الجرس التِّلميذ أكرمان ، تلميذ فى السنة النهـائية ، ويتـولى فـوق ذلك مهمة أخـرى كتلميذ من أهل الثقة : إنه يقوم بتوزيع اللبن . كان مـعظم التلاميذ قد دفعوا اشتـراكهم للحصـول على نصف اللتر من اللبن يوميًّـا ، وكان المدير كناور يحرص على أن يوجد رصيدٌ كافٍ من الشَّفَّاطات .

والشفاطات يوزعها أيضًا أكرمان .

كان الطقس جميلاً ، فاختلط التلاميذ فى فناء المدرسة اختلاطًا ، وفضُّوا شطائر الخبز المدهون بالزبد من لفافاتهم ، ووقف هانز وحيدًا، ليس معـه شطائر بالزبد ، فلم يدُرْ بخلده أنَّ من مسـتلزمات التلمـيذ الحقيقى شطائر الزبد المدرسية ، ومن عجبٍ أنه يشعر الآن بالجوع .

كانت الـسنة النهائيـة قد قررت فى أثـناء ذلك أن تتجـسس أمر الزميل الجـديد ، وكُلِّف روزن الطويل بهذه المهمّـة ، ويرجـع الفضل فى احتلال روزن وضعًا متميزًا فى الفصل لحقيقة أن له أختًا جميلة جدًا وذات دلال فائق ، كـانت هذه ميزتَه الـوحيدة ، لكنهـا كانت كافـية وكان التلاميـذ يتهافتون على صداقته ، أمـا الرجل الثانى فى الترتيب فكان رودى كنيبل ، إذ كـان يُعَدُّ الأقوى فى الـفصل . مـع أن أحـدًا لم يتبين بعد حقيقة هذا .

وإذن فقد مرَّ الاثنان ، وهما صـورة لأب وابنه - فقد كان طول رودى كنيبل لا يتعدى ١٤٤سم - على هانز فايفر فى بساطة متكلَّفة،

وانتظرا أن يبتدرهما بالحديث ، بينما هانز لا يفكر فى هذا ، وبالذات فى ذلك الوقت ، لذا أخذ روزن الطويل زمام البدء :

« أنت لم تكن على الإطلاق فى مدرسة ما ؟ »

« كلا » .

« ألا تريد هنا إلا الحصول على الثانوية فى وقت قصير ؟ »

« أجل » .

« لكنك ستعجب لما يجرى هنا » .

« حقًا . . . ؟ »

يتسرب الحديث ، إن هانز لا يحب هذا اللون من التجسس ، فيتخذ روزن الطويل خطوةً جديدةً .

« أيعجبك الحال لدينا ؟ »

أيُعجبه الحال ؟ شمل هانز فناء المدرسة بنظرة عَجْلى ، مُسَطَّحٌ فُرش بقليل من الزَّلط ، وبه بعض أشجار الكستناء المتناثرة ، يحيط به جهة الشارع سورٌ يرتفع ضعف قامة المرء ، وبه بوابة حديدية ، وفى أحد الأركان يرتفع حول الفناء بناءٌ أحمر من الآجُر .

الفتية الصغار منشغلون بألعابهم أو مشاحناتهم .

والفتيان الأكبر يتبخترون جماعات خماسَ وسُداسَ فى خطًى طويلة ذات اليمين وذات الشمال ، واضعين أياديهم خلف ظهورهم كالمعلمين ،

وبرغم التحذيرات المشـددة تناثرت هنا وهناك أوراق مما كانت الشطائر قد لُفّت فيه ، ويشـير المعلم مـوللر رقم ٢ ، الذى يتـولى الإشراف المدرسى إلى أحد تلامـيذ الصف السـادس ، فينتاب التـلميذَ شـعورٌ فورى بالذّنب ، لكن سروره سرعان مـا يتضاعف للشرف الذى أوكله إليه مُعَلِّمُـه ، فيجمع الورق الملْقى فى الفناء وهو يكاد ينفجـر حماسًا فى أداء المهمّة .

أيعجبه الحـال هنا ؟ يهز هانز كتفيه لامـبالاة ، ولم يحوِّل الأب وابنُه نظرهما عن التلميذ الجديد .

« هكذا ، إذن فالحال لا يروقك هنا ؟ »

« لم أعرف بعد » .

« آه ، لكننا نعبث كثيراً » .

« أجل ، مع لوك الصغير خاصةً ؟ »

« أفى نفسك شىء من هذا ؟ »

« مسألة أذواق » .

« إذن فأنت الآخر لون من الطالب المثالى ؟ »

« قد يكون » .

« وربما تبلغ عنا الإدارة أيضًا ؟ »

« ربما » .

روزن الطويل يلكز القصير السمين لكزة فى جنبه قائلاً :

« رودى ، أسمعت ؟ »

عندئذ يتدخل رودى ، ويقف بين يدى هانز فايفر تمامًا فيكاد يلامسه :

« يا هذا : إذا فتنت علينا ، فسينالك منا ما يَسُرُّك ! »(*)

قال ذلك وهو يُلَوِّحُ بقبضته المكتنزة المستديرة تحت أنف هانز ، هانز فايفر يريد أن يُنحى هذه القبضة بحركة لامبالية ، فيسُىء رودى كنيبل فهم هذه الحركة ، يوجِّه للزميل الجديد لكمة محكمة بين ضلوعه ، و . . . يُطرح كنيبل أرضًا بفعل قوة خارقة ، كانت قبضة من قبضات المصارعة اليابانية هى ما لجأ إليه هانز فايفر ، ولمثل هذه القبضة خاصية باهرة ، هى أن أثرها يُدرك المرءَ قبل أن يُدركَ هو عِلَّتها .

يقف سائرُ تلاميذ السنة النهائية فى حلقة ويشعرون كأنما أصابهم ما ألمّ بزميلهم ، وقلّما يرحب المرء بأن ينبهر بمثل هذه القبضات اليدوية البارعة ، وعلى الجانب الآخر يفرض الانبهار بها نفسه .

روزن الطويل يتصرف كما لو لم يكن للقصة برمَّتها أدنى علاقة به ، ويبتعد وئيد الخطى ، ويفيق رودى من دهشته اللامحدودة وينهض ببطء .

(*) يقال هذا ويعنى به : « سينالك ما لا يسرك » . (المترجم)

يظن هانز أن الصراع سيبدأ ، ويضع قلمه الحبر فى مأمن ، لكن شيئًا من ذلك لا يحدث ، إذ يبتسم رودى لزميله الجديد بينما كان يكابد بعض العناء ، ويخاطبه الآن بصيغة المفرد قائلاً :

« أنت ، لقد فعلتها ببراعة . عليك أن توضح لى لمرةٍ سرّ هذه القبضة ! »

يشرح هانز أمر القبضة وغيرها ويؤديها أمام رودى القصير ، ويعجب تلاميذ السنة النهائية بهذا كثيراً ، بينما تضع هذه القبضة حجر الأساس لصداقة رودى كنيبل وهانز فايفر .

استُدعى هانز بعد الفسحة للمثول أمام مدير المدرسة ، حين يُستدعى تلميذ للمثول أمام المدير ، فإن ذلك يُعد حدثًا فريدًا ، لا يختلف عن حال مواطن مسالم تستدعيه الشرطة أو مصلحة الضرائب ، فنادراً ما يكون للإنسان سريرةٌ نقية ، وأما تلميذ الثانوى فليست له سريرة نقية على الإطلاق ، حتى وإن لم يدخل المدرسة إلا منذ ساعتين كهانز فايفر .

كان الناظر كناور ، الذى يُطلق عليه بصفة عامة لقب «زيوس»(*) رجلاً ودودًا لا يمكن تحديد عمره ، بلا لحية ، خفيض الصوت

(*) زيوس : أكبر آلهة اليونان (جوبيتر باللغة الرومانية) . قالت الأساطير أنه تزوّج من هيرا ، وانتزع السيادة على الأرض والسماء من والده ، كان مقره جبل الأوليمب ، وكان يرسل الرياح والزوابع ، وكان سلاحه البرق ، وكان راعيا للقانون والبر بالأيمان وحقوق الضيافة ، ويظهر فى الأعمال الفنية رجلاً ذا لحية يشع بالبرق . (المترجم)

فى كل المواقف ، ذا وجاهة لا جدال فيها ، وكان من الصعب اكتشاف شىء يميز وجهه المستدير الذى لا تقطع استدارته إلا نظارته . وذات مرة رسم أحد الأشقياء من السنة الرابعة دائرة كبيرة على السبورة بداخلها دائرتان صغيرتان متجاورتان ، وعُرف ما يرمى إليه هذا الكاريكاتير وعوقب التلميذ بما يستحق .

لقد درس الناظر كناور لغات قديمة وحديثة ، وكان متخصصًا معترَفًا به فى مجال أبحاث شكسبير ، وكان قائد مدرسة بابنبيرج الثانوية منذ وقت طويل ، ولقد كان صورة مناقضة تمامًا لطاغية مدرسى ، وكانت عظمته تكمن فى تجنبه لأى نزاعات لا داعى لها - ولم يكن أبدًا ثمة داعٍ للنزاعات حسب رأيه - وتكمن أيضًا فى قيادته لمسيرة المؤسسة الصغيرة بالرفق والحلم ، أما خارج نطاق العمل فكان يمارس حياة عائلية نموذجية ، وكانت قدرته على تربية الدجاج لا يستهان بها ، غير أن حالةً مزاجية صغيرة كانت تلازمه فى العمل دائمًا تتمثل فى حقيبة أوراقه الصغيرة التى كان يتأبطها باستمرار ، ولم يستطع التلاميذ الأكبر سنًا أن يتذكروا أنهم رأوه مرة بدون هذه الحقيبة الزرقاء الصغيرة ، يبدو أنه كان يأخذها معه حتى إلى فراشه ، لكن التثبت من هذا الأمر لم يكن ممكنًا بكل أسف . كانت هذه الحقيبة تبدو رمز سلطته وجوهر عمله ، ولم يعرف أحد ما كانت تحتويه ، ربما قائمة التطعيم أو إحصائية بوظائف الآباء والأمهات ، أو ربما

سجلاً بأسماء من اجتازوا اختبار السباحة، أو المُعْفَوْنَ من حصص الغناء . من المؤكـد أن ما بداخلهـا شيء بالغ الأهمـية ، وعندمـا تزعم ألسنة السوء أن الحقيبة فارغة ، فمؤكد أن هذه مبالغة .

الآن يقف هانز فايفر بين يدى هذا العظيم .

« لابد أنك تعرف اللائحة المدرسية يا فايفر ؟ »

« لقد سُلِّمَت إلىّ » .

« إذن فقد كان ينبـغى أن تعرف أن تلاميذى يمكثون بعـد التاسعة مساءً فى المنزل » .

« التاسعة مساءً ؟ »

« لقد شوهدت بالأمس عند العاشرة مساءً فى فندق أكسماخر ».

« طبعًا ، فأنا أسكن هناك ، سيدى الناظر » .

لم يسـتطع الناظر أن يرد لأول وهلة على هذه الجـملة ، فأخـذ يطقطق بفمه ، وقال متهكمًا « هكذا يكون حالك على ما يرام » .

« سيدى الناظر . لقد فكّرت أن . . . » .

بمجرد أن يتطاول المرء أمـام رئيسه فيفكر فى شىء مـا فإنه يتلقى تلك الإجابة التى فرضها قانون طبيعى لا يتبدل : «ليس لك أن تفكر» وقد تلقى هانز فايفر هو الآخر هذه الإجابة .

« عين الحق سيدى الناظر ، وأنـا أريد الإقلاع عن هذه العادة . لكننى فكّرت فقط ، أنه لكَوْن أكسماخر فندقًا محترمًا جدًا » .

« إنه يفكر ثانية » .

لم تكن تلك بِحَالٍ من الأحوال «إنّه» الفـريدريكية ، وإنما كانت ضمير خطاب بحث المدير به عن مخرج ليـجد شهادة تدعم موقفه فى أمر ليس له وجود .

« ثم تفكرت أيضًا ، أنه بما أن أفاضل الناس يرتاودنه وكذا السادة الأساتذة ، ولكون نادى التدخين السحابة الزرقاء . . . » .

« إنه لايزال يفكر » .

« عفواً ، رأيت فقط أنه » .

« والآن لايزال له أيضًا رأى » .

« أردت أن أقول ، أننى اعتقدت » .

وعندئذ قال هانز لنفسه : ليس لأحد أن يحظر على المرء الاعتقاد .

وصاح المدير قائلاً :

« الآن اسكت تمامًـا ما قـصدت أن أقـول شـيئًـا يسىء إلى نُزُل أكسماخر ، لقد أهداه فريدريك الأكبر عام ١٧٥٠ للمدينة التى كانت بالكاد قـد تأسست عنـدئذ ، وذلك ليُستـغل كمطعم رسـمىّ لها ، وبعد ٤٦ عامًا تحـول إلى مجلس المدينة ، وفى عام ١٨٢٠ تحول إلى مطعم مرة أخرى ، وهذا لـلعلم فقط . وعليك بهذه المناسبـة يا فايفر

أن تحسن فهم هذا ، ثم إنه بالدرجة الأولى عالى السعر جداً بالنسبة لك »
يطـــرق فايفر ببـصــــره ، لكنه يشعــر بالنظرة المتفحصــة فوق بذلته
«ثم إنه ليس ملائماً لك بالدرجــة الأولى ، فـتلاميـذ مدرســة عُليــا
لا يمكنهم طبعاً أن يسكنوا فى فندق كهذا ، فأى انطباع يخرج به المرء
من هذا ؟ وماذا يمكن أن يظن الناس ؟ »

« أنا لم أفكّر فى هذا على كل حال » .

« لكنك ينبغى أن تفكّر. فما كنت إنساناً مثقفاً إلا من أجل هذا ».

« جمـيل ، إذن أريد أن أتعود على التفـكيـر مـــرةً أخـــرى .
ثم أذهب بعد ظهر اليوم للبحث عن كوخ للسُّكْنى » .

« تبحـث عن كـوخ ؟ أى تعبير هذا ؟ الكوخ شىء غـير لائق ،
بل أكاد أقول غـير أخلاقى . تلميـذ مدرسة عليا لا يسـكن كوخاً ،
وإنما يسكن - طالما لا يقيم فى بيته - غرفـةً صغيرة منسقةً لدى أناسٍ
مُهَذبين صالحين ، وإذن فأنت تعرف الآن ما ينبغى » .

* * *

وبعد الظهر ذهب هانز فايفر ليبحث عن كوخ .

كان نزل أكسماخر - الذى صار لزاما على هانز أن يغادره الآن -
أجمل وأكبر مبنى يطل على السوق ، وكان بإمكان المرء أن يتعرف عليه
من مسافـة بعيدة عن طريق نقـوشه البونبون الوردية ، وأشـجار الغار
العالية المسـتديرة عند بوابته . إلى جواره كـان يقع مكتب البريد وإلى

جانبه الصيدلية ، وأمـام مكتب البريد تقف الحافلة التى تمر مرتين فى اليـوم ، لم يكن أحـد يعرف من أين ، أو إلى أيـن . كانت رائحـة الصبار تفـوح من باب الصيدلية ، وعلى نافـذة العرض إعلان يوصى بعصـير الثوم علاجًـا لتصلب الشرايين ، كان الصـيدلانى يمارس إلى جانب ذلك إنتاج الليمـونادة وكان اسمه مويزيتسال ، وبالمناسـبة فقد كان اسم النجار أيضًا هو مويزيتسال ، والذى كان البابنبرجيون يُعدُّون أسِرَّتهم ، ودواليب مطابـخهم ، وأدراج زينتهم ، ونعـوشهم لديه ، و«مـويزيتـسال» كـان أيضًـا اسـم الحـانوت الكبيـر المؤدى إلى حـارة الطاحونـة ، والذى كان يمكن شراء المنـاجل والأقفال ومـستـخلصات اللبن منه ، ولقد تأكـد هانز فايفر من خـلال سجل العناوين - الذى كان فى سُمْك جدول مواعيد القطارات المحلى - أن ليس أقل من ستة عشـر من أُسَر المدينة يُدْعَوْن مويـزيتسال ، وأغرب مـا فى الأمر أنهم كانوا جـميعًا شـيئًا ما فى المديـنة ، هؤلاء المويزيتسال ، كانوا عـشرة آلاف يُعدّون من وجهـة ما علية أهل المدينة الصغـيرة ، وربما الأفضل أن نقول أنهم كانوا ضربًا من عائلة بورجوازية . واحدٌ منهم فقط كان نادلاً ، لكن هجاء اسمه بلا مَدّ (*) .

واضح أنه ضلع من هذا الجنس تدهور به الحال .

(*) يكتب الاسـم مـويزيتـسـال هـكذا Mäusezahl ، لكن هجـاء الاسم هنا هو Mäusezal بدون حرف h الذى يُعد فى الألمانية مداً لحروف العلة . وفى الاسم كذلك لمحة فكاهية لأن جزأه الأول Mäuse يعنى الفئران والثانى Zahl يعنى العدد . (المترجم)

كان الوقت بعد الظهر مباشرةً ، وكان الشرطى ترومل - الذى يكبح جماح ما يسمى بحالة المرور فى وسط السوق تمامًا - يأخذ قسطه من راحة القيلولة ، وطالما يكون واقفًا تحت ساعة الميدان تمر السيارات ، وعربات الكارو ، والدراجات بحذق وعناية من زوايا السوق ، غير أنه ما إن يجلس إلى مائدته حتى تمخر تلك المركبات عباب الميدان بلا نظام .

استنشق هانز - بانشراح - هواء المدينة الصغيرة ، لا تفوح هنا رائحة الأسفلت والبنزين ، غير أن هنالك الكثير جدًا من الجياد ، وهناك أكثر منها من العصافير ، التى عُهد إليها بتنقية حجارة الشارع الكروية ، وفضلاً عن ذلك كان الكثيرون يقودون الدراجات بصورة تستلفت الانتباه . ثمة نساء شابات يتنزهن فى الشمس دافعات أمامهن عربات أطفالهن ، وهناك أخريات يقفن خلف الستائر ، وفى كثير من النوافذ وُضعت عين سرّية . كانت المنازل تتكون غالبًا من طابق أو طابقين ، ولها مداخل واسعة ، وقف أمامها رجال ارتدوا قمصانهم دون ستراتهم . كان لدى الجميع متسع من الوقت بصورة بشعة ، لم يكن أحدٌ متعجلاً ، حتى الذباب بدا كالذى يطير هنا بطريقة أبطأ ، وجعل كل شىء يؤرجح بندوله فى تؤدة وتمهُّل .

الاستثناء الوحيد فى ذلكم كان السيد بورتس ، عندما يقوم بخدمة زبائنه فى صالون الحلاقة بهمة عالية ، وكان هانز يرحب بالحلاقة عنده ، إذ كان يَرُوقه أن يُعامَل هناك مُعَامَلة الكبار على حدّ

القول . كان المحَلُّ مُعْتِمًا ، ولذلك أُشعِلَ ضوء الغاز ، كانت توصيلة الماء عبارة عن خزّان فوق السطح ، على الصبيّ أن يضخ الماء فيه عدة مرات في اليوم ، كانت الحلاقة تتكلف «بالكولونيا» عشرين فينجًا(*) .

كانت الصحف المستعارة من نادى بيتروشكا لإعارة المجلات قد مضى على وقت إصدارها "ربع عام" . قال بورتس :

« صباح الخير يا سيد فايفر . كيف حالك وحال الدنيا معك ؟

هل تأقلمت مع الحياة هنا ؟ . . . إنها امرأة فريدة . أليس كذلك ؟» كان يقصد بذلك صورة في مجلة (عالم الأناقة) التي يُقلِّب هانز صفحاتها . أضاف بورتس :

«امرأة فريدة ، أليس كذلك ؟ حسنٌ ، إذا كان المرء متزوجًا بدا كل ذلك قُرًى أفلاطونية . نعم ، نعم ، فقد كانت زوجتي يومًا ما شبيهة في شبابها بتلك تمامًا ، الجمال يُوَلِّي وتبقى الفضيلة ، وهذا يعني أن الفضيلة لم يعد لها اليوم وُجود ، ففي زمني كان الأمر مختلفًا أيها السيد الشاب ، وعندما كنت في مَرْحلة الخطوبة كان لابد أن يخرج معنا دائمًا الأخُ الأصغر ، فزوجتي من بيت فاضل . كان أخوها يُدعى ألفونس ، وكان يكسب من وراء ذلك كثيرًا - هل أنت راض عن الموسى ؟ - كان يحصل من والديه كل مرة على جروشن(**)

(*) الفينج Pfennig ، جزء من مئة جزء من المارك الألماني . (المترجم)
(**) جروشن قطعة معدنية من فئة عشر فينجات . (المترجم)

لكى يأتى معنا حين أخرج مع أخته ، ويحصل منى على جروشن آخر لكى لا يأتى - أتود ألا أصل بالموسى إلى خط الرقبة ؟ كما تأمر - بعد ذلك طلب ألفونس جروشنين ، وعندها لم أضنّ عليه ، ثم خمسة جروشنات ، ماذا كان أمامى غير الاستجابة ؟ غير أنه حين تبجح وطلب ماركًا . . أتعرف ما فعلناه عندئذ ؟ لقد تَزَوَّجْنا . وألفونس الآن رجل موسر ، يعيش فى منطقة دانتسيج فى الشمال ، هل تحب بعض الإسبرتو . . أتحب بعض الكولونيا ؟ تفضل ! »

فى عصر ذلك اليوم نقل هانز فايفر مقرّ سُكناه ، فانتقل تحديدًا إلى بيت السيدة فيندشايد التى نصحه بورتس نصحًا حارًا بالسُّكنى لديها .

كانت السيدة فيندشايد تسكن فى حارة شروتجاسه (*) وكان بيتها عتيقًا ، به الكثير من أشجار اللبلاب وأمامه حديقة ضيقة . فى الدور الأرضى يسكن مستشار الصحة شتاينهاور . وتنعكس على لوحة النحاس المستديرة المجوّفة كنصف دائرة صورة زر جرس الباب الذى يجب على من يدقُّه أن يسحب الزر للخارج فى اتجاه أفقى ، فإذا ما سحبه المرء خرج مَشَدّه بطول نصف متر على الأقل وانطلقت جلجلة تكاد لا تنتهى مطلقًا ، قال هانز لنفسه معلقًا : يالطيف !

لكن الأمر لم يكن على درجة كبيرة من السوء فمستشار الصحة قد أدّب مرضاه بصورة صارمة ، فهم لا يمرضون ليلاً ، وإذا احتلمت الضرورة

(*) شروتجاسه Schrottgasse ، كلمة تعنى حارة الخُردة . (المترجم)

ذهبوا إلى الطبـيب الشاب «فوجل» . عبر هانز رُدهة واسـعة مضحكة بها صحارات قديمة وأدراج مهملة ، وصندوق كـبير به زجاجات نبيذ فارغة ، هنا فى القسم الأسفل من البيت تُشتَمُّ رائحة طبيب، أما فوق عند الأرملة فيندشـايد فتفـوح رائحة الصابون وقـهوة المُلْت . قرقعت درجات السلم الواسعة متمردة تحت وطأة قدمى الغريب .

أطلعت السيدة فيندشـايد هانز على الحجرة وتكلمت بلا انقطاع، لكن حديثـها كان رقيـقًا ومقـبولاً ، وكان فى إمكان المرء أن يسمـعه ساعـات بلا إنصات . عاين هانز الممرات البـيضاء اللامعـة وقد رُشَّ فـوقهـا بعض الرمل ، والسـرير الكبيـر المُعـدّ على هيئـة صندوق ، والكومودينو المسوّس المُزين بفورمات خـشبية ، ورف الكتب المشدود بحـبل من الصوُّف . غُطيِّت النوافـذ الثلاثة المتـراصة لصـق بعضـها البعض بستائر من الشاش ، حين فتح إحداها فَجَأته الخضرة اليانعة ، وإذا به يرى حديقة رائعة لم تتعهدها يد التشذيب .

كان أكثر ما أعجبه حقًا هو السيدة فيندشايد ، كانت امرأة لحيمة مفـعمة بالحيـاة ، فى نهاية الأربعين ، ذات وجـه وردى مـسـتدير ، كان شعرها سبطًا وأشـقر مع بعض خصلات بيض ، ولابد من القول إن هانز فايفـر كان مشمولاً برعـايتها ، ولقد كـاد ينوء بعبء الرعاية الأمومية لهذه المرأة الفاضلة ، حتى إنه لم يجد حاجة له يسألها إياها . أخرجـت أمتعـته من الحقيبة وصفّتـها بنظام ، وقررت أنه لن يشرب فى الصبح قهوة وإنما كاكاواً، وإلى ذلك عليه أن يلتهم بيضتين مقليتين

مع البطاطس المُحَمَّرَة ، قالت «هذا ضرورى للأطفال فى أعوام النمو، خاصة إذا كان نموهم باهراً مثلك ، لم يكن ولدى يحب هذا ، ثم ندم كثيراً على ذلك » .

والويل له إن هو أعاد إلى البيت إحدى شطائر الخبز الكبيرة المدهونة بالزبد .

صارت تطهو له وجباته المفضلة مراراً ، حتى إنها سرعان مالم تَعُدْ وجبات مفضَّلَة . بعد المائدة يجب أن ينام ، ولا يجوز له أن يفعل بعد ذلك شيئًا إلا إذا شرب أولاً قسطًا وفيراً من القهوة ، فى المساء يحصل ثانية على وجبة أثيرة أو قسطًا من بودنج البرغل مخلوطًا بصلصة التوت الشوكى . قالت :

«كل الأطفال يحبون هذا . كان ولدى يتناوله كل يوم » .

فكر هانز : إذا استمر الوضع على هذه الصورة فسأصبح هنا سمينًا كخصىّ .

لكنه لم يكلف نفسه عناءً ، وإنما أتاح لكل شىء أن يترك أثره عليه فى استسلام ، لقد كان دميةً فى مسرح عرائس . كان نتيجة من نتائج نبيذ ملقط الجمر .

لم يحمل هانز معه إلا جزءاً متواضعًا من مكتبته ، لكن السيدة فيندشايد ما فتئت تتعجب لكمية الكتب :

« يا لكل هـذا الذى يجـب عـلى أطفال اليـوم أن يتعلمـوه ، ظل ولدى أيضًا منكبًا على كـتبه حتى بعد منتـصف الليل ، لقد صار حال المدارس العصرية مُفْزِعًا » .

كانت بطبيعة الحال فضولية، ولكن بطريقةٍ صفتُها الوُد والأمومة، فسـألته : « مـن هـذه السيـدة ؟ مؤكد أنهـا السيدة مامـا ؟ وما تزال هكذا شابَّة ! ودرجـة الشبه الكبيـرة معك ! إنها امرأة لا مثـيل لها ، فقط تبدو جادة بعض الشىء ، مؤكد أنها كثيرة القلق عليك » .

فدمدم هانز « أوه . . أجل ! »

كانت الصورة هى صورة ماريون .

كان هانز فايفر واهمًا حين اعتـقد أنه بسُكناه لدى السيدة فيندشايد إنما يقع تحت قدر ضـئيل من الإشـراف والمراقبة ، فـالسيدة فـيندشايد كانت تسهـــر بعين الأمــومة عــلى تحولات حيـاته ، وكانت تُحذره من صحبة السوء :

« يجب ألا تخالط إطلاقًا السيد كنول الذى يسكن الحجرة الكبيرة المجاورة ، إنه ليس مناسـبًا لرفقـتك ، فهو لم يرجع يومًـا إلى البيت قبل العاشرة والنصف مساءً ، ولك بعدُ أن تتصور أن له فوق كل هذا علاقةً ما » .

لكن هانز لم يكن ليفسد علاقته به ، فالسيد كنول كانت له ميزة قيِّمة ، برغم أنها لم تكن ميـزة بالمعنى ، وإنما كانت شيئًا . ذلك أنه كان فى حوزته مفتـاح المنزل ! ولم يكن هانز مولعًا على الإطلاق بأن يستلقى مساءً عند التـاسعة فى مهده كطفل الثانية عـشرة ، كما نصت على ذلك اللائحة المدرسية وتعاليم السيدة فيندشايد ، فهذا الوقت هو الذى كان يرتدى فيـه - عندما كان فى برلين - حُلته الاسمـوكينج بهدوء ، لينسل من ماريون التى كـان الرقْصُ يغضبهـا ، متنقلاً عبـر الصالات والبـارات ، أو كان يبـدأ فى هذا الوقت فى عـمل جاد ، فـقد كـان يعمـل شأن الكثيرين من ذوى الطبائع الحساسة - فى الليل خاصة .

كـان هانز يبـحث الآن عن علة يتـعلل بهـا ليُفْلت مـن السيـدة فيندشايد ، فى البداية جَرَّب ادّعاء الإصابة بالربّو ، وأوضح أنه يجب أن يخـرج إلى الهواء الطلق ، فـرأت السـيدة فـيندشايد رأيا آخـر ، وصنعت له شرابًا غَلَتْ لإعـداده خليطًا مختلفًـا من أوراق النباتات ، كان شـرابًا صحيًا جـدًا بالتأكيد ، لأن طعـمه كان فظيعًـا ، كان أثره كذلك فوريا ؛ فبـعد عدّة جرعات صغيـرة كفّ هانز عن ادّعاء ضيق التنفس وزحف على وجـه السـرعة إلـى سريره - لكى يتـسلل بعـد حوالى ساعة إلى الخارج بفضل مفتاح البيت المُخَبَّأ .

إلى أين ؟

كان قـد استبـدل بالطبع كاب التلامـيذ والنظّارة والبذلة بأشـيائه المعتادة ، لكنه خشى أن يتعرف أحد عليه برغم كل هذا ، هيّئَ له أنه

شخص مُـهمّ ، ولا ريب أنه كان يريد أن يتـجنب نهاية عـاجلة لمسار حياته الجديد .

أإلى المسرح المتجول ؟ إنه فرقة مسرحـية متنقلة وجيِّدة مثّلت قبل عدة أيام مـسرحيـة « عامل الكتان مُـرَبيًا » ولازالت بقـايا الإعلانات ملصقة ، قيل إنه سيـعود بعد عدّة أسابيع ليعرض مسـرحية «هيدلبرج العتيقة » . كان من المُزْمَع افتتاح سيرك «جرَانى Gerani» قريبًا ، لكنه لم يُفتح بعد . فى الحانات المحترمـة قد يلتقى بالمدرسين ، لكن السيد كنول كان قد ذكر له مقهًى صغيراً يتحاشاه الأساتذة والأعيان، تقوم بالخدمة فيه أنثى ببلوزة حريرية ، نادلة كما يقولون .

جلس هانز فايفر مُغتما على إحدى الموائد الرُّخامية المستديرة التى لحقـتها بَعْضُ القذارة ، وشَـرِب جعّة لزجـة تلاعب وهو بليد النفس بلبادها البالغ النعومة ، لُصْق الحوائط جلس أزواج من صغار المحبين، وقد أصابهم الملل ، من وقت لآخر يُضَحِّى أحدهم بجروشن ليدير به البيانو الإلكتـرونى ، بهذه الطريقة كان هانز يسـتمد لعدّة أمسـيات ما يلزم لإذكاء حاجته للراحة فى الفراش .

لم يَدُم جـو الأُبّهة هذا طويلاً ،فـذات مـساء بينمـا كان يُعـاود التسلل صـاعدًا السلم الكبـير حافـيًا إلا من جوربه ، سـقطت لفرط حرصه عصاة التنزه البلوط الثقيلة من يده على أعلى درجات السلم ، فـصـدر عنها دوىّ هـائل ، وهى تسقـط متـدحـرجـة على السلم ،

ورَجَّعَت ردهات البيت القديم الفسيحة صدى سقوطها من جوانب عديدة ، ما كان لأحد أن يحمل استيقاظ السيدة الفاضلة فيندشايد من جراء ذلك محمل السوء ، ويَلْقى هانز فايفر تقريعا عادلاً ، كان ذلك هو ما أطفأ رغبة الكاتب الشاب فى مغامرات ليلية أخرى .

كادت مشكلة الاستيقاظ تفوق مشكلة الذهاب للفراش ، وفى كل صباح عندما كان صوت المنبه النافذ يقض عند السابعة إلا الربع مضجعه - كان يتعجب ويحتاج إلى وقت طويل ليعود إليه إدراك مَن وأين هو ، وحين كان يجب عليه بعد ذلك أن ينهض بفعل الدقات المتعجلة التى تواليها السيدة فيندشايد على بابه فيصحو فى منتصف الليل ، كما كان يسمى ذلك ، عندئذ كان يعتريه فى كل مرة غضب هائل على نبيذ ملقط الجمر ويفكر فيما إذا كان ينبغى عليه أن ينقُض غزله من بعد قوة أنكاثًا مرة أخرى .

على أنه حين كان يغتسل ويتزيا ، كان كل هذا يزول عنه فى كل مرة ، وبالتدريج لاحظ أن الصباح الباكر وقت نافع من اليوم ، وجدير بأن نحياه . جلس إلى المائدة ، وترك السيدة فيندشايد تحشوه بالبيض المقلى والبطاطس المحمرة ، بينما أخذ يراجع مفردات اللغة اليونانية ، وأخيراً تأبّط كتبه وتلقى من السيدة فيندشايد طابوراً طويلاً من الشطائر المدهونة جيداً بالزيد ، وصك على رأسه كاب التلميذ الذى صار أكثر ملاءمة له ، وهرول خارجًا .

* * *

فى أثنــاء ذلك كان هــانز فـايفر قد تعرَّف على ســائر الأساتذة فى مدرسة بابنبيرج الثانوية ، وتعلم كيف يحبهم بدرجة أو بأخرى ، وثبت له من خلال ذلك أنهم لم يكونوا ذوى أطوار غريبة على الإطلاق ، وهو ما كان هانز يتوقعه بعد ما سمع من حكايات نيذ ملقط الجمر ، حتى مدرســة بابنبيرج الثانوية التى اخـتيرت خصيصًا لهــذا الغـرض لم تكن المتحف المنشود للتحف التربوية ، وهى بالأَوْلى ليست حديقة حيوان. لقد وضح لهانز أن كل ما فى الحياة يقتسمه الحُسْن والرداءة .

حتى أن أحد المدرسين ، وكان يُدعى موللر رقم ٢ ، ويُدرِّس التاريخ واللغة الإنجليزية ، كان على النقيض تمامًا من صورة المدَرِّس الغريبة ، ولم يكن من الممكن لامرئ أن يثبت عليه أدنى هفَّة من جنون ، هذا غـير ممكن من أى وجـهة ، كانت أبـرز صفاته أنه ليس له صــفات ، كان يلبس كـما يلبس الناس ، بلا شـديد تفريط ولا شـديد إفراط ، كان يتحدث مثل حديث الفانين العاديين تمامًا ، لم يكن يقول نكاتا - طواعية أو قسرًا - ولم يكن يحتملها ، كان بلا لون ككوب من الماء ، وكانت ساعات درسه تنقضى فى جوٍ من الموضُوعية المُضَّة ، وبعد أن تنقضى يشعـر المرء فيما يشـعر أنه قد تعلّم شيئًـا ، لكنه لم يكن أمام معلِّم . لم يكن هذا أيضًا هو الأمر الصواب .

ولم يكن له يومًـا اســمٌ هــزلى ، فلم يحـــظ بهذا الشـرف ، كان اسمه فقط هو موللر ٢ ، واسـتمر اسمه هكذا برغم أن موللر ١ قد مات قبل عامين .

غير أن المدرس بومل كان يعوِّض خيبة الأمل فى موللر ٢ ، لم يكن أحد يعرف اسم بومل الحقيقى ، ربما يلزم لمعرفة ذلك إلقاء نظرة على التقرير السنوى ، كان قد انقضى زمن طويل على رحيل بومل من موطنه فى منطقة الراين الدنيا إلى بابنبيرج ، تقدمت به السن فى هذه الأثناء ، لكنه كان لا يزال يحمل جاكتته السوداء ، أما لحيته التى كانت سوداء جعداء مثل حشو المرتبة فقد بدأت بهدوء تتفضَّض .

لقد احتفظ بلهجة منطقة الراين الدنيا ، وكأنها التذكار الوحيد من وطنه ، كان يُدَرِّس الفيزياء ، ولم يكن يحفل كثيراً بالمبالغات العلميَّة ، بل كان يميل أكثر للمصطلحات البسيطة الواضحة ولعرض المادة بالطرق الشائعة ، وفضلاً عن ذلك فقد كانت قدماه مُعتلتين ، فكان يحرص فى بداية كل حصَّة على أن يخلع حذاءه خلف المنصة ، كان يفعل ذلك منذ الأزل ، واعتاد التلاميذ منه ذلك الأمر وكادوا يُعدونه بديهية من البديهيات . هانز فقط هو الذى استغرب هذا أول مرة ، وكان استغرابه لطريقة التدريس أكبر .

قال بومل بلهجته المضحكة :

«إلى أين وَصَلْنا ؟ آها ، اليوم نأخذ درس الآلة البخارية . ونسأل ما معنى آلة بخارية ؟ فلنتخيَّل ذلك ببساطة شديدة ، ونقول آلة بخارية : حيز كبير أسود ، به من الخلف فتحة ومن الأمام فتحة ، الفتحة الأولى هى فتحة الوقود ، وأما الثانية فسنتحدث عنها فيما بعد» .

لم يستطع هانز أن يستوعب كيف لا ينفجر الفصل ضاحكًا ، يبدو أن لهجة المعلم وطريقته المضحكتين قد صارتا عادة أخرى لدى التلاميذ ، وواصل الفيزيائى القول : «وحين يكون لهذا الحيز الأسود عجلات يصير قاطرة ، أو ربما يصير أيضًا وابوراً متنقلاً » .

كان هانز قد اتخذ من التلميذ الجالس أمامه سترًا - فقد تعلَّم كيف يقوم بهذا الإجراء التكتيكى - وكتب كل ما قاله المعلِّم بخط جميل رقيق ، إذ كان يأمل أن يتمكن فى وقت ما من استغلال ذلك فى عمل أدبى .

شُرحت فى هذه الأثناء كل تفاصيل الآلة البخارية . «ما يكون الصمام ؟ فلنتخيل هنا أيضًا بصورة بسيطة جداً ، الصمام هو ما يمر الشيء منه للداخل ولا يعود منه خارجًا أبدًا - أنت ، ماذا تكتب ؟ هات هذا الذى تكتبه ! » .

كان المقصود بالخطاب هنا هو هانز فايفر ، كان قد سمع من قبل بأن بومل يخاطب تلاميذه حتى السنة النهائية بصيغة المفرد ، فقط حين يكون مستاءً بشدة ، كان يخاطبهم بـ «حضرتك» ، وكان يتحدث عندئذ ألمانية فصحى ، أظهر هانز ما كتبه وعلى وجهه علامات الود المصطنع ، وزعم أنه إنما يكتب هذا ليتمكن من دراسته فى البيت .

« أنت فتىً شاطر ! ولكى تحفظ هذا تمامًا ولاتنساه مدى حياتك، عليك أن تنقله فى البيت خمسًا وعشرين مرة . أفهمتنى ؟ » ، فهم هانز، وترك الكتابة مع المدرس حتى لا يزيد مقدار العقوبة أكثر .

حينما آلت هذه الحصة الجميلة أخيراً إلى نهاية ، وأراد بومل أن يلبس حذاءه مرة أخرى عندها لم يجد إلا فردة حذاء واحدة ، أما الأخرى فضاعت .

بومل لا يدَعُ شيئًا فى البداية يبدو عليه ، ويبحث بعينه ، بينما يواصل حديثه .

ولكن فردة الحذاء تبقى مختفية .

« هل رأى واحدٌ منكم الحذاء ؟ »

كلا ، لم يره أحد .

« إذا وقع فى يدى ابن الخنزير الذى خبَّأ حذائى . . . ! »

لكنه لا يقع فى يده ، لا ابن الخنزير ، ولا الحذاء .

بالتدريج يزداد بومل استياءً ، ويبدأ التحدث بالألمانية الفصحى ، ويريد أن يذهب إلى الناظر ، غير أن الحذاء المفقود يحول بينه وبين ذلك ، لم يبق أمامه إلا أن يفتش المقاعد بنفسه ، وهكذا أخذ يحجل فى الفصل بفردة حذاء واحدة ، ويهدد بكل عقوبات الدنيا ، بينما صارت قدمه الأخرى بجوربها ذى الحلقات الرمادية والوردية مادة لاستغراب الجميع ، ضجّ الفتية بالسرور ، يكاد الإشفاق على ذلك الكهل يعترى هانز فايفر ، لكنه لم ينجح فى ذلك ؛ فالأمر بالغ الفكاهة .

وأخـيراً ، عندمـا أوشكت الفـتـرة الفاصلة بين الحـصـتين على الانتهـاء ، يُعثـر على الحذاء المفـقود فى صندوق ممسـحَة السـبورة ، فيلبـسه بومل وهو مبهـور الأنفاس ، ويجمع كل مشـاعره عندئذ فى كلمات : «ياه ، يالكم من شخصيات قذرة » .

على المرء أن يوافقه على هذا ولا ريب .

هكذا انتهى هذا الحادث العارض بشكل يرضى الجميع .

هانز فايـفر وحده هو الذى نال عـقابًا ، فـحين جلس فى المنزل ينقل للمـرة الرابعة ما عليـه أن ينقله ، أدرك أن الأمر لم يعُـد فُكاهة على الإطلاق ، لقـد كان بومل يعـرف تمامًا مـا يريد بذلك ، وحين وصل إلى نقل الواجب للمرة الـسادسة ، صك كراسـته فى ركن من الحـجرة وهرول إلى أوبتس صـاحب المطبـعـة ، وطلب منه أن ينسخ الدرس خمسًا وعشرين مرة ، وبناءً على نصيحة الطباع نسخه خمسين مرة ، لأنها تتكلف نفس السعر .

غـير أن سـوء الحـظ كان حليف هـانز ، فـحـين أراد أن يُسلِّم فى الحصـة التاليـة العـقوبة المنسوخة ، كان بومل قد نسـيها تمامًا ، فهـو لم يسأل عنها على كل حـال ، فتقدم هانز إليـه وأراد أن يسلمه الواجب المدرسى ، ولكن بومل يشيح عنه ، ويلح هانز فى طلبـه ، ويبقى بومل جامدًا، إنه لا يتزحزح عن موقفه حتى ولو بإلقاء نظرة ،

فيتراجع هانز خجلاً ، هكذا طاشت أولى حملاته الكبرى على التربية المدرسية . أم كان بومل أذكى مما يظن المرء ؟

* * *

كان هانز متفاهمًا مع د. بريـت بصورة ممتازة ، وكان كل منهما يحمل للآخر احترامًا فى نفسه ، كـانا روحين متماثلين على مستويات مختلفة : فهذا أديب ، ود. بريت خبير رياضيات .

كان بريت واحـدًا من المدرسين الذين لا يحتاجون لتسويغ المادة العلمية الجافة بالنكات المغتصبة ، لقد كان يستخلص التشويق من المادة ذاتها ، ولم يكن يبيّن لفـتيانه حتميـة البرهان الرياضى المقبض للروح فحسب ، وإنما يبين لهم أيضًا الجانب الجمالى فى هذا البناء المنطقى ، كانت خطواته وحلولـه الرياضية تبـدو مثل الكاتدرائيات القـوطية من حيث عمـارتها البديعة ، وحين كـان يتحدث ويوجّه بصـوته الحبيس الحلّ فى الوجهة الحاسمة ، كان من الممكن عندئذ سماع رنة الإبرة إذا سقطت على أرض الفصل ، وكان التـحفز يبلغ عندئذ حدًا يكاد المرء يستشعر معه حفيف الأفكار فى الرءوس .

الحق أن بريت كان يعمل - ضمن ما يعمل - على أن يعوّض فى فصله ما كـان سلفه قد أفسـده فى المرحلة المتوسطة ، ذلك هو إيرباخ العجـوز ، الذى كان ينعم بدخوله فى مرحلة التـقاعد ، وقد اخـتفى عن الأنظار ، لكن الأساطير التى حيكت حوله كانت ما تزال تتواتر ، فلقد قيل إن الناظر كناور أرشـد العجوز لأن يستمد مسـائله الرياضية

من الحياة العصرية أكثر ، فما كان منه إلا أن درس الصحيفة الرياضية وكوّن المسائل التالية فى صورة ثلاثية :

أولاً : فى سباق العَدْو قطع سائس خيل المسافة فى دقيقتين و٣٢ ثانية، وكان يزن ٩٦ رطلاً . فى أى زمن يفوز إذا كان يزن ٨٢٧ رطلاً ؟

ثانيًا : عَبَر إنجليزى بحر المانش سابحًا فى ست عشرة ساعة وأربع وثلاثين دقيقة ، وقطع أثناء ذلك ثمانية وأربعين كيلو مترًا . كم من الوقت يحتاج ليسبح من مدينة درسدن إلى القطب الشمالى ؟

ثالثًا : رَمَى شخص ما حجراً زنته رطلان لمسافة ثلاثة وعشرين مترًا . إلى أى مسافة يرمى حجراً وزنه ٣, ٠ من الجرام ؟

أسف هانز فايفر لكونه لم يعايش الرجل الذكى بصفة شخصية ، لذلك فقد تعلّم لدى د. بريت العبث بمشتقات التفاضل ، والإحداثيات الأفقية ، ونقاط الصفر، والقطع المكافئ ، والمماسات ، والقطع الزائد ، ونقاط التلاقى فى إحداثى جانبى ، كل هذا تَعلَّمَه هانز ، الكاتب المكلل بالجوائز ، كما لو لم يكن قد تعلم فى حياته شيئًا آخر .

وكل هذا لم يمنعه من اختراع شيء ذى أهمية بالغة فى حصة د. بريت ، ذلك هو المرآة التى يرسم بها الإجابة على السبورة .

فبرغم أنه لم يكن جالسًا إلى الشباك مباشرة ، إلا أنه كثيراً ما كان يستقبل بعض أشعة الشمس النافذة على سطح مرآة جيبه

ويصوبها فى دعابة على الحائط أو على السقف ، وعندما وقف رودى كنيبل البدين ذات يوم أمام السبورة يتصبب عرقًا ، متلهفًا يتلمس أى طيف فعّال للعَون ، ظهرت فجأة بقعة ضوء جليّة وقادت الطباشير العاجز فى يد رودى العاجزة إلى الطريق الصحيح ، تمامًا كما هدى مذنّب هالى يومًا ملوك المشرق إلى طريق بيت لحم .

لم يكن رودى كنيبل على يقين مما إذا كان يصح أن يثق فى هذا الضوء الكاذب أم لا ، لكنه وثق به يأسًا آخر الأمر ، وحين وجد أن ما كان يخشاه من ضحكات الفصل الساخرة ظلت بمنأى ، اطمأنت نفسه ، ولحسن الحظ كان بريت يجلس كما يجلس دائمًا على المنصّة فى وضع مائل خلف السبورة ، ويتابع مسار المسألة المطروحة بذاكرته الباهرة ، وبالتالى فقد كان فى مقدور هانز أن يواصل فى هدوء توجيه هذا الشبح الضوئى المنْقِذ ، حيث لم يُصَوِّرْ على السبورة الرسم الهندسى وحسب ، وإنما صوّر فوق ذلك حسابه الجبرى . اتبع رودى كنيبل ما يُرسم أمامه كالأعمى ، وحل المسألة بدقة تأخذ بالألباب . فصاح بريت منتشيًا :

«برافو ، كنيبل ! يسرُّنى أن ظهر فى عقلك أخيرًا ومضة ضوء».

لم يدْرِ بريت سبب انفجار الفصل فى ضحك مكتوم على قوله هذا ، كان قد أقْلَعَ منذ زمن طويل عن تتبع أسباب موجات المرح التى تسرى بين فتيانه ، لكن عينه دائمًا كانت فى وسط رأسه .

ازدادت إنجازات الفصل بصورة خـرافيـة بفضل القلم الضوئى ، أو على الأقلِ هذا ما يحدث حين تكون الشمس سـاطعة ، فإذا ما تلبدت السـماء بالسـحب فـقُل على العلم السـلام ، ولم تكن العلاقـة بين الطقس وإجابات التلاميذ لتبقى خـافية على خبير الرياضيات الذكى ، فأعلن ذلك على طريقـته : «الشمس هى المصدر الأول لكـل الحياة ، التلامـيذ أيضًا يتأثرون بضـوء الشمس بصورة حـسنة ، لن نقوم بحل التمارين المدرسية بعد الآن إلا فى الطقس الجيد» .

وأكد النجاح نظرية المعلِّم هذه .

باختراع مرآة الإجابة أضحى هانز فايفر دكتاتوراً للفصل ، حيث صارت تقـديرات جميع زملائه التـلاميذ بين جيـد ومتوسط ومقـبول وضـعيف كـامنة فى يده بمعـنى الكلمـة ، وهكذا نُحى روزن الطويل وأخته الجميلة عن العرش . لقد أصبح لصداقة فايفر وزن أكبر .

كان من الواضح أن هذه الأُبَّهَـةَ ستؤول حتمًـا إلى نهاية ، طال الزمان أو قصُر .

واتخذت الأحداث المسار التالى :

لأسباب سيرد تفصيلها فيمـا بعد ، فتر حماس هانز فايفر فى التعليم بَعْدَ بَعْض الوقت ، فلم يكن هانز بالشخص الذى يمكنه أن يُركز لفترة طويلة فى شىء على الإطلاق ، وقد عاد وأساء تحضير الدرس ذات يوم ، أو ربما لم يكن منتبهًـا كما ينبغى ، باختـصار أخذت مرآته الشمـسية

تكتب هراءً صراحًا على السبورة ، فانتابت يوآخيم شرادر ، الذى كان عليه الدور حيرة شاملة فيما يرسم أمامه من حلول خاطئة خادعة .

وعندما أعْيت الحيلة شرادر قاطعَهُ د. بريت ، فقال ببساطة ويسر دون أن يبدو على وجـهه أى تعبير : «فـايفر، عليك أن تنتبـه أكثر ، وإلا لزم علينا إسدال الستائر » .

احمر وجـه هانز فايفر إلى ما خلف أذنيه ، فـدسّ مرآته كاسف البال ، وجلس بعيـدًا عن النافذة فى الجهة التاليـة ، حتى لايقع ثانية عُرضة للإغراء ، فجلس إلى جوار لوك الصغير .

ابتسم د. بريت بشكل غير ملـحوظ . لقد فهم كلٌ من الطرفين الطرف الآخر .

* * *

بالتدريج أخذ هانز فايفر يلاحظ أن دروس البروفسور كراى غدت هى الأخرى جـادة ، فلم تعُد الحصص عـلى إطلاقها تملأ بمناقـشات تربوية وتفتيشات بوليسية أبدًا . غـير أنه ينبغى التسليم حقًا بأن الجدية كانت حتى ذلك الوقت صادرة إلى حدٍ ما من جانب واحد هو جانب البروفسور نفسه .

كان يحرص على اخـتبار دراية التلاميـذ بالأدب الألمانى بالطريقة التالية تقريبًا : «فى أى مسرحية ، وفى أىّ فصل ، وفى أى مَشْهَد ، ومن يقول لمن هذه الكلمات :

« أنا أعرف أهل موطنى بابنهايم ؟ » (*)

أما أن تبدأ موضوعات الإنشاء غالبًا بالعبارة التقليدية «إلى أى مدى» فهو مالم يكن هانز يتوقع غيره ، وأحيانًا كانت هذه الإلى أى مدى تأتى مزدوجة : « إلى أى مدى تتشابه مسرحية «فيلهلم تل» ومسرحية «جوتس فون برلشنجن» (**) وإلى أى مدى توجد بينهما فوارق جوهرية ؟ »

هانز وجد الإجابة :

« مسرحية تل يصح الاقتباس منها ، أما من مسرحية جوتس فلا يصح » . هكذا وسع الكاتب فايفر معارفه بالأدب الألمانى بصورة لم تكن فى الحسبان ، وحداه الأمل بصورة متواصلة فى أن يكون ذلك نافعًا لمسار حياته فى المستقبل .

وعلى نقيض ذلك لم يكن كراى راضيًا عنه :

« فايفر ، إنك تحصل فى كل المواد على تقدير مقبول أو جيد ، إلا اللغة الألمانية فتقديرك فيها ضعيف ، إن لك أسلوبًا غير معقول . ماذا تريد أن تكون فى واقع الأمر ؟ »

« لم أعرف بعد » .

(*) يتعلق السؤال هنا بمسرحية الكاتب الألمانى الشهير فريدريش شيلر (١٧٥٩-١٨٠٥) التى عنوانها Wallensteins Tod ، «موت فالنشتاين» وجاءت هذه الجملة على لسان أحد أبطاله فى الفصل الثالث المشهد ١٥ . (المترجم)

(**) مسرحية "فيلهلم تل" Wilhelm Tell ، هى أيضًا لشيلر ومسرحية "جوتس فون برلشنجن" Götz Von Berlichingen ، لأديب الألمانية الأشهر جوته . (المترجم)

« ابحث لنفسك عن مهنة تكون الكتابة فيها قليلة . أفضل ما يناسبك أن تصبح طبيب أسنان » .

وعده هانز بتحقيق ذلك وعداً صادقًا .

* * *

لم يكن هانز على مستوى عالٍ في مادة الغناء أيضًا ، والغناء هو تعبير الشعور الروحى ، والغناء كان يُدَرِّسه فريدولين . لم يكن هذا هو اسمه الهزلى ، وإنما كان اسمه الحقيقى ، ومن ثمّ فلم يكن بحاجة لاسم هزلى .

لم يكن فريدولين يتوقف عند كون الغناء هو تعبير الشعور الروحى ، وإنما كان الغناء يؤدًى لديه لأن ذلك ثابت في جدول الدراسة .

كان الغناء حصة مماثلة للسابقة .

ولم يكن هذا ذنب فريدولين ، فلقد كان هذا الرجل الضئيل ذو الشويرب الذى يشبه الخيط والصوت الرفيع مثله يبذل قصارى جهده فى أن يستخلص من الجماعة الخاملة من تلامذته الناعسين شيئًا مثل «الرغبة فى الغناء تملأ الصدر » ، لكنه كلما ازدادت حالته المزاجية سموًا فقاد أوركسترا الفصل بحركات جبًارة من يديه ازداد الغناء توانيًا وجهامة ، وكان أكثر ما يُحزن التلاميذ أو على الأقل هذا رأى تلاميذ السنوات النهائية الذين ينضمون فى تلك الحصة معًا - أنًّ فنًّ الغناء يُمارَس أساسًا فى وضع الوقوف ، الأمر الذى لا يمكن لأحد معه أن يستغل الوقت فى أداء الواجبات المدرسية ولافى النوم .

الوحيــد الذى كــان يجتهــد غــايته فى الغناء هو هانز فــايفر ، فكان يَهْدر بأعلى صوته، ويزعق بجماع قوته ، ويصرخ باندماج تام، وكانت له فى ذلــك دوافعــه الخاصــة ، فكــان يزعــق تعبــيــراً عنها إلى جوار الغناء .

مع مرور الوقت لــم يبقَ ذلك خافيًــا على أُذن فريدولين المعــتادة على نغمات النشاز . قال :

«ربما تسمعون هذا ولابد ، ثمَّة من يُغنِّى بطريقة غير نقية » .

فصاح صوت من الخلف : «النقىّ يرى كل شىء نقيًا » .

لم يعــد فريدولين يبــدى من زمن طويل أىّ رد فعل على هــتاف التلاميذ ، إلا أنه لَم يَعُدْ فى الإمكان حقًا احتمال هذا التانهويزر (*) النشاز .

«فايفر ، تقدم إلى الإمــام . أ أنت الذى ربما تغنى بهذه الطريقة الخطأ ؟ »

« بتاتًا » .

« هل عندك استعداد موسيقى ؟ »

« لا أعرف . فلم أُجرِّب هذا بعد » .

« جرب إذن هذه النغمة ! »

(*) تانهويزر Tannhäuser ، هو أحد شعراء الغزل المغامرين من أهل باڤاريا ، عاش من ١٢٠٥ إلى ١٢٧٠ ، وزار الشرق وكُتب عنه الكثير فى الأدب الألمانى ، فكتب عنه تيك وهاينه ، وتناوله ريتشارد ڤاجنر فى إحدى مقطوعاته الموسيقية الدرامية سنة ١٨٦١ . (المترجم)

ضرب فريدولين نغمة الـ (فا) الوُسطى على البيانو ، فزمْجَر هانز بصوت غليظ عميق مُخرجًا جلبة غير ذات معالم .

فريدولين غير راضٍ .

« غنِّ ورائى من فضلك : آآآآه » .

يجتهد هانز فى أن ينعق بصورةٍ أكثر موسيقية ، فينجح فى ذلك ويكون مَدْعاةً لسروره .

« أنَت تُغنى بصوت منخفض أكثر من اللازم . اسمعنى: آآآآآه » .

يُخرج هانز صوتًا رفيعًا عاويًا ، جعل الكورال ينتفض مذعوراً .

« كلا يا فايفر ، ليس عاليًا هكذا . إلى الوسط . بين بين أكثر . آآآآآآآ » .

يشرع هانز مرّة ثانية ويُخرج نغمة من الوسط أكثر ثم بين بين لدرجة جعلت صوته يتقلّبُ بعنف بين الغِلظة والرِّقّة باستمرار ، فيبدو صوتُه كنهيق حِمارٍ صار وحشيًا .

تحسده الجوقة ، ويتفكر فريدولين بُرْهة ثم يُقرر «أنت لاتزال فى مرحلة تغيُّر الصوت . لكن لا تأسَ على ذلك ، فسوف يتحول إلى الأفضل ، وأنت مُعفىً بطبيعة الحال من الغناء » .

منذ ذلك الوقت صار لهانز فايفر أن يعود إلى البيت أيام السبت والأربعاء مبُكرا ، فى الثانية عشرة .

* * *

انقضت عدَّة أسابيع وهُو فى الرّيف .

كـان هـانز قـد تأقلم مع حـيـاة الريف بصـورة حسنة جـدًا ، سواءٌ فى المدرسـة أو خارجهـا . لقد استـغل جمـاع قدرته العاطفـية كشاعر ليغوص حتى أنامله فى نمط الحياة المتواضعة السَّوية التى يحياها تلميذ صغـير فى ثانـوية بابنبيرج ، ومن نافلة القول أن نقـرر أنه نجح فى ذلك إلى حدٍ ما .

اجتاز هانز مشكلة طول المساء ، فلأنه كان يستيقظ مبكرًا ويتحرك كثيرًا طيلة النهار كان يأتى فى المسـاء مُرهقًا إرهاقًا شديدًا فيُلقى بنفسه فى سريره فى التاسعة والنصف ، وينام بلا أحلام كفتى صحيح البدن إلى أن تنطلق نوبة جنون المنبِّـه ، وحيث أنه كـان يذهب إلى الفراش مبكرًا وينام جيدًا فقد صار بمقـدوره أن يستيقظ فى الصباح أيضًا وهو فى حـالة جيـدة ، اعتـاد أيضًا على بودنج البُـرغل وعصـير التـوت الشوكى وعلى الكاكاو ومعه البطاطس المحمرة وعلى الشطائر المدرسية المُطهَمَة بالزبد وعلى فطائر السكر . صار له وجنتان حمراوان ناضرتان كطفل ، وكانت قبعة التلاميذ تلائم وجههُ بصورة رائعة .

كـذلك تقـبَّـل هـانز صـابرًا أمـومـة السيـدة فـيندشـايد ، وفضـولها الأمومى ، ولئن أرادت أن تُنـقِّب فى كتبـه وأدراجه فليس عنده ما يخبئه .

كان يتلقى خطاباته عن طريق شباك البريد تحت عنوان وهمى ، وبمرور الوقت نشأ فى مكتب البريد نوع من الغمز واللمز ضده ، لكن ذلك كان يحميه من السيدة فيندشايد ، وهى بدورها لم تكن تستطيع أن تفهم كيف لا تصل الفتى المسكين أية خطابات ، فسألت عن أسرته ، وعما إذا لم تكن السيدة ماما ستأتى يومًا لتطل عليه ؟ وماذا يعمل السيد بابا ؟ هكذا ، الأب ليس على قيد الحياة ، ولكم أسِفَتْ لحال الفتى الوحدانى وذابت إشفاقًا عليه ، فزادت كمية بودنج البرغل ونسبة الزبيب فيه ، كما زادت كمية التوت الشوكى .

كان من الطبيعى أن يزورَ هانز مستشارَ الصحة المُسنّ شتاينهاور زيارة قصيرة ، والحق أن السيدة فيندشايد كانت قد حذّرته من هذا الرجل . «إنه كهل أعزب ، وهؤلاء ليسوا على ما يُرام . هل رأيت الصندوق الكبير فى الدور الأسفل ومابه من زجاجات النبيذ الفارغة ؟ لابد أنّ له كبدًا كأكباد مُدمنى الشراب » .

هكذا ازداد هانز فضولاً ، وفى الخامسة والنصف عصراً ذهب إليه . وعندما عاد من الزيارة كانت الساعة تُقارب الخامسة والنصف مرةً أُخرى ، لقد تصادق هانز على أكمل وجه مع هذا الرجل الذى يعيش وحيداً ومع نبيذه الموسلى بأنواعه الجيدة(*) ، وعندما كان يصعد السلم

(*) النبيذ الموسلى ينسب إلى نهر الموسل Mosel ، وهو نهر فرعى صغير على الناحية اليسرى للراين ، وتشتهر المنطقة التى يمر منها بزراعة الأعناب وصناعة النبيذ ، ونطق الكلمة الصحيح أقرب ما يكون إلى «موزل» . (المترجم)

لم يكن من الضرورى أن يحمل معـه عصاة التنزه التى تسقط من يده لكى يوقظ السيدة فيندشايد ، فقد تخلّت عن موعظتها الأخلاقية هذه المرة احترامًا للسيد مستشار الصحة ، وحتى فى الصباح التالى ، حيث لم يكن هانز قـادرًا على التـفاوض إلا عند العـاشرة ، أرفـقت معـه مكتـوبًا للاعتـذار عن تأخـره عن المدرسة : «نظرًا لآلام شـديدة فى الأسنان . . . » وطمأنت ضميرها قائلة : «كنت أضطر لفعل ذلك دائمًا لولدى أيضًا » .

* * *

كانت مـدرسة البنات الثانـوية مُلاصقـة لمدرسة البنين مبـاشرة ، وبنات المدرسة الثانوية كـائنات غريبة ، فتلميـذة الثانوى تتكون تحديدًا من نصفين : أحدهما المُراهِقَة التى ستصـبح سيدة وأُمًا فى المستقبل ، وهذا النصف هو ولا ريب أنثـوى بكل ما فيـه من فتنةٍ وعـيوبٍ هذا الجنس المحبوب، والنصف الآخر من تلميذة الثانوى يتألف من العلم، والمنطق والجهـد العَقْلى ، ومن العـمل المدرسى ، وهذا النصف رزين وموضـوعى ، بل ويمكن أن يسمـيَه المرء محـايدًا ، وبدهى أن يكون النصفان فى صراع مع بعضهما البعض ، وبعد فترة يتفوق هذا الجانب أو ذاك ، فإذا ما انتصر أوّل الجانبين صار من تلـميذة الثانوى ربة بيت صغيرة وسوية ذات خطوط من الثقافـة تبهت شيئًا فشيئًـا ، أما إذا كانت اليد العُليا للجانب الثانى نشأ بيتُ عِلمٍ به سماتٌ أنثوية مندثرة .

والطريف فى تلميذة الثانوى هو أن المرء لا يعرف بعد إلام يصير حالهـا ، وهذا هو سبب المعَـزَّة التى يُكنها لـهـا الجمـيع ، ومن بينهم أيضًـا تلاميـذ الثـانوى ، لكن هذا لم يكن بحـال هو الدافع إلى بناء مدرسة البنات لصق مدرسة البنين تمامًا، فلم يلاحظ أحد ذلك إلا بعد أن تمّ البناء . وعندها لم يعُد للتغيير سبيل .

قلّما يرى المرء تلميذات الثـانوى فى الشارع ، وحتى جولة التنزه ما كُنّ يقُـمْـن بها إلا مـع بعـض الحذر وبلفـافة صغيـرة من الحجج تحت أذرعهن .

يقع وقت التنزه فى بابنبيرج بين السادسة والسابعة عند الأصيل ، وتمتد النزهة من مـبنى أكسماخر حـتى مقر بائع الكتب مـويزيتسال ، والاختـلاف الرئيسى بين هذا الشـارع وشارع تاونتسين هو أن جـميع الناس هنا يحيّون بعضهم دائمًا لأنهم جميـعًا يعرفون بعضهم بعضًا ، وفى كل مـرة يلتقون فيها مُجددًا فـإنهم يتبادلون التحية ثانية ، لأنهم ما يزالون يعرفون بعضهم البعض .

كان فايفر يتنزه هو الآخر هناك ، ليس فقط بغرض الاستطلاع ، وإنما كان يحمل فى قرارة نفـسه إحساسًا ما بأن من مسـتلزمات تلميذ المدرسة الثانوية الحقيقى أن يكون له أيضًـا حبٌ مدرسىٌ صغير . كان يريد أن يسرى عليـه كل ما يسرى على التلميـذ ، لكنه لم يُقْبِل على تلميذات الثانوى ، وإنما حاول أولاً ذات مرة مع بائعة فى بيت الأزياء فيشنر ، صبية حلوة رشيقة كفتى ، ولها خصلات متوهجة .

وليته لم يفعل . فلقد صَدَّته الفتاةُ بطريقة مُزْرية ، وردت عليه في جسارة أنها لا تُبالى بتلاميذ الثانوى ، ثمّ إن لها ابن عم يَدْرُس في معهد عالٍ .

شحب لون هانز غضبًا . من هو إذن ؟ لعلّه لم يكن بحاجة إلا لأن يقول أن الرواية الكبيرة التى تنشرها مجلة «دى فيلت»(*) على سبيل المثال هى أحد أعماله ، وهى ليست أفضلها على الإطلاق ، لم يكن بحاجة إلا لأن يقول . . .

لم يقُل شيئًا قط ، قال «أرجو كثير المعذرة !» واعتراه الخجل ، لتلميذ الثانوى مُلْهِمتُه التى يهيم بها ، وربما تكون له أيضًا حبيبة خالدة ، لكن تلميذ الثانوى لا تكون له علاقة .

* * *

لا يشتمل الفصل المدرسى على حشدٍ مُتجانس ، وإنما تتبلور داخله جماعات أو صداقات أو علاقات جِوارٍ فى مقعد الدرس ، أو فِرَق تميل للعمل الجماعى . هانز فايفر كان قائدًا لإحدى هذه الفرق ، وكان رودى كنيبل على رأس المنتمين لها ، كان طوله لا يزال ١٤٤سم ، لكنه يرفل فى سعادة مُقيمة ، لم ينغصها عليه حتى يقينه بأنه سوف يرسب فى امتحان الثانوية ، وكان إلى ذلك موهوبًا فى الموسيقا كأنه قائد جوقة موسيقا غجرية .

(*) دى فيلت "Die Welt" ، هى جريدة يومية ألمانية جامعة ومعناها «العالم» وهى جريدة محافظة كذلك . (المترجم)

ثم يأتى بعـد ذلك إرنست هوزيمان ، ضخم البـنية وقـوى كدُبٍّ قطبى ، وكـان بلغمى المزاج بما يتـفق وهذه الضخامـة . بل يمكننا أن نقول إنه كان كسولاً ، وكان حَسَنَ الطوية بصورة مثيرة .

كان رابعـهم هو لوك الصغـير ، صـبى بولغ فى تربيتـه حتى نما ضـئيـلاً على غيـر ناموس العـادة ، ذو وجه عـاجى نحيف وعـينين نجلاوين مندهشتين ، كان ذكاؤه ظاهرة مَرَضية تمامًا ، وكان الأول بين أقرانه رغمًا عـن إرادته ، وكان كبش الفـداء التقـليدى فى الفصل ، كان له ألف روح فى صـدره الرقـيـق وكان يريد أن يصـادق الجـميع ، فلا يتحقق له إلا عكس ذلك تمامًا . غيـر أن صداقة حارة ربطته بهانز فايفر ، لقد كان هانز الوحيد الذى كشف عن غموض نفسه المعقدة .

كانت المهـمة الرئيـسية لهـذا الاتحاد هى الحل الجمـاعى للواجب المنزلى ، وكانت هذه المهـمة تُؤَدَّى فى كوخ هانز فايفـر ، حيث كان فى إمكانهم أن يلغطوا ما شاء لهم وهم فى مـأمن من العقاب ، وأن يقلبوا بلهوهم كل شىء رأسًا على عقب . لقد كان لدى السيدة فيندشايد الطيّبة عذرٌ شاملٌ لكل شىء :

« ابنى أيضًا . . . » .

ازدادت بصورة كبيرة أسبـاب الراحة السكنية فى كوخ هانز فايفر – إذا ما استخدمنا التعبير اللا أخـلاقى – فسلبت السيدة فيندشايد لهذا الغرض حجـراتها الأخـرى أثاثها ، حتى الصالون ، وغدا لهـانز خوان فخم

من خشب الـكمثرى به سبعة وثلاثون درجًا ، ودرجٌ آخـر سِرِّىّ ، شرحت له السيـدة فيندشايد آلية استخدامـه ، وفوق ذلك حصل هانز على كـرسى ضخم بمسـند من طراز بيدرمـاير (*) مُـغطىً بكيس من القماش ذى خطوط ذهبية خضراء .

أجل ، هذا ما حدث ، بل إنها قـامت بإخلاء دولابها الزجاجى الذى يضم تحفًا لا حـصر لها ، وقدمتـه لهانز ليتخـذه خزانة كتب ، وكانت تريد أن تفعل ما هو أكـثر من ذلك ، فلم يبق لهانز إزاء ذلك إلا أن يقاوم بيديه ورجليه . فما كان يريد متحفًا .

كـان الأداء الجمـاعى للواجب المنزلـى يبدأ عـصـر كل يوم عند الرابعة بإبريق ضـخم من قهوة المُلـت العَطِرة ، التى تجود بها السـيدة الفاضلة فيندشايد ، وإعداد قـهوة المُلت هو بالذات فن خاص بالسيدة فيـندشايد ، وكـانت تعتـقد أيضًـا أنها إنما تدفع بذلك عنـهم مُتـعة المشروبات الكحولية ؛ لأنه - كـما حسبتها السيـدة فيندشايد - عندما يكون فى المعدة كمية من القهوة لا يبقى للجعة مكان .

بعد ذلك تُجْمَعُ النقود لشراء فطائر السمن والسُّكر المُربَّعة الشكل ، والكـبيرة الحـجم مـن عند هوفمان الخبـاز . كان هانز فـايفر يتمنى

(*) بيدرمـاير Biedermeier ، طراز فنى سـاد أوروبا فى النصف الأول من القرن ١٩ وشمل الأثاث والثياب ، وتميز بكثرة الزخرفة ، وأصل التسمية مشتق من دمج اسمى بطلى قصة فيكتور ف. شيفل المنشورة سنة ١٨٤٨ « أوراق طيـارة » واسـما بطليهـا همـا : Biedermann و Bummelmeier . (المترجم)

أن يتبرع بثمنها ، لكن السيدة فيندشايد لم تكن تحتمل هذا ، وأخذت تراقب بعين أمٍّ يقظة تمامًا التصرفات المالية لربيبها .

ولا ينبغى أن نُغفل أن تناول القهوة وملحقاتهـا أخذ يستغرق وقتًا طويلاً بصورة غـير لائقـة ، فمعـروف أن بعدها يبدأ العـمل ، وفى قلوب الصحاب قشعريرة خفيفة من العمل ، ولكن عندما تُشير الساعة أخيرًا إلى الخامسة والنصف لا يكون العمل قابلاً لمزيد من التأجيل .

نُظمـت طريقـة العمل بحذق لتـوائم مختلف المواد الدراسـية ، وفى الترجـمة ومسائل الرياضـيات خاصـة يشتد السّعى لإنجـاز إجابة صحيحة لا معيب عليها ، وبصورة جماعية .

و «بصورة جـماعـية» هذه تعنى أن لوك القصـير والأصـغر سنًا يَحْسـب أو يُترجم بصـوت عالٍ ، والآخـرون يلقون بالهم إليه قليلاً أو كثـيرًا ، والحق أنهم كانوا قليـلاً ما يلقـون إليه بالاً ، وحين يكون الحل خطأ يقول رودى كنيـبل لنفسه أن عقله لن يقـوى على المتابعة ، فيتنـاول الجـيتـار خلسةً ويحاول أن يُلحِّن أغنية شـعبية صغيـرة ألّفها هانز فايفـر يتغنى فيهـا بالرّحيل ، لكنه كان يُغنى بنصف صـوته فقط حتى لا يزعـج الآخرين . ويقول إرنسـت هوزيمان إنه إذا كثر الـطهاة فسد الطعـام ، ويقـرر بلا إبطاء أن ينـام فى مقعـد الأجداد الوثير ، أما هانز فلا يفعل شيئًا مطلقًا ، ولا حتى ينام ، وإنما يطلق لأفكاره العنان لتدور كيف شاءت . ثمّة قصيـدة تتولد فى نفسه ، لكن لوك الصغير ما يفتأ يزعجه بحساباته ذات الصوت المرتفع .

على كل حال حقق أعضاء الجماعة بهذه الصورة هدفًا ، هو عدم مقـاطعـة لوك الصغيـر فيتمكن غـالبًا من إيجاد الحل الصـحيح وهو هادئ البـال ، لقد عـرفوا فى الوقت المناسب قـيمـة وجوهر العـمل الجماعى وعرفوا كيف يقدرونه حق قدره .

بعـد ذلك لا يصـح أن يقـدم الرفاق الأربعة نـفس الحلّ الخالى من المـآخذ ، فيـأتى دور الجـزء الثانى والصعب من العـمل ، ويتمثل فى حَبْك عـدة أخطاء غيـر ذات أثر ، تضفى صـبغة فـردية على كل واحد من الحلول ، وتحـول من جهة أخرى دون الحصـول على تقدير «جيد جدًا» الذى يلفت الأنظار إلى من يُحرزه ، وتَوْزيع هذه الأخطاء بالقسطاس ، ويدور حول توزيعها شحناء وجدل ، ولما كان لوك الصغير هو الذى تحمَّل عـلى كل حال عبء الحل وحده ، فـقد كان هو الوحيد أيضًا الذى يُسمح له بأن ينعم فى هذه المادة وتلك بحلول لا شية فيها .

ما كـان لهـذه الطريقة أن تُستـخدم فى موضـوعـات الإنشاء ، فـفى هذه الحـالة لابد من إعداد أربـع صيغ مـختلفـة للموضـوع ، وبعدها يقترع المستهمون عليها ، إلى أن جاء هوزيمان يومًا بفكرة عبقرية ، تقضى بأن يكون المزاد بينهم على قدر مـا يُقدم كل منهم ، فمن يدفع أكثر يحصل على موضوع إنشاء أفضل . هنا لم يكن للأسـف بدٌ من أن ينال القادر مـاديًا قَصَبَ السبق ، ربما كان ذلك تدريبًـا مبكّرًا على منطق الحياة ، كان إيراد المزاد يُستغل لـتكوين صندوق مشترك لتمويل ألوان التـسلية ، وسـرعان مـا تضخم هذا الصندوق وأتاح للـصحـبة الصغيرة رصيدًا ماديًا محترمًا لخدمة مشروعاتهم .

ومن هـذا الصندوق كان يُنفَقُ أيضًا على شراء البيرة التي كثيراً ما كانت السيدة فيندشايد تحضرها فى ختام الجلسات ، والحق أنها كانت تحتج فى كل مرةً وتُصور أثر الكحول سواء بصفة عامة أو على الأطفال خاصة فى أبشع صورة .

إلا أنها فى نهاية المطاف كانت تحمل دائمًا إبريقها الفخارى تحت مئزرها وتتخذ طريقها خجلة ومهمومة .

عمَّ تدور ثرثرة تلاميذ الثانوى عندما تتحرر قلوبهم وألسنتهم بفعل لترٍ من الجعةَّ قُسِّم رُباعًا بينهم ، وشعور بإنجاز الواجب المنزلى ؟

أتدور ثرثرتهم كلية عن شئون المدرسة ؟ ليس هذا أمراً مطلوبًا ، رغم أن المدرسة هى محور غير مرغوب لحديثهم وأفكارهم ، إنما يثرثرون أكثر عن أشياء أخرى ، خاصة تلك التى لا يفهمون منها إلا القليل . وفى هذا لا يختلف تلاميذ المدارس الثانوية أدنى اختلاف عن غيرهم من البشر .

لهذا السبب يتطرق حديثهم أيضًا عن السياسة ، وهُم فى مثاليتهم التى لم تُمَسّ يتصورون العالم قليلاً أو كثيراً جماعة من الملائكة المستترين ، ولا يستطيعون أن يفهموا أن فردوس هؤلاء لم يفتح بعد أبوابه على الإطلاق . إن لديهم نيةً صادقةً فى اتخاذ الإجراءات الضرورية فى وقت وشيك ، وهم يُعدُّون أنفسهم لذلك بشد عضلاتهم وأوتار أصواتهم فى الوقت المناسب .

وبدهى أنهم يتحدثون أيضًا عن الحُب . . إنه أولَى بالحديث عن غيره من الموضوعات بالنسبة لهم ؛ لأنهم لا يفهمون منه إلا القليل .

هانز وحده هو الذى لا يفهم ما يقولونه فى هذا الأمر ، لقد أوشك على إتقان دور التلميذ فيما عدا ذلك من الأمور: إنه يرتجف وجلاً حين ينسى كتابًا مدرسيًا ويبتهج حين يُحرز الدرجات العالية ويغتمّ للتقديرات السيئة ، ويزعم بعد ذلك أنه لا يبالى بكل هذا . سرعان ما يصير ثملاً من مجرد ربع لتر من البيرة المخففة ويذهب بأحلامه بعيدًا بعيدًا. يحلم بمعارك الهنود الحمر وجدائل الشَّعْر الشقراء المتدلية.

ولكنه حين يفتح زملاؤه أفواههم ويبدأون الحديث عن «النساء» فإنه لا يفهم ما يقال ولا يجاريهم فيه .

قال أحدهم :

« أقول لكم ، إلزا لانـدزبيرج غمزت لى بالأمس ! أنت يا بنى آدم ، إنها أشد مكرًا وأكثر نضجًا مما تبدو ! »

« تلك ؟ أنا لا أريدها ولو هديةً . أرأيت إلى رُسغ قدمها ؟ كأنه ليس رُسغًا بشريًا » .

«مع من تمشى الآن إنجه روزن ؟ ألا زالت على علاقتها مع يو آخيم ؟»

«إنه غبى حتى يجرى وراءها » .

« ما على المرء إلا أن يدع النساء يقعن فيه بمهارة ، فيأتين إليه متزلفات ».

« لا للنساء قاطبةً ! لن أتزوّج قبل أن أُصاب بالسكتة » .

« أتفهمون حقًّا ما الذى يجدونه فى الفتاة هيلا ؟ تلك التى لا لون لشعرها كأنه الهيدروجين ؟ »

« اللّعْنة ، لازال من الواجب علىّ أن أدرس الكيميـاء ! أما شناوتس فلسوف ينقرنى بمنقاره على كل حال » .

هكذا عادت الجماعة سعيدة إلى الحديث عن المدرسة مرةً أُخرى.

وفوق ذلك تنبئ حـصة الكيمـياء غداً بالفكاهـة فلقد وصلوا فى مقرر الكيمياء إلى موضوع التخمُّر الكحولى ، وجرت العادة من غابر الزمان على أن البروفسور كراى يُحضر معه إلى هذه الحصة نبيذ عنب الذئب كتـجربة أعدها بنفسـه على التخمـر ، وكذلك لكى يعطى كل تلميذ جرعة منه . جرعة صغيرة وحسب بطبيعة الحال .

ابتسم هانز ابتسامة ماكرة ، فهو لم يرتكب حماقات من زمن طويل ، وكانت الكتـابة الضوئيـة على السـبورة قد دخـلت دائـرة النسـيان ، بينما يشق هو طريقه ليكون الطالب المثالى . لم تعد ثمة فرصة للتأجيل .

لتر من البيرة ليس كنبيذ ملقط الجمر ، والخطة التى حاكها الفتية الأربعـة كانت أكـثر تواضـعًا من حيث الحـجم مما حيك حول نبـيذ ملقط الجمر . كان الصياح والمبارزة بالـكلمات ، بل والسعادة المسبقة بالمتعة المتوقعة ، كان كل ذلك صاخبًا لدرجة جذبت السيد كنول الذى يقطن الحجرة المجاورة للشاعر .

دق السيد كنول الباب فدُعي للدخول ، وسأل إن كان له أن يبقى فى رفقـة السادة الشباب لبـعض الوقت ، وأضاف أنه صديق حـميم للفكاهة الأصيلة ، وأنه سيكون له شرف المشاركة فيها ، وما إلى ذلك .

كان هانز يعرف الفـكاهة الأصيلة للسيد كنول فـتنحنح مُحذراً ، بيد أن الآخرين لم يُدركوا سريعًا مقصده ، وقبل أن يصير من الممكن دَفعُ هذه الصحـبة كان لوك الصـغير المولع بإسـداء الخدمات قـد دعا الضيف مجاملاً ليجلس على الديوان .

وبدافع من مجرد الرغبة في السؤال عن أى شيء ، استفسر لوك عما إذا كان السيد كنول قد درس هو الآخر في مدرسة ثانوية .

قال كنول : «أبدو هكذا ! لكننى أنهـيت دراستى فى السنة الرابعة . كان قد فاض الكيل بى . إن كنتم صـادقين أيهـا السادة فأجيبـونى ما الذى تفيدونه من كل هـذه الخزعـبـلات ؟ إنكم تتعـلمون لغات لم يعد يتكلـمها أحـد ، وتدرسـون الرياضيات ، وكل هذه الأشـياء ولا تعرفـون ما يكون إمـساك الدفـاتر عـلى الطريقـة الأمـريكيـة ، وأنتم تقرأون في شـيللر وجوته وكل الأسماء الأخـرى وحين يتوجب عليكم قـراءة جـدول الأسعار تبـدون وكأنكم قـد وقعـتم فى شدة . إنكم تضيعون أجمل سنوات عمركم فى هذه التوافه التى لا غناء فيها ، وحين كنتُ فى مثل سنكم ، كانت أوّل دعوى بالنفـقة قد صادفتنى - أتعرفون بالمناسبة قصة باب البيت ؟ »

تلاميذ الثانوى يحتفظون لأنفسهم بالحق فى ذكر عيوب المدرسة والتهكم بها ، لكنهم يثورون كالضوارى إذا ما أقحم أحد غيرهم نفسه فى شئونها .

هنالك صاح هانز فايفر قائلاً : «عزيزى السيد كنول ، إن لك فى هذا الشأن رؤًى غريبة . طبعًا لا علاقة للمدرسة الثانوية بالوظيفة أو كسب القوت ، والمرء ينزلق إلى هذه الدوّامة مبكرًا بما فيه الكفاية، والمدرسة الثانوية ليست للدراسة التكميلية ، فمن كان همه القدرة على الكسب السريع فحسب ومن يزن مقادير الناس وفقًا لأكياس نقودهم ورصيدهم المصرفى وحسب ، مثل ذلك الشخص لا يحتاج حقًا للتعليم فى مدرسة ثانوية ، وهو ليس أهلا لذلك على الإطلاق ، فمثله لن يستطيع أن يُدرك أبدًا أن هنالك قيمًا أخرى لا يُعبَّر عنها بالدرهم ولا بالدينار ، إنها ملكية عقلية لا يستطيع المرء أن يشتريها ولكنه لا يستطيع أيضًا أن يفقدها أبدًا . إنها تنتشل الإنسان من وحل الحياة اليومية ، وهى راحة فى أيام النعيم وعزاء ومهرب أيام الشقاء . أترى إذن ؟ لهذه الأسباب نذهب إلى المدرسة الثانوية » .

أنصت زملاؤه إليه فاغرى الأفواه ، يا لقُدرة فايفر على الحديث كالكبار أحيانًا! يكاد حديثه هذا يماثل حديث الناظر كناور فى حفلة تخرُّج.

غير أن السيد كنول لم يدَع شيئًا من هذا الحديث يوقفه عن حديثه وقصَّ حكاية باب البيت ، ثم دخل إلى ميدانه وفتح صندوق الطرائف .

كان هانز على علم بطبيعة السيد كنول ، فدائمو الترحال من أمثاله أناسٌ يبعث حالهم على الأسى ، إنهم يسافرون كثيراً ، ويجلسون القرفصاء بجوار بعضهم بعضًا سواء فى القطار أو فى المطاعم وليس لهم أى تجارب نافعة ، يضجرهم الملل ويريدون أن يتسلوا بأى ثمن ، يهرولون إلى الحانات ذات الموسيقا والملاهى السيئة السمعة ، يتلقفون النكات ويواصلون حكيها ويعدون أنفسهم آخر الأمر من الظرفاء أو حتى من أبناء النكتة .

لم يجد كنول فى واقع الأمر إلا مستمعًا واحدًا منتبهًا هو نفسه ، فلم يكن فيما قاله مبعث سرور للتلاميذ الأربعة ، كانوا يضحكون كنوع من أداء الواجب ، ويعلقون بصيحة "ياه" حتى لا يُستراب فى كونهم لم يفهموا مغزى النكتة ، واغتبط السيد كنول لأن أحدًا لم يقاطعه ولأنه لم يجد منافسًا له ، فشعر بكيانه . هكذا استمر الحال بلا انقطاع ، وكلما خانته الذاكرة استعان بنوتة دسمة وأخذ يذكر ما هو التناقض أو الفرق بين الأشياء وبعضها .

هانز كان يعرف هو الآخر أحد هذه الفروق ، قال :

" ما الفرق بين فرس النهر ؟"

كان ذلك أكبر من قدرات السيد كنول ، فاستفسر :

"الفرق بين فرس النهر و . . . ماذا ؟"

"لاشيء أكثر . الفرق بين فرس النهر ؟"

". . ."

" إنه يجرى على الأرض ، ويسبح فى الماء ، هاها" .

واصطاد السيد كنول فروقًا كثيرة من نوتته ، وما كانت هذه الفروق بالنسبة للتلاميذ الأربعة إلا كالماء فى الحلق ، لقد أوشكوا على الغرق فى الفروق ، وما عاد هانز يستطيع مزيدًا من الاحتمال ، فقال "عفوًا يا سيد كنول ، أتعرف الفرق بين النكتة الجيدة والنكتة السخيفة ؟"

"كلا" .

"هذا واضح" .

اعتبر السيد كنول أن هذه نكتة هى الأخرى ، وضحك أداءً للواجب وعاود التصفح فى دفتره ، وعندئذ بادر رودى كنيبل - الذى كان يغلى منذ مدة - بالهجوم ، لقد كان تصرفه هذا دفاعًا عن النفس .

فقال له "أتعرف الفرق بين الداخل والخارج ؟"

فمط السيد كنول وجهًا أبله ، ثم بدأ الأمر يتكشف له رويدًا ، فنهض وضم عقبيه إلى بعضهما ، وهز ذقنه بانحناءة قصيرة متعالية وولى هاربًا .

بادر هانز بالقول : "هذا ما يُسمى بالفرار فى وضع انتباه" .

زال الإزعاج ، لكن الحالة المزاجية كـانت غاية فى السوء. شربوا ما تبـقى من الجعة صـامتين وتبـادلوا مرةً أخرى شـعار مؤامـرة الغد ، ومشوا إلى بيوتهم .

* * *

كانت الحصة الأولى حصة ألعـاب ، ولأن الشمس كانت ساطعة أقيمت حصة الألعاب فى فناء المدرسة .

كان مدرس الألعاب شميـت يُفضل التمارين التى لا يستطيع هو نفسه أن يؤديـها أمام تلاميذه ، فلم يـكن يستطيع مثلاً أداء لعـبة شدّ الحبل ، ولذلك سيقوم التلاميـذ بأداء تمرين شدّ الحبل. لم يكن الفتية يبذلون أدنى جـهد ، فكان الأمر هنا مشـابها تقريبًا للحـال فى حصة الغناء لدى فـريدولين ، إلا أن الصوت لم يكن هنا على نـفس درجة الصخب .

فلم يقنعهم الهدف من هذا التمـرين ، إذ لماذا عليهم أن يشحذوا قواهم على جانبى الحبل ليبطل هذا الجـانب ما يفعله الجانب الآخر ؟ ثم إن لهم خبرة قديمة بهذا الأمر : كلما جذب أحد الطرفين بقوة أكبر ازدادت قوة الجذب المقابلة ، لم يكن فى هذا التمرين إلا إهدار للقوى . كان تصـرف التلامـيذ يدفـع مـدرس الألعـاب إلى الزّجر والتـقريع ،

لكـن ذلك كله لا يجدى فـتيلاً ، فالحـبل يتدلى مرتخـيًا بين الطرفين كأنه حبل غسيل .

فجأة يحدث شىء ما ، فجأة ينكب الفـتية على جذب الحبل كما لو كان فى ذلك غاية سعـادتهم ، إنهم ليرتكزون بأقدامهم فى الأرض حتى يتطاير من تحتها الحصى إلى عنان السماء ، وتكاد ستراتهم تلمس سطح الأرض ، ويمتد الحبل مشدودًا يشبـه فى استقامته وتر الكمان ، وينقطع من منتصفه . أو على الأقل يكاد ينقطع .

ما الذى حدث ؟

لم يكن مدرس الألعاب شميت يعرف ما حدث .

ولـم يكـن بإمكـانـه أن يعـرف ، فقد أدار ظهـره لهـم واتجه إلى حيث كانت إيفا ، ابنة الناظر الشقراء تسير فى فناء المدرسة .

إيفا .

* * *

لم تكن الكيمياء تحظى فى مدرسـة بابنبيرج الثانوية إلا بقليل من الاهتمـام ، فلم يكن قدماء الإغريق بحـاجة إلى الكيميـاء حين تألقوا وصاروا أناسًا يعترف الجـميع بثقافتهم الإنسانيـة الواسعة. وفضلاً عن ذلك فالكمياء مرتبطة برائحة النتن .

إلا أن المعلم شناوتس كان يقوم بواجبـه خير قيام ، ولم يكن من اللازم قانونًا أن يحضر معه نبـيذ عنب الذئب الذى صنعه بنفسه ويدع تلاميذه يتذوقونه ، لكنه أراد أن يبين لـهم أن الكيمياء ليست خلواً من الأهميـة العمليـة ، وكان يرجو من وراء ذلك أيضًـا مزيدًا من سـموّ المكانة حين يقـتنع تلاميذه بأنه لايسـتطيع فقط أن يُدرّس مـادته بمهارة وإنما يمكنه أيضًا صنع نبيذ عنب الذئب - نبيذ يصعب تفريقه عن النبيذ البورجـوندى(*) الخـالص. على الأقل هـذا مـا يراه السيـد الأستـاذ كراى.

جاءت اللـحظة العظيمـة ، وأخذ التـلاميذ يمرون كـقطيع الإوز واحـدًا فى إثر واحـد على المنصّـة ويتلقى كل منهم جـرعة لـتجـربة الشراب ، ثم يعودون إلى مقاعدهم ثانية .

لكن نوعًا من القلق والهمهمة والغمـغمة الغريبة بقى أكثر مما هو معـتاد فى هـذا الظرف مما ينبئ عن شىء غيـر سار ، حـتى شناوتس أصابه القلق هو الآخر . قال المعلم بلهجته المضحكة :

« فايفر ، إنك غير منتبـه ، كرّر علينا ما الذى يُفهم تحت مُسمى التخمر الكحولى ؟"

نهض فايفر . كان لابد للموقف أن ينفجر فى هذا الوقت ، قال : "التخمر الكحـولى إذن . . . أو بالأولى تخمر الكحول . . . إنه يُنتج

(*) نبيذ ينسب إلى منطقة بورجونديا بفرنسا . (المترجم)

الكحول . . . وهذا يعنى إذن ، أن الكحول ينتج التخمر . . . وهو ما يسمى بالتخمُّر الكحولى" .

"فايفر ، إنك تهذى" .

"الكحول المتخمر بدأ يهذى . . . بدأ يتحول إلى تخمّر هذيانى ، وهكذا ينشأ نبيذ عنب الذئب الردىء . . . بل هذيان عنب الذئب(*)" .

"ماذا جرى لك ؟"

"لاشىء سيدى البروفسور ، وحين يكون هذيان عنب الذئب وكذلك الكحول . . . بل الأوْلى حين يكون عُشب عنب الذئب . . . أقصد : عشب عنب الذئب المتخمر" .

"ألست على ما يرام ؟ آه ، إذن اجلس . هوزيمان ، أكمل !"

قال هوزيمان بوجه كله الجد :

"ى ى ى يستطيع المرء أن يجعل النبيذ مع أ . . أ . . أ . . أ . . أنا لا أجد الكلمة" .

"منذ متى تتلعثم ؟"

"أنا لا لا أتلـ أتلعشم إطـل إطلاقًا . لا االكِنً كل كل كل شىء يدور أمام عيعيعينى !"

(*) استغل الكاتب هنا الجناس بين اللفظتين الألمانيتين Fusel ومعناها النبيذ الردىء و Fasel – ومعناها الهذيان . (المترجم)

"أوه ، هوزيمان ، اخرج بعض الوقت إلى الهواء الطلق !"

ورفع لوك إصبعه . فقال المعلم:

"أنا لا أفهم هذا على الإطلاق، لوك ، أتريد أن تُكمل ؟"

يقف لوك . يفتح فمه ويُغلقه ، ويغُصّ حلقه ، ثم لا يأتى ببنت شفة .

"لوك ، هل ساء حالك أنت أيضًا ؟"

"جدًا . ." .

يطيش صواب البروفسور كراى ، فيأخذ فى مسح جبينه بمنديل جيبه الكبير ويكرر ذلك أكثر من المعتاد ويشحب لونه بصورة كبيرة .

"هل يوجد آخرون أصابهم سوء ؟"

الفصل كله أصابه سوء ، أثر ذلك بادٍ على الجميع. البعض لم يَعُد يستطيع الوقوف ، والبعض الآخر أخذ يُتأتئ أو يتأوّه أو يضحك ببلاهة فى الهواء ، أما غير ذوى الخبرة منهم فيكتفون بوضع رءوسهم على الدُّرج أمامهم .

أما رودى كنييل فيقدم الآن أجلّ أعماله .

يتقدم مترنحًا نحو البروفسور ويطوّق عُنقه بيديه ويصيح قائلاً :

"النبيذ - هوب - عظيم . عزيـزى شناوتس الصغير - هوب - سنشربه منك عن آخره !"

- عندئذ لم يعُد ممكنًا السيطرة على الفصل ، ويبدأ خمسة عشر تلميذًا فى الصرصعة والصياح والنعير والزعيق ، خمسة عشر فتى يترنحون ويتدحرجون فوق وبين بعضهم بعضًا حتى أن المرء لايعرف بعد ماذا فوق وماذا تحت .

يقشعر بدن البروفسور كراى. ماذا كان فى نبيذ عنب الذئب ؟ هل تكوَّن فيه نتيجة لنوع من التخمر الشديد كحول ميثيلى مثلاً ؟ أو أى نوع آخر من السموم ؟ بدأت صور من التهديد تختلط وتتداعى فى رأس البروفسور . إنه يكفر فى هذه الدقائق القليلة عن ذنوبه البسيطة التى ارتكبها على مدار ستة وأربعين عامًا هى عمره .

لم يستطع هانز فايفر أن يواصل مع الآخرين مشاهدة ما يحدث فأغمض عينيه ، وعندئذ يستجمع البروفسور كراى آخر ما لديه من قوة ويصدر التعليمات الضرورية ، ينبغى أن يتوجه الفصل بكامله فوراً إلى الهواء الطلق ، بلا جلبة ولا ضوضاء ما أمكن . ليس إلى فناء المدرسة ، وإنما إلى الشارع ، ربما حول ناصية الشارع قليلاً ، وهناك يجب أن يتنفسوا بعمق ويبقوا فى هدوء تام ، أو يتناولوا فى أى مكان فنجانًا من القهوة الثقيلة . لهذه الغاية تلقى هانز فايفر - الذى بدا أقلهم ثمالة - قطعة نقدية بخمسة ماركات .

وبكلمات لجلاجة رجى الأستاذ تلاميذه الأعزاء أن ينقهوا جيداً مما أصابهم ، وألا يدعوا شيئًا منه يلاحظ فى حصة السيد الناظر بعد الفسحة .

وعده الفصل بعمل ما نصح به وساروا مترنحين .

وعند ناصية الشارع ازدادت أولاً النقود الخاصة بالمشروع من خلال التبرعات التطوعية من خمسة ماركات إلى أحد عشر ماركًا وخمسة وسبعين فينجًا . كان هذا المبلغ كافيًا لإجراء نوع من التبضُّع المبكر والمتعجل والمكثف تبعًا لذلك .

لم يكن من المستبعد تمامًا أن يحل نوع من السُّكر الحقيقى إلى حد ما محل السَّكرة المزيفة لدى بعض المتحالفين .

حينما دخل الناظر كناور إلى فصل السنة النهائية بعد الفسحة أحاطه صمت كصمت الموتى ، فظن لبرهة أنه ضل طريقه ، ودارت أمام عينه صورة للبؤس الإنسانى . كان تلاميذه الأقوياء متدلين بين مقاعدهم كأنهم زكائب طحين ، بدا بعضهم نائمًا وشخَص إليه آخرون بأبصارهم فى بلاهة ، وجعل فريق ثالث يرسلون ضحكاتهم فى الهواء كالعُبطاء ، ولم يقف منهم أحد ، ولم يتحرك أحد .

فَزِعًا يستحضر كناور فى ذهنه أن الكوليرا تودى فى المتوسط بحياة ٣١٥٤٩٠ من الهنود ، وأن الطاعون يذهب بحياة ٢٢٨٠٢٣ منهم، وأن حوالى خمسة ملايين منهم يموتون بالملاريا والإنفلونزا والتيفود .

"هوزعان ، ماذا هنالك ؟"

"ترا لا لا" .

"يا للسماء – هل أكلتم شيئًا خبيثًا ؟"

"ديد لدوم".

" بالعكس".

"بل شربنا شيئًا طيبًا ، سيدى الناظر . أهلاً ومرحبًا !"

"حقًا ، سيدى الناظر ، لقد شر . . شربنا شى يئًا شى. . يئًا . . شى. . يئًا ما !"

"ماذا شربتم ؟"

"بما أننا ألمان جيدون ، فقد شربنا – هوب – نبيذًا ألمانيًا – هوب – جيدًا".

"سيدى الناظر ، أتسمح لى بالخروج ؟"

"لا مـــانـــع – ولكن مع ذلك أريـد أن أعـــرف ، من أعـطاكم النبيذ؟"

"سيدى الناظر ، أتسمح لى بالخروج ؟"

"نعم – من أعطاكم النبيذ ؟"

"كان لابد أن نشربه فى حـصة البروفسـور كراى . أوه إن حالى فى غاية السوء . هل لى أن أخرج ؟"

الجميع حالهم بالغ السوء ، والجميع أرادوا الخروج .

كُلِّف أكرمان ، صاحـبُ الكثير من المهمات الشرفـية ، بإحضار السيد الأستاذ كراى .

كان كراى جالسًا فى حجرة المؤتمرات يصحح الكراسات ، أو كان على الأقل يتظاهر بهذا ، بينما يكاد بدنه فى الواقع يعرق دمًا .

يأتى كراى ومعه زجـاجة نبيذ عنب الذئب وسعتـها لتر ، ويقول مبـاشرة وفى جملة واحـدة : "كل واحد نال جـرعة ضئـيلة فقط" . وسأل السيد المدير إن كان يريد أن يُجرّبه ؟

السيد المدير يرفض بكلتا يديه ويتجه بالخطاب إلى الفصل :

"تذهبون على الفـور إلى بيوتكم وتستلقـون فى فراشكم ، ولن يكون الحال سيئًا . وإذا لزم الأمر عليكم باستدعاء الطبيب ، ويمكنكم أن تبعثوا إيصالات أجر الطبيب إلى المدرسة" .

هكذا ظفر التـلاميذ ببغيـتهم ، فانسلّوا بهدوء وعلـى عجل نحو الباب فخرجـوا وقد انتابهم شعور رهيب ، وما كـادوا يبلغون الشارع حتى أطلقـوا العنان لتهليلهم ولم يكن بـينهم وبين المدرسة إلا مسـافة صغيرة .

لم يلاحظوا وهم فى غـمرة حمـاسهم أن هانز فـايفر كرَّ راجـعًا وتسلل إلى الدور العلوى من المدرسـة ، وهناك وقف أمام باب قـاعة الدرس ، واستـرق السمع للدويتـو الدائر بين الناظر وشناوتس ، ولم يكن دافـعه إلى ذلك أبـدًا هو الشمـاتة أو دواعٍ أدبيـة ، فلم تكن فى نفسه رغبة فى ذلك، كلا ، إنما أخذ ضميره يؤنبه . وحق له أن يفعل.

لم يستطع هانز أن يـفهم كل ما دار بينهـما ، لكنه استـمع فقط كيف أن صوت البـروفسور كراى كان يزداد خفـوتًا بينما يزداد صوت الناظر عنفوانًا.

"السيد الزميل ، لقد سممت لى تلاميذ السنة النهائية" .

"ما أردت إلا أن أبين لهم أن التخمر الكحولى . . ." .

"السنة النهائية الجميلة سممتها لى !"

"كل واحد أخذ جرعة ضئيلة وحسب" .

"نعم وأنا أقول سممتها . إننى أنتظر مـبدئيًا تقريرك الكتابى عما حدث أيها الزميل . أما ما يحدث بعد ذلك فسوف . . ." .

عندئذ كان هانز فـايفر داخل الحجرة ، كـان ما يعتمل فى نـفسه الآن هو أن يتصرف كتلميذ حقًا ، تلميذ حتى النخاع ، وهو فى ذلك لم يعُد بحاجة لأن يمثل . لقد صـار إشفاقه على شناوتس المسكين بلا حدود حتى أوشك أن يبدأ فى العويل من أجله .

ابتدره الناظر بالسؤال :

"فايفر ، عمّ تبحث هنا ؟"

"أردت أن ألتمس الصفح" .

"لماذا تلتمس الصفح ؟"

"نعم ، وها هى ذى الماركات الخمس مرة أخرى" .

"أية خمس ماركات ؟"

"هل لك أن تعطينى الباقى ؟"

شخص المدير إليه ببصره مذهولاً ، وقال : "أترى أيها الزميل ، إنه يهذى" .

"أنا لا أهذى مطلقًا ، إنما فعلنا ما فعلناه بسبب الواجبات الكتابية التى نؤديها فى اللغة اليونانية ، التى تبدأ حصتها فى الحادية عشرة ، وأنا الذى دبَّرت هذه المكيدة ، ومن المؤكد أن ذلك لا ينبغى أن يتكرر مرة أخرى" .

مَرَّت برهة طويلة حتى أدرك كلا السيدين حقيقة ما قاله هانز ، وبعد ذلك مرَّت برهة أخرى طويلة حتى أدركا أنهما قد أدركا ، وعندها نظرا إلى بعضهما نظرة من لا حيلة له ، فلم يحدث شىء مثل هذا من قبل، ولم يوضع ذلك فى الحسبان عند إعداد خطة الدراسة ؛ لذلك شرع السيدان يتدبران الطريقة التى ينبغى أن يتصرفا على أساسها كمربيين ، هل يصبا على رأس المجرم القاموس الكامل لأقصى درجات الغضب التربوى ؟ أم هل ينبغى معاقبته بإهانة لا حدود لها ؟ أم ما وسيلة التعبير عن الاستنكار الشديد الذى يكون خليقًا بالجُرم ؟ لذلك كله لم يُتخذ فى البداية أى إجراء .

وأخيراً وجد الناظر كناور الكلمة الفصل ، فلأجل ذلك هو ناظر :

"فايفر ، أحضر الفصل فوراً إلى هنا !"

لكن الفصل كان قد ولّى وابتعد فى كل واد .

لذلك روعى أن يسير كل شىء سيره الطبيعى .

فى عصر ذلك اليوم تلقى هانـز خطابًا من ماريون ، وكان يعرف ما فـيه مـسبقًـا ، ففى خطاباتهـا دائمًا نفس الشىء ، حـيث تبين له بطريقتهـا الباردة الفـارغة أنه يكفيه مـا كـان ، ثم إن لديـه فى النهايـة ما يفعله غير مجرد التسكع كـتلميذ فى مدرسة ثانوية بمدينة صغيرة . كان الخـطاب هذه المرّة سمـيكًا على غيـر العادة ، فلم يجـد هانز فى نفسه الشجـاعة لأن يفتحه ، فدسه دون أن يقـرأه فى جيبه العلوى ، كما يفعل المرء عادة بخطابات المحـامين أو المورّدين للبضائع ، وفضلاً عن ذلك فلم تكن لديه الرغبة فى إفساد مزاج صنعه نبيذ عنب الذئب ، خاصة فى هذا اليوم الذى هو بطله .

أكان واهمًا ؟

حين التقى الصحاب بعد الظهر عند النهر للاستحمام ، أراد هانز أن يجنى حصاد انتصاره ، لكنهم استقبلوه ببزود ثلجى .

و تفسيـر ذلك بسيط جداً ، فكونه صاحب الفـكرة أمرٌ صار إلى نسيان ، وعلى كل حال فنادراً ما تجد الأفكار من يقيم لها وزنًا ، لكن

الشيء الذى لا يمكن نسيانه هو أنه تخاذل فى نهاية المطاف ووشى بالفصل .

حاول هانز أن يوضح لهم الضرورة الأخلاقية لتصرفه ، لكنهم لم يلقوا إليه سمعًا حتى رودى كنيبل بدا مُزْوراً عنه ، وهمهم إرنست هوزيمان متذمرًا بأقوال لا وُدّ فيها .

ولئن كانت العلاقة بين هانز فايفر والرفاق قد شابها الفتور ، فلقد توثق الرباط بينه وبين لوك بنفس الدرجة ، فحين كانا مستلقيين على الرمال الساخنة معًا ويتركان للشمس أن تلوح بشرتيهما بطيف من السمْرة استجمع لوك الصغير شجاعته وحكى له عن حبه الكبير للوته فون هالباخ ، وكان هالباخ هو رئيس الدائرة(*) .

قال له هانز : "إنها أطول منك على الأقل بمقدار رأسين" .

"أنا أفضل النساء الطويلات" .

"هل هى إذن لطيفة معك إلى حدٍ ما ؟"

"لطيفة ؟ كيف تكون لطيفة ؟"

"أقصد ، هل تبالى بك ؟"

"أنا لا أعرف ذلك ؟"

(*) رئيس الدائرة هو أكبر الموظفين فى أصغر وحدة من وحدات الإدارة الحكومية . (المترجم)

"أتراها كثيراً ؟"

"طبعًا ، كل يوم" .

"يا للمصيبة !"

"كل يوم ، حين تخـرج من المدرسة . بالأمس مـررتُ بجوارها تمامًا وأنا أجرى" .

"مررتَ بها وأنت تجرى ؟"

"أعتقد أنها لم ترنى" .

"نعم ، ألا تتحدث إذن معها ؟"

"يالك من مجنون" .

تفكّر هانز فيمـا إذا كان ينبغى عليه أن يصرف لوك الصـغير عن هذا الأمر الذى لا أمل فيـه ، لكنه تركه وشأنه ، فقـد كان يعرف أن الحب التعس يجلب السعادة أكثر من الحب السعيد .

"أنت - ياهانز !"

"نعم ؟"

"هانز ، أعتقد أننى لا أروق للنساء" .

"كيف توصلت إلى هذا ؟"

"هذا مـا أراه وحسب . ثم انظر ، فـفى الفـصل أيضًا لا أحـد يطيقنى حقًا" .

"وأنا ؟"

"ربما فيمـا عداك . رغم أننى لا أسىء إلى أى أحد منهم بشىء . . فـأنا لطيف مع الكل وأشارك فـى كل لون من العبث ولا أشى بأحـد مطلقًا. كيف يحدث هذا فى واقع الأمر ؟ "

كان هانز يعرف بدقة مفزعة كيف يحدث . لكنه اكتفى بالقول :

"لا أعرف" .

"أعتقد أنهم يعتبروننى جبانًا" .

"ممكن . وأنت لا تبدو قويًا جدًا على كل حال" .

"كـلام فارغ . فـالشـجاعـة يمتلكهـا المرء فى رأسـه وليس فى عضلات ذراعيه ، لكن من يمشى مثل هرقـل يسهل عليه إبداء الشجاعة . ولكن ، أتعـرف ياهانز ، إننى أود أن أبين لهـؤلاء فى الوقت المناسب ما تكون الشجاعة ، ولابد أن يتتابهم العجب . أود أن أقوم ذات مرةً بعمـل مـا لكنـه سيكـون عـملاً فى غايـة الروعـة . أتعرف، شىء لا يُضارعه ما فعلته أنت بنبيذ عنب الذئب . شىء تتحدث عنه المدينة عن بكرة أبيها" .

"لا ترتكب حمـاقات يا لوك . ودعْ للآخـرين أفعـال الرجال ! فلست كفئًا لها!"

بعد الاستـحمام ذهب لوك الصغير ليندسٍ فى مـلابسه ، وبمجرد أن فعل ذلك أخـذ وجهه بالتدريج تـكسوه الزٍرقة وتسرى فى جـسده

البرودة ، والْتَوَتْ سحْنته تعبيراً عن ألم شديد، فهبّ هانز فايفر لنجدته، واتضح أن التلاميذ قد دججـوا سروال لوك وقميصه بالدبابيس ، ولم يكن ممكنًا استخراجها جميعًا من ملابسه قبل أن يمر وقت طويل . ثم إنها لم تُستخرج جميعًا مع ذلك .

وفى الطريق إلى البيت عاد هانز فايفر إلى التفلسف :

"عليك أن تدرك تمامًا يا لوك أن الإنسان بطبيعته فظ وبلا شفقة، تمامًا كالطبيعة نفسها . وحتى الأطفال ينطبق عليهم ذلك أيضًا . . إنهم يعذبون الحيوانات وينتزعون أرجل الذباب الصغير ويشرّحون أجسام الديدان ولا يرون فى أنفسهم مع ذلك شيئًا من السوء . إن الشفقة هى نتاج حضارى يُربَّى فى الإنسان" .

"ولكن تلاميذ الثانوية ليسوا أطفالاً" .

"هذا أمر فيه جدل ، واسأل عن ذلك مُعلمينا . ثمّ إن التلميذ الفرد لا يضيرك بشىء ، لكنه دائمًا حين تتكون الحشود وينضم المرء إلى جماعة ، هنالك تتحرك غرائز كامنة. انظر إلى الاحتفالات الشعبية والثورات وقضايا الإعدام بلا محاكمة لتعرف ، وفضلاً عن ذلك فكل إنسان يشعر بالحاجة لأن يفرغ شرّه ، أو على الأقل حالته المزاجية السيئة فى جهة ما. كثيرون يحتفظون لأنفسهم بكلب ، وكان الأمراء فيما مضى يتخذون مهرّجًا للقصر ، ووفقًا لمقتضى قاعدة تحقيق

أقل قدر ممكن من المقاومة يتخذ المرء لهذا الغرض شخصًا ضعيفًا بقدر الإمكان ، وسيئ الحظ في هذه المرة هو أنت لكونك أضعف من في الفصل" .

"ولكن ليس من الناحية العقلية من فضلك" .

"وهذا هو ما يزيدك شقاءً ، فهم لا يطيقون مطلقًا أن يتجاسر ضعيف مثلك ليكون ذكيًا ، وسوف يثبتون للضعيف دائمًا أن ذكاءه لم يُفِدْه فتيلاً ، ولكن أبشع ما في الأمر قد جاء الآن دَوْره ، أيها الفتى الطيب : فحين تبدأ المضايقة مرّةً فإنها تصير موضةً ، وعندئذ يشارك كل واحد فيها ، دون أن يعرف كيف ولماذا . تستوى في ذلك الحياة العامة مع الشئون الصغيرة أو الخاصة" .

"هانز ، سأفعل الآن وفوراً ما وطّدت العزم عليه" .

"ماذا ؟"

"لا أعرف بعد . ولكننى سوف أجد ما أفعله" .

* * *

في اليوم التالى مَثُل هانز أمام أمين المدرسة ليؤدى عقوبة الحبس المدرسى .

كان وجه هانز مضيئًا من فرط السعادة ، فهو يَعُدُّ الحبس المدرسى صميم كل رومانسية التلمذة ، وكان زهوه واضحًا لكونه حقق فى

الأسابيع القليلة لوجـوده فى المدرسة مثل هذا النجـاح البادى لكل ذى عينين .

قـاده الأمين إلى الدور الأرضى لأحد الأجنحـة الجانبـية . كـان الأمين يُدعى كليمكه ، وكان رجلاً كثير الضجر ، كان يُعد نفسه أهم شـخص فى المدرسة ، أو أهم كـثـيراً من المدرسين على كل حـال ؛ فالمدرسون فى المدرسة كثيرون ، أما هو فالوحيد من نوعه فيها ، ثم إنه كان يستطيع القيام بأعمال النجارة وتبطين الحوائط بالورق .

أمام باب غرفة الحبس دَسَّ هانز يده فى جيبه وقال له :

"هاك ماركين . أحضر لى بعض زجاجات البيرة !"

"المشروبات الكحولية ممنوعة - هل معك ما تُدخنه ؟"

فردَّ هانز وهو يُلوِّح بعلبة سجائره الممتلئة : "الحمد لله!"

فقال الأمين : "التدخين أيضًا ممنوع" .

ثم صودرت علبة السجائر منه أيضًا .

"كاراك" كان هذا هو الصوت الذى أصـدره المفتاح الصدئ عند فتح باب الحجرة. بعد ذلك كان هانز فى الحبس .

رائع ، لديه الآن ثلاث سـاعات من الزمن ليتـعرف جـيدًا على زنزانته .

لم تكن حجرة الحبس إلا مخزنًا فارغًا للأشياء المهملة ، إنها مكان قفر وبائس بصورة تجل عن الوصف ، أربعة جدران طليت فى جفاء بالجير ، لم يجد هانز عليها أثرًا لتعاليم الحبس المدرسى الشهيرة التى جاء هانز إلى هنا وفى ذهنه أن يستخدمها فى دراسات نفسية وفولكلورية . كانت قطعة الأثاث الوحيدة الموجودة مقعدًا خشبيًا صغيرًا .

سحب هانز دفتر ملاحظات وقلم رصاص وتأهّب لكتابة مقال غاضب عن الرومانسية الكاذبة ، وبعد كلمات ثلاثة قصف سن القلم من شدة سخطه ، ولم تكن معه مطواة ، لذلك أخذ يُنشئ قصيدة يتغنى فيها بقيمة المطواة ، وأراد أن يسجل القصيدة ، لكن سن القلم المقصوف لايزال فى حاجة إلى مطواة ، وتساءل هل يمكن أن يُحضر له الأمين قلمَ رصاص ، مؤكدٌ أن هذا لا يُعارض لائحة المدرسة . بحث هانز يمنةً ويسرةً وبحث أعلى وأسفل ، لكنه لم يجد جرسًا ، فخدمة المحبوسين لم توضع فى الاعتبار .

قال هانز لنفسه صائحًا : "قذارة !" ثم جلس على المقعد الصغير مُسندًا مرفقيه على رُكبتيه ورأسه على راحة يده . حاول أن ينام بالطريقة التى يفعلها المرء فى الفصل ، لكنه لم ينجح فى ذلك ؛ إذ كانت تعوزه لذلك الجلَبة الممتعة لصوت مدرس يشرح درسًا .

هذا هو إذن الحبس المدرسى ! إنه لحماقة ، خُدعة مُدبَّرة .

حـاول هانز أن يطلق علـى الأقل العنان لأفكاره ، فـســرح فى تفكير عن ذاته وعن العالم ، وثاب إلى حقيقة نفسه.

لقد حقق الحبس المدرسى الغرض منه .

فقد أخـذ هانز يعيد حـساباته : انتهت حادثة نبـيذ عنب الذئب بعودة نفسه إلى الجـانب الخيِّر فيها ، وكانت مرآة الإجـابة الصوتية قد دخلت حيِّز النسـيان ، وكان من الممكن أن يخترعهـا شخص آخر من جديد ، وظل أمـر الحذاء المختـفى مجهـول الفاعل ، الشىء الوحـيد الذى ظل بإمكانه أن يُبهِر به الآخرين هو قبضة المصارعة اليابانية . قال لنفسه ، هذه حال الدنيا ، عضلة الذراع القابضة تتغلب على فصّ المخ الأكبر بنسبة عشرة إلى واحد !

لقـد ملّ هذا كله ، وأصبح عـارفًـا بدولاب الحيـاة المدرسيـة ، وبدأت السيـدة فيندشـايد تمثل بالتدريج مـبعث ضـيق له ، ثم إنه لم يحدث شىء فيما عدا ما كان ، وعمّا قريب يقام الحفل الصيفى لاتحاد السباحة والتجديف ، وسيظهر فـيه جميع الأعيان ، وللأعيان بنات ، وربما أيضًا بنات حـسناوات ، ولكنهن لن يكُنّ مناسبات له هو تلمـيذ الثانوى الصغير ، ولا مناسـبات له أيضًا ككاتب مُترف ، بل وبالأوْلى كعريسٍ هارب .

وبينما كـان هانز جالسًا القرفـصاء فى محبـسه ينفس عن طواياه الشـرية لأنه لا يجد شـيئًـا أفضل من ذلك يفـعله – إذ به يعى همـسًا وضحكًا صبيانيًا فى الخارج عند الممر .

إن من يعتـريه السأم يُرحب بكل نوع من أنواع الضـوضاء ، لذا فقد أرهف هانز سـمعه استراقًا ، فأدرك أن مـا يتناهى إليه من الخارج هو أصوات أنثوية ، أصوات أنثوية وَهّاجـة . أعاملات النظافة ؟ كلا والله ، ماهن بعاملات النظافة ، فقد كُنّ أعلى من ذلك درجة .

وسمع هانز حوارهن :

"ألا تردن أن تعرفن ما هى حجرة الحبس الحقيقية ؟"

"أهى الأخرى مُزوّدة بقضبان ؟"

"إذا كنا محظوظات فسنجد واحدًا بها" .

"محبوسًا ؟ مَرْحَى !"

اقترب صـوت الضحكات ، وتوقف أمام الباب . شـعر هانز أنه يُراقب ، فدار حول نفسه ولاحظ كـوّةً صغيرةً تُطلّ منها بالتناوب عين عسليـة ، ثم عين زرقاء ، ثم عين ليس لهـا لون مُحـدد . أخذ هانز قطعة من الورق ولصقها بلعابه فوق الكوّة ، فدُفعت الورقة من الخارج وسقطت ، وعاودت العيون النظر بـالتناوب مرةً أخرى : عسلية ، ثم زرقاء ، ثم غير ذات لون ، ويتخلل ذلك وشوشة وضحك .

العيون التى تُطل من قناع هـى عيون شبحيـة ، لكن العيون التى تحملق فى إنسان من خلال كُوَّة فهذه يمكن أن تؤدى إلى الحنق الشديد ،

يضطر هانز نفسه رغم ذلك إلى الهدوء . قال لنفسه إنه كالحيوان الحبيس ، كالشمبانزى الذى يجب أن يدع نفسه ليحدق الناس فيه بأنظارهم وهو داخل قفصه .

يعود إلى المقعد حازمًا ويدير ظهره للكوّة .

ولم ترعوِ البنات عندئذ . وعندئذ بالذات .

"أنت يا هذا ! هل أنت صاحب مكيدة نبيذ عنب الذئب ؟"

"لقد فعلتها بمهارة" .

"أتشعر بالسأم حقًا ؟"

"ألا تريد أن تتمشى معنا بعض الوقت ؟"

"دعْه ! فليس عنده اليوم وقت" .

كان إدراك البنات لحقيقة أن بينهن وبين الفتى الذى يُحدثنه بابًا موصدًا مدعاة لجرأتهنّ .

لم يكن هانز على بيّنة مما إذا كان ينبغى عليه أن يتصرف ككاتب أو كتلميذ فى الثانوية ، فصاح مُحْنقًا : "فتيات عبيطات !" ولم يسعفه ذهنه بأفضل من ذلك .

وبدا أن لما قاله أثرا ، فلم يَعُد ثمةَ شىء يُسمع فى الخارج . كان ذلك طبعًا كوميديا مثلتها البنات ، فهن إنمًا أردن أن يعابثنه بإثارة القلق

فى نفسه ، وفعلاً صاح صوت بعد دقيقتين مرةً أخرى :

"أنت !"

فقد هانز روح الدعابة. إن اتخاذ امرئ لا حول له مادةً للهزء أمر يُحزن النفس ، وطرأ على باله حال لوك .

"اسمع - أتراك تريد سيجارة ؟"

وبالفعل بَدتْ من الكُوَّة سيجارة ، فقفز هانز وأراد أن يكبشها ، لكنها كانت قد سُحبت من الخارج .

"لا يجوز لك أن تدخن مطلقًا ، فهذا محظور فى الحبس . لكننا يمكن أن ندخن أمامك بعض الشيء" .

أعمل هانز فكره . تُرى أى نوع من البنات هؤلاء ؟

وبينما هو يفكر ، ظهر فمٌ فى الكوّة ، ونفثت شفتان مضمومتان سحابة دخان غليظة إلى داخل القاعة ، ثم فعل فمٌ آخر نفس الشيء، ثم فمّ ثالث ، واستمرت الشفاه المضمومة تنفث الدخان بالتناوب . فمٌ يشبه صورة القلب ، وفمّ على هيئة ثمرة الكرز، وثالث على هيئة القُبلة .

وسرعان ما امتلأت القاعة الصغيرة بالدخان .

هلل صوت فى الخارج قائلاً : "إيفا ، سيأتى والدك الآن حتمًا إذن فسيعاقب التلميذ بالحبس مرةً أخرى لأنه دخن السجائر" .

لم يكن هانز يخشى مجيء المدير كناور كثيراً ، ولكن استعراض الشفاه هذا صار بالتدريج فوق طاقة احتماله .

" سيداتى ، إنى أحذّركن ! "

ولم يُجدِ التحذير مع السيدات ، فقد زَمَّمْنَ شفاههن أكثر ونفثن الدخان بهمة أكبر ، فم كالكَرْزَة، وفم كالقلب ، وفم كالقُبلة .

قال هانز فى نفسه : لقد فاض الكيل ، وقبع خلسةً خلف باب الحجرة وأخذ فى الانتظار ، وهو متكوّر فى وضع استعداد للوثب كأنه فهد ، وفى اللحظة التى عادت فيها إحدى الفتيات وأدخلت فمها فى الكُوّة مَرّةً أخرى ، كان هانز قد فعل الشىء ذاته من جهة الداخل ، وشعر بشفتين فوق شفتيه. قلبٌ ، أم كرزة ، أم قُبلة ؟

فى مساء ذلك اليوم الذى لا تهمله الذاكرة كتب هانز الخطاب التالى :

"أعز الناس ماريون ، أشكرك على خطاباتك ، لكننى لا أستطيع أن أعود الآن تحت أى ظرف من الظروف ، فحالى هنا فى غاية الروعة ، لأن إعجابى بالسيدة فيندشايد يزداد باستمرار ولأن هنا أحداثًا كثيرة تعجبنى . تعرفت اليوم على ابن مدير مدرستنا ، إنه فتى مثير ومضحك ولطيف إلى حدّ الفظاعة،ربما ألتقى به مراراً.

مع إخلاصى

حبيبك هانز"

عند كلمة "إخلاصى" استعصت الكتابة على القلم ، لكن ذلك لم يُغن عنه شيئًا .

* * *

حدث لهانز تغير غريب ، فقد أصبح مختالاً بنفسه ، وفجأة لم تَعُد بزات الفتيان الجاهزة ملائمة له بصورة كافية ، فشرع يُفصِّل فى بابنبيرج بزات غيرها ، ولم يكن تفصيلها مُحكمًا كما يفصِّل له حائكه فى برلين ، لكنها كانت لائقة بالآدميين على كل حال ، ثم إنها لم تكن قصيرة الردنين ، واشترى هانز لنفسه كابًا مدرسيًا جديدًا ذا صنعة تدل على الترف ، وأنفق وقتًا كبيرًا ليجعل فى حافته الثنيات التى كانت تدور بها الموضة فى ذلك الوقت ، وعاود استخدام نظارته الباغة ، وصار يحلق ذقنه مرتين فى اليوم وهو إجراء غير معتاد من تلميذ بالثانوى . وكان يقف بالساعات أمام المرآة لكى يمشط شعره القصير الجموح إلى الخلف بفضل فرشاة صلبة وكثير من الدهان ، واشترى لنفسه فوق ذلك عصا تنزه متوثبة ، عبارة عن عود من الخيزران مزوَّدة بحلقة فضية . فى كلمة واحدة : أصبح هانز من بين التلاميذ مولعًا بالموضة ، حتى لقد صار منظر روزن الطويل باهتا إلى جانبه .

لم يبق هذا التحول خافيًا على عين الأمومة لدى السيدة فيندشايد ، ولم تكن هى مرتاحة إليه أبدًا "ليس من دواعى السرور أن يصبح الأطفال مختالين فجأة . لقد بدأ ولدى هو الآخر يصير هكذا" ،دُهش

زملاؤه وأخـذوا يتغامـزون عليه ويتـهامسـون : "آها ، إنه يأخذ فى تلميع نفسه شيئًا فشيئًا" .

وفيما عـدا ذلك جعل هانز يبدى أيضًا بشائر حـضارية جديدة ، فصار فى المقام الأول كسولاً .

حدث ذات مرة أن أعد الدرس إعـدادًا جيدًا ، لكنه لم يكن هو الدرس المطلوب ، فـغضب لذلك أشـد الغضب ، وقـرر أن يحرص على ألا يتكرر ذلك مرة ثانية ، ومرة أخرى أعدّ نتيجة لغفلته الفادحة ترجمـة مقررة لـيوم الأربعاء ظنهـا ليوم الثلاثـاء ، وعندما أدرك هذا تملكته موجة غضب ومزّق ما أعدّه تمزيقًا .

لقد نشـأ لدى هانز بالتدريج نظام مُدبّر بذكاء لممـارسة الكسل ، فأخـذ ينجز الواجبات المنزليـة كليةً أثناء الحصص المدرسـية ، مستـترا خلف ظهر من يجلس أمامه، بل وكان ينجزها إذا لزم الأمر أيضًا أثناء الفسحة فى مكان جـيد التهوية ، أما إذا قُدّم لأى سـبب موعد إحدى الحصص فإنه لم يكن يصاب بالحيرة رغم ذلك ، لأنه كان يأخذ عندئذ عُلبة ألوانه ويـدهن وجهه بالزنْجـفر(*) بصورة شـائهة ويسـتأذن فى

(*) مـادة حمـراء ضاريـة للصفـرة تستخـدم فى التلويـن ومصنوعـة مـن خـام الزئبق . والكلمـة فى الألمانيـة Zinnober تسـتـخـدم فى اللغـة الدارجـة كـذلك بمعنى لغـو الحـديث . (المترجم)

الذهاب إلى البيت بدعوى إصابته بالرعاف .

أما الواجبات التى تؤدى فى قاعة الدرس فكان ينقلها من لوك الصغير ، وكان كثيراً ما يحصل على درجة أفضل من درجة لوك نفسه ، الأمر الذى لم يتولد بشأنه لديه أى عجب ، فمعلوم لديه ككاتب أن الصورة المنتحلة لها غالبًا أثر أكبر مما للأصل ، ولقد ارتفعت مكانته فى الفصل ارتفاعًا كبيراً ، فلم يعد ينعت بالجديد بعد. لقد أصبح واحدًا منهم .

وتراجعت أولوية العمل الجماعى لديه ، فكلما أتى زملاؤه فى الجماعة إليه ، وجدوه قد فرّ خارجًا أو كان يتأهب لذلك ، وما من سبيل لإثنائه عن ذلك .

"إلى أين ؟ هل نأتى معك ؟"

"كلا ، دعونى وحسب . ." .

"هكذاا! . . إذن نرجوا لك وقتًا ممتعًا" .

* * *

كان الناظر كناور - كما سبق ذكره - يُمارس حياة أسرية مثالية ، وأبرز ما يدل على ذلك هو عصر يوم الأحد ، حين كان يتمشى مع حرمه وابنته إلى مواطن الخضرة .

فى بعض الأحيان كان البروفسور كراى ينضم إليهم ، فمن ناحية

كان البروفسور كراى يستحق هذا التشريف لكونه مُدرسًا فاضلاً ، ثم – وهذا هو السبب الأساسى – لأن السيدة حرم المدير كناور تُعدّ ذلك أمرًا صحيحًا .

وكان البروفسور كراى يعى بلا ريب قيمة هذا التشريف ، ويؤكد هذه الحقيقة من خلال ردنجوته الرهيب ووقاء ساقيه الأبيض، ويؤكد حالته المزاجية المرتفعة بقبعة صغيرة جريئة من الفراء ذات حافة منثنية فى مجون ، ويؤكد فوق ذلك حبه للطبيعة من خلال قرنفلة فى عروة الردنجوت غمر ساقها فى أنبوبة اختبار مليئة بالماء مخبأة خلف العروة. كان هو الذى اخترع هذه التقليعة وكان فخوراً إلى حدٍ بعيد لأن كثيرين قلدوه فيها من بعد .

وكانت هيئة إيفا هى الأخرى تُعَدُّ بما يتفق وهذا المظهر ، فكانت ضفيرتاها المرحتان تختفيان تحت القبعة، وتبدو حقيبة يدها فى صورة محترمة ، ولم يكن للمظلة أن تغيب هنا أيضًا عن يدها. فكانت تبدو مفعمة بالحياة مثل عصر يوم الأحد .

كان كراى ، والناظر كناور ينطلقان فى المقدمة ويستغرقان فى حديث عن شئون العمل ، وغالبًا ما كان الحديث يتطرق إلى هانز فايفر وعندئذ يُغذّان الخطى بلا قصد منهما ، ويتسارع إيقاع سيرهما لدرجة تقطع أنفاس السيدة حرم الناظر ، لذلك كانت تضمر ويطرق منطقية ملتوية حنقًا خفيًا على التلميذ المذكور .

كانت النزهة تمتد بطول سور المدينة القديم مروراً ببوابة هكستور(*) ، وهذه المنطقة تمثل الجزء القديم من المدينة ، المنازل هنا عجيبة، فهى متعرجة ومحاطة بمداخن الأفران فى صورة شوهاء ، فبدت كأنها أعشاش السنونو ملتصقة ببقايا سور المدينة القديم ، وثمة منازل أخرى بدت منطلقة وواثقة تمتد منها أسقف جمالونية طويلة ، مدت على الجانبين حتى هبط ارتفاعها لتصبح فى متناول اليد ، ولأن اليوم هو يوم أحد ، فقد أخرج الناس المقاعد إلى الشارع وجلسوا عليها متخففين من ستراتهم .

ثم يقطع الركب طريق النهر لآخره. فى زمن مضى كانت الجياد تسحب هنا مراكب البضاعة عكس تيار الماء ، الآن صار المكان متنزها للمواطنين وقد خرجوا فى زينتهم .

لم تكن الحركة الملاحية فى النهر كبيرة ، ثمة مراكب سحب طويلة تتسكع مُوحَشةً على الضفة أو تتقدم نحو المرسى مراعاة ليوم الأحد ، والمركبة منها تسع حوالى عشرة آلاف طن ، تذهب محملة بالفحم والحديد والحبوب والجير ، وتعود بالبترول والرنجة والدهون والسماد ، قمرة البحارة فى مؤخرة المركب مطلية بالأخضر والأبيض ، وعلى حبال الغسيل ترفرف فى سعادة ملاءات الأسرّة وسراويل الأطفال ، والبحَّار جالس فى الشمس يدخن ، وزوجته تقشر البطاطس بكميات هائلة ، والصغير يلعب وهو مربوط إلى حبل طويل

(*) تعنى بوابة الجنّيات . (المترجم)

لئلا يتـجاوز متن المركب ، قـد يبدو هذا مـثيـراً للضحك ، غـير أنه تصرف عملي .

كل هذا لا يلفت نظـر المدير كناور ، والأولى أن نقـول إنه ليس لديه وقت لينظر ؛ لأنه يجب أن يرفع قبعتـه محييا بلا انقطاع ، فكل واحد هنا يعـرفه ، وكل واحد يُسـعده أن تتاح له تحـية الرجل الودود المحترم ، ولذلك فقبعته لا تهدأ .

لم تكن إيفا ذلك اليـوم فى حالتهـا المعتادة ، فـقد كانت تشـعر ببعض الضـيق من قبعة يوم الأحـد وتسريحة يوم الأحد وفـستان يوم الأحد وحقيبـة يد يوم الأحد ، ولم يكن يُرضى ذوقَها فى المقام الأول أن تُقدَّم إلى أهل بابنبيـرج عامّةً والبروفسور كراى بصـفة خاصة وهى على هذه الهيئة . لكن ماما كناور كانت ترى ذلك صحيحا .

قالت الأم لإيفا : "إيفا ، يجب أن تولى السيد البروفسور بعض الاهتمام ، فلقـد جاء معنا أساسًـا من أجل ذلك ." ثم تقطع حديث زوجها قائلة له : "إرنست ، دع الطفلين يمشيـان أمامنا !" عندئذ يتغير تشكيل القافلة . فيمضى "الطفلان" فى المقدمة ثم يأتى السيد والسيدة كناور بعدهما على مسافة قُدِّرت بدقة .

البروفسور كراى يسـبح الآن فى السعادة ، إنه رجل شهم ، وآية ذلك أنه يحمل عن السيدتين مـعطفيهما ومظلتيهما وحـقيبتى يدهما ، وكـان مسـتعـداً لأن يحمل كل شـىء لو طلب منه ذلك ، لقد أخـذ

العرق يتصبب منه وهو لا يدرى كحـمار يحمل أثقالاً ، وتتلطف إيفا معه ، وهى تجتهد فى أن تجد إلى الحوار سبيلاً .

"كم عمرك فى الحقيقة ، أيها البروفسور ؟" فرد بلهجته الغريبة :

"الفرق بيننا ليس كـبيرًا . أهم ما فى الأمر أن يشـعر المرء بقلب شاب ، وأن ينال قسطًا طيبًا من متع الشباب" .

"إذن فسـتأتى بالتأكـيد لتحضـر الحفل الصيـفى لاتحاد السبـاحة والرياضة ؟"

"بصفـة عامـة لا أحرص على زيارة هذه المناسـبات ، ولكن إذا أتيت أنت إليه فليس لى بالتأكيد أن أغيب !".

تُغيِّـر إيفا مجرى الحـديث وتتكلم عن فنونها فى السبـاحة وعن زورق السباق الذى تتمناه لنفسها منذ عامين بلا جدوى .

يتم تناول القـهوة فى مطعم صـيفى ، وهنا يجب أن تؤدى إيـفا دور ربَّة بيت صغيـرة ، فتصب القهـوة وتفض لفائف شطائر الزبد ، ويدخل الرجلان فى هذه الأثناء مـرةً أخرى فى حوار عن عملـهما ، وتتلقى إيفـا من السيدة مـاما لكزة فى ضلوعهـا : "بنت ، عليك أن تهتمى بالسيد البروفسور !"

فتأخذ إيفا الرجل ذا السـاقين المتصلبتين من يديه وتجرجره وراءها :

"بروفسور ، تعال معى !"

يتوقع شناوتس وهو مُثقل بالسعادة نزهةً صغيرةً ، ربما يستطيع أن يفصح أثناءها عن شىء ، لكن إيفا تأخذه بدلاً من ذلك إلى ساحة لعب الأطفال ، وتطلب منه أن يصعد معها الأرجوحة .

لم يكَدْ بصره يقع على آلة التأرجح ، حتى ألحّت عليه فكرة إلقاء محاضرة فيزيقية عن الرافعة ذات الذراعين المتساويين ، لكن ذلك لا يجديه نفعًا ، وتضطره إيفا بلا هوادة لأن يصعد الأرجوحة .

بعد أن ينظر البروفسور حوله خجلاً فى كل اتجاه ، خشية أن يكون أحد تلاميذه موجوداً عن كثب ، فيراه أثناء ممارسته هذه التسلية التى لا تليق به على كل حال . يضع منديل جيبه الأكبر من الحجم الطبيعى على المقعد ، ويصعد الأرجوحة باحتراس ، وتقفز إيفا كالقطة على الطرف الآخر فيحوِّل شناوتس بصره خجلا ويقول لنفسه : لا ينبغى أن تجلس الفتيات على أرجوحة ، على أيامنا لم يكن ذلك ممكنا . لكنه مدّ بصره رغم ذلك ، ثم حرّكت إيفا الأرجوحة صعوداً - هبوطًا ، صعوداً - هبوطًا ، فيتشبث كراى بذراعيه ورجليه فى الدُّعامة ، ويبدو كراكب غير متمرس على صهوة جواد راكض ، ويشير للفتاة بإشارات يائسة راجيًا أن توقف التأرجح .

كان لرجائه هذا سبب جوهرى ؛ فقد ظهر هانز فايفر ، تلميذه الأثير . هل كانت صدفة محضة تلك التى دفعت بهانز للتجول فى هذا المكان بالذات ؟ هذا أمر لا سبيل إلى بحثه ، تكفى حقيقة أنه

وجد أستاذه يمارس عملاً طفوليًا تمامًا وبأقوى قدر من الحركة. لو كان هانز شخصًا يراعى أصول الذوق ، لكان قد نظر إلى بعيد أو غيّر اتجاهه فجأة كما تفعل الأرانب ، لكنه لم يكن مراعيًا لقواعد الذوق ، إنما أخذ يتهادى مارًا بالأرجوحة ومحييًا مرتين . فى المرة الأولى حيا بصوت خفيض متوجها بكليته إلى إيفا . وفى المرة الثانية حيا بانتزاع كابه دانيا من الأرض فى انحناءة مبالغة فى التهكم .

ربما يكون وجه إيفا قد احمر بعض الشىء .

لكن المؤكد أن شناوتس صار أكثر شحوبًا عن ذى قبل .

لم تدع إيفا شيئًا من الاضطراب يبدو عليها ، بل إنها أخذت الآن تحرك الأرجوحة بشدة كالمتوحشة : لأعلى - لأسفل ، لأعلى - لأسفل ، لأعلى - لأسفل .

وحين عُفى عن شتاوتس آخر الأمر ، كان قد أصبح رجلاً محطمًا ، وصارت أنبوبة الاختبار زجاجة مكسرة ، وقادته إيفا إلى الطاولة مرة أخرى .

"ولكن إيفا ياصغيرتى ، ما الذى فعلته بالسيد البروفسور ؟"

"لقد اهتممت به ياماما . كان شيئًا بديعًا" .

صمت البروفسور كراى ، ولم يكثر من القول إطلاقًا على مدى هذه السهرة لكنه قال فى نفسه : عندما تتزوج أولاً ، ثم يصبح لديها خمسة أطفال ، فلن تُعاود ركوب الأرجوحة .

حتى أفكاره كان يصوغها بلهجته الغريبة .

* * *

فى الصباح التالى ، لم يستطع هانز فايفر أن يعرف ما هى حرب الأحلاف الأولى ، وحصل على تقدير "من أربعة إلى خمسة" وتلقى الخطبة المعتادة فى حالة كهذه .

كان شناوتس فى حالة مزاجية سيئة على كل حال . ففى الحصة السابقة مباشرةً كان تلاميذ الصف الرابع قد أثاروا غضبه ، حيث وجد عند دخوله الفصل كلمة "شناوتس" مكتوبة بحجم ضخم على السبورة، فما كان منه إلا أن هزّ رأسه لذلك فى أسىً. وسأل الألفى:

"شوماخر ، ماذا تعنى هذه الكتابة ؟"

"هذا مالا نعرفه" .

"من فعل هذا ؟"

"لقد وجدناه مكتوبًا بالفعل هكذا" .

"ولماذا لم يُمسح ؟"

"إننا لا نعرف ما إذا كان هذا هامًا أم لا" .

هكذا كان لابد أن يعانى هانز الآن من المزاج السيئ الذى سببه تلاميذ الصف الرابع لنفسية البروفسور. عندئذ أقدم شناوتس على

شىء حرص على ألا يفـعله من قبل ، وهو التصرف مع تلامـيذه من منطلق شخصى .

فقال لفايفر : "فايفر ، أنت تزداد غباءً" .

يضحك الفصل .

"فايفر أنت تخرج كثيراً للفسحة" .

"بل لعلنى لا أفعل ذلك إلا قليلاً ، سيـدى البروفسور . لكننى لم أستطع أن أؤدى بالأمس عملاً . فلقد تأرجحتُ كثيراً جداً ، وهذه شهادة من صاحبة المسكن الذى أسكن فيه تفيد بذلك" .

كان اتخاذ الأرجوحـة عُذراً مدرسيًا لتلميـذ أمراً جديداً على كل حال ، حتى بالنسبة لتلاميذ السنة النهائية فى ثانوية بابنبيرج ، فحبس التلامـيذ أنفاسهم . لكن شـيئا لم يحدث. بل إن شناوتس لم يـتفوه حتى بعبارته الملازمة له دائمًا "أنت عبيط" .

توجّه البروفسور كراى إلى منصة المدرس ومكث برهة من دون أن ينبس. يبـدو أنه لم يكن فى مُعتـاد حالتـه ، فطلب من التلامـيذ أن يفتحوا كـراساتهم ، وأن يكتبوا كتمريـن على الأسلوب موضوعًا عن حرب الأحلاف الأولى .

ندّت عن الفصل تنهيدة عميـقة ، فهذا اللون من العمل المدرسى هو أقل قبولاً لدى التلميذ منه لدى المعلم .

لكن شيئًا ما حدث ، شيء لم يكن التلاميذ قد اعتادوه من البروفسور كراى المتسم بالحذر : ذاك أنه سحب جريدة ضخمة من حقيبته وتوارى خلفها ، وترك فتيانه يكتبون .

استغل التلاميذ ذلك استغلالاً عظيمًا ، وتحوّل الفصل إلى فريق عمل ، وانتشرت عبر المقاعد أوراق وكراسات ، ووضع لوك الصغير وحده ثلاث صيغ للموضوع ، واحدة لرودى كنيبل ، وأخرى لهانز فايفر ، وثالثة أخيرة له هو نفسه ، لكنه لم يتمه من هذه الأخيرة بصورة تامة .

فى نهاية الحصة ضمّ البروفسور كراى صحيفته إلى بعضها وأملى ما يلى :

"أكرمان ، سجل فى دفتر الفصل : الحجز ساعة لكل من هوزيمان ، وشرادر ، وشتوب ، ومولباخ ، وإفرهارت ، وجوجنهايم وميلفورم بسبب الغش ، ولكنيبل بسبب تقليصه لعضلات وجهه بصورة بلهاء ، ولهانز فايفر لقراءته خطابًا" .

كان الأمر فى غاية البساطة ، فقد ثقب شناوتس ثقبًا صغيرًا فى الصحيفة اليومية. كان بومل هو الذى أوحى إليه بهذه الحيلة ، ولقد طلب إلى التلاميذ كتابة تمرين على الإنشاء بالذات لكى يجربها .

وكان التعنيف من نصيب فايفر وحده .

"أين الخطاب ؟"

أبى هانز أن يعطيـه الخطاب وتلعثم بشىء عن سريّـته ، لكنه لم يشعر إلا وقد دس شناوتس يدًا منقضة فى جيب "تلموذه"(*) العلوى وأخرج منه شيئًا صغيرًا فاتح الزرقة.

"ممّن هذا الخطاب ؟"

"إنه خطاب خاص".

يبدأ شناوتس فى قراءته . "من هو (إ) الكبيرة وبجوارها نقطة ؟"(**)

"ليس للمدرسة شأن بهذا".

"من هو (إ) الكبيرة وبجوارها نقطة ؟؟"

"هذا أمر لا يخصك !"

عندئـذ بلغ الأمـــر ذروته ، وتوجـب على هانز أن يـذهب مع البروفسور إلى المدير .

يمشى هانز متراخيًا ككلب مُبتلٍ خلف شناوتس ويأخذ فى استنفار قوى فكره ، لابد من مخرج ، أمامه ثلاثون ثانية .

ليقل مثلاً . . . أو الأفضل أن يقول . . . لكن زيوس"(***) سوف

(*) حاولنا هنا الاقتراب ولو جزئيًا من لهجة المعلم ويمكن قياس ذلك على سائر عباراته والمقصود هنا طبعًا "تلميذه" . (المترجم)

(**) وقعت إيفا الخطاب الذى كتبته لهانز بالحرف الأول من اسمها. E . (المترجم)

(***) هذا هو الاسم الهزلى للمدير لدى التلاميذ كما سبق وأوضحنا . (المترجم)

يعرف الخطء. لازال هناك خمس عشرة ثانـية ، ماذا لو تظاهر بإصابته بتـقلص فى المعـدة ؟ أو بالإغـمـاء ؟ ولكن كـيف ينسى الخطاب ؟! الخطاب!

ودخلا إلى مكتب المدير .

البـروفسـور كراى يبلغ المدير بالأمـر ويريد فوراً أن يضع جـسم الجريمة(*) بين يديه - عندئذ يقبض هانز على الورقة قبضة قرود .

"هات الخطاب !"

يفرح هانز لكونه أخذه .

"هات الخطاب !"

لكنه لا يعرف ما يفعل الآن به . فيكوّره فى يده.

"هات . . الـ - خطاب !!!"

قال هانز "قـد فات الأوان" كـان قد وضعـه فى فمـه والتهـمه التهامًا. ولم يعرف على الإطلاق من كان "(إ) الكبيرة وبجوارها نقطة. "

* * *

تسلّلت إيفا من المنزل عنـد الثالثة، فقـد كانت تريد الذهاب إلى صديقتها ليزبيث. كان لليـزبيث ثلاث ميزات قيمة : فهى أولاً تسكن فى ضاحـية صغـيرة وبعيدة جـدًا ، وثانيًا ليس لديهـا هاتف ، وثالثًا يمكن الاعتماد عليها تمامًا .

(*) Corpus delicki جسم الجريمة. باللاتينية فى الأصل. (المترجم)

ولم يكن من قبيل الصدفة بالتأكيد ألا يكون هانز فايفر هو الآخر موجوداً فى المنزل عصر ذاك اليوم ، كان كنيبل ولوك وهوزيمان قد أتوا فى الثالثة والنصف لعمل الواجب المدرسى ، ووجـدوا الوكر خاليًا ، وبعد أن انتظروا هانز سـاعة انسحبوا لاعنين . لكنهـم لم ينصرفوا إلا بعـد أن وضعـوا فرشـاته المعدن تحت مـلاءة السرير وبدلوا مـعجـون الأسنان بأنبوبة كريم للبشرة .

فى ذلك الوقت كان هانز وإيفا يخطوان عبر الغابة ، كانا يمسكان بيد بعـضهما كـأطفال ، لكن ذلك لم يحدث فى الواقع إلا سـهواً ، فلدى تخطيهما أحـد جذوع الأشجار مد هانز إليهـا يده فى شهامة ، ونسى بعد ذلـك أن يسحبـها مرة أخـرى ، فنسيت إيفـا هى أيضا أن تسحب يدها ، لكنـهما كانا يـشعران بالرضـا تمامًا أثناء ذلك ، ومن وقت لآخر كان هانز يشعر برجـفة يدها . ربما لم يكن ذلك إلا تخيلاً منه ، وعلى كل حال فقد كان سعـيداً سعادة تامة ، ولم يعرف لأول وهلة ما الذى يمكن أن يتمناه لنفسه فى هذه الدنـيا أكثر من أن يتجول مع الفتاة الحبيبة المرحة يدًا فى يد عبر الغابة .

إنه لم يكن راضيًا أبدًا بهذه الصورة فى برلين .

كان الاثنان يتـحدثان عن المدرسـة طبعًا ويتـفاخـران بمدرسيهـما والبطولات التى تمارس ضدهم .

كانت إيفا فخورة بصفة خاصة بمدرستها فى اللغة الإنجليزية ، التى أطلق التلاميذ عليها اسم "مس بوريدج"(*) ، وكان خوفها من الجراثيم يملك عليها أمرها لدرجة أنها لم تكن تسلم بيدها على إنسان وكانت تفتح مقابض الأبواب بمرفقها .

وردًا على ذلك أخذ هانز فى الحديث عن بومل الذى لم يكن يُباريه أحدٌ على كل حال ، كانت أحدث إنجازاته هى إيقاظ التلاميذ الناعسين بإسفنجة مبتلة ؛ فكانت النتيجة أن نام جميع التلاميذ ، ووضعوا بومل فى حالة من القنوط لأنه لم يكن متاحًا إلا قطعة واحدة من الإسفنج .

نصف ما قيل كان بطبيعة الحال كذبًا .

لقد تأكد من خلال هذا مع الأسف أن هانز فايفر لم يكن على الإطلاق ممن يحبون الصدق حبًا جمًا كما ينبغى للمرء أن يتوقع من كاتب كبير. كانت آلام معدته قد سكنت، غير أنه تفكّر فيما إذا كان ينبغى له أن يحكى قصة الخطاب الذى ابتلعه ، لقد كان يرى أن فعلته هذه تتسم بالشجاعة والغرابة فى وقت معًا ، لكنه من ناحية أخرى لا يريد أن ينبه إيفا إلى مخاطر مغازلتها ، وهكذا تنازعته خواطر الزهو والذكاء ، وبعد أن سرد القصة بصورة موفقة علم من إيفا أنها بدافع الحرص جعلت صديقتها الموثوق بها تكتب الخطاب بيدها. ما كان لشىء إذن أن يحدث أبدًا .

(*) Porridge تعنى بالإنجليزية الثريد أو العصيدة. وهى بالإنجليزية فى الأصل. (المترجم)

كانا قد وصلا عندئذ القصر القديم ، الذى أرادت إيفا أن تطلعه عليه ، كانت هذه طبعًا هى العلّة الظاهرية للنزهة ، فلقد كان هانز يستطيع أن يجد القصر وحده دون أدنى عقبة . أجل ، فقد كان يعرفه بالفعل من كل زواياه وقام من قبل بدراسات حضارية وتاريخية عنه ، لكنه تظاهر بالغباء وأسلم نفسه لقياد إيفا ، فأخذا يصعدان ويهبطان السلم الذى كاد القدم يُبلى درجاته ، ويمرّان فوق بسطاته الحجرية الزلقة، وعبرا ممرات يفوح منها العفن وأقبية مخيفة حتى وصلا إلى سجن القصر ، ثم صعدا إلى الأسوار العريضة الهشة وممراتها التى تصيب المرء بالدوار حتى وصلا إلى البرج الضخم المتداعى . عجبًا ، كل شىء يبدو له اليوم أكثر رومانسية وغموضًا ، وكانت إيفا تحكى بلا انقطاع ما تعرفه عن القصر ، ولم يكن هانز يصغى إليها ، إنما كان منتشيًا برنين صوتها العذب وأخذ يرمقها بلا كلل من طرف عينيه .

وعندما وصلا إلى القسم الجديد من القصر وهو القسم الآهل بالسكان ، سمع منها قصة بالغة الطرافة لم تكن مُدوّنة فى الدليل الرسمى للحصون والقلاع . تقول الحكاية : ذات يوم ظهر للأميرة فلاح وسأل فى تواضع إن كان يجوز له أن يرى حفيدة الجدة الكبرى، فلم تعرف الأميرة بماذا تجيب على سؤال كهذا ، وطلبت توضيحًا أكثر ، وعندئذ سأل الفلاح عما إذا كان من المسموح به دخول القصر وتفقّد

البهو ، فقادته الأميرة ومعه حفيده إلى البهو الكبير ، كان البهو قبل أعوام قليلة اصطبلاً قذراً يعلو السخام جدرانه ، ومن ثم استدعت الأميرة على وجه السرعة كل وصيفاتها اللاتي أخذن في تلميع الأسقف والجدران وجَلْيها بالصابون والرمل والصودا ، وعندئذ ظهرت الصور القديمة التي ظلّت طبقة الجير تسترها عن الأعين نصف قرن .

كان زيوس وأبوللو وهيرا وأرتيميس(*) وغيرهم من سكان الأوليمب يتراكضون على الحوائط والأسقف وبجوارهم مئات من الديكة الرومية ، أحَدَّ الفلاح عينيه الصغيرتين وأخذ يحملق في صور الآلهة بتمعُّن شديد. كانت الأميرة تقف صامتةً إلى جواره ، ظهرت الديكة الرومية بمزيد من التأمل على أنها أبناء فلاحين ، كانت جسومهم ضخمةً وغليظة ، ثمة فظاظة كانت تنبعث من هذه الأجساد العارية . أخذ الفلاح حفيده على ذراعه وجعل يشير بإصبعه تارة نحو السقف وتارة نحو الحائط، واكتشف الجدة الكبيرة ثمان مرات ، مرة تتمشى وبيدها ورود، ومرةً وهي تستحسن الشمس المشرقة ، ومرّة وهي تغمر قدميها في الماء وأخرى وهي تأكل من الأمبروزيا(**) . وما توضيح ذلك ؟ لقد استقى راسم المشهد كل نماذجه من القرية ، وكان لابد أن تقوم الجدّة الكبيرة ، والتي كانت وقتها فتاة حسناء ، بدور

(*) كل هذه أسماء آلهة إغريقية قديمة. (المترجم)
(**) الأمبروزيا : هو في أساطير اليونان طعام الآلهة الذي يخلد آكله فلا يموت. (المترجم)

الآلهة كلها ، وتم لذلك تصويرها ثمان مرات ، مرة منها على هيئة أفروديت . (*)

جعلت إيفا تسرع فى طريق العودة ، فما كان لها أن تمكث طويلا لدى صديقتها ليزيث .

كانت حرارة الجو قد هدأت ، وكانت الأشعة الذهبية المائلة تقطع غابة الزّان ، وبنى النمل بيوته فى الرُبى ، وكانت هنالك بعض السناجب وبعض طيور مغرِّدة وجدول ينساب ، ثم هذا عجوز يجمع الأخشاب المتساقطة ويدمدم بشىء وهو يسحب كابه .

أخذا طريقهما متجاورين صامتين .

عادا يمسكان بأيديهما البعض ، لكنه لم يكن عفو الخاطر هذه المرّة ، كلاهما كان ملتزمًا الصمت ومستغرقًا فى أفكاره ، كانت أفكارًا طيبةً وسارّة . كان الحاضر يستغرقهما تمامًا ، فلم تكن خطط المستقبل وقضايا الحياة تعكِّر صفوهما ، كانا طفلين . سألت إيفا : "إنك قليلا ما تتحدث عن مسقط رأسك" ،فأردف هانز "كانت الحياة فيه معزولة عن العالم تمامًا" ،وشرع يحكى عن ضيعة أبيه وعن مُدرّسه المنزلى العجوز ، عن طفولته المحرومة من الأمومة ، وعن أبيه الذى شملته الوحدة ، عن أطفال القرية الذين لم يكن يُسْمَحُ له باللعب معهم ، وكيف أنه كان ينتشى سعادةً عندما كان أطفال الضياع

(*) ربة الجمال عند الإغريق. (المترجم)

المجاورة يأتون إليـه ، أو عندما كان يذهب هو إليـهم ، وعن ألعابهم التى كـانوا يلعـبونهـا : هجـوم الهنود الحمـر ، والغـارة على السكة الحـديد ، واللصـوص والشرطى ، ومعـركة بحريـة فوق البحـيرة ، ولكنهم كانوا يلعبـون أيضًا ألعابًا معقولة مثل الجـرى الثلاثى ، ولعبة الجرى داخل جوال ، ولعبة الكرة الضاربة .

بعد ذلك كان عليهما أن يجتازا أحد الجداول .

قالت إيفا ببـرود : "من فضلك لا تساعدنى ، فـأنا أستطيع أن أعبر وحدى" .

النساء يقُلن لا ، عندما يقصدن نعم ، ويقلن نعم عندما يقصدن لا ، أو أنهنّ يقلن نعم عندمـا يقصدن نعم ، والنسـاء يقلن لا عندما يقصدن لا . ما أصعب أن تعرف ذلك .

أمـا الفتـيات الصـغـيرات فلسن نسـاءً ، إنهنّ يقلن نعم عندمـا يقـصدن نعـم ، وهن يقصـدن فى ذات الوقت لا ، وَيوَدَدْنَ سـحب اللا، يقُلن نعم ويقصدن لا ، أو على الأقل فالأمر تقريبًا هكذا . إنها لمهمة مُعضلة لتلميذ الثانوى ، أن يقرأ خبيئة نفس إيفا .

المرأة تحب بدافع من طبيعتها ، أما الرجل فهاوٍ ، وتلميذ الثانوى مبتدئ ، إنه يريد الفم ، يريد قبلة . وهانز تلميذ بالثانوى .

إنه يقتـرح لعبـة الدبَّة العميـاء ، ويقسم أنه لن يفـعل بها شيـئًا ويسندها إلى شـجرة ، وعليهـا أن تُغمض عينـيها ، وبحـرص شديد يتحسس معالم شفتها العليا بسبابته .

ويعد ذلك لا شيء ؟

كلا ، لا شيء أبعد من ذلك ، إيفا تفكر فى نفس الشىء . إنها تنتزع قشةً وتخبئها فى فمها ، وقد وطّدت العزم على أن تصفعه صفعة ، صفعة قوية ، حتى وإن لم تكن قوية جداً .

ولكن شيئًا لم يحدث .

لكنهما اتفقا على أن يلتقيا بعد ذلك أكثر .

* * *

عندما دخل شناوتس الفصل فى الصباح التالى ، وجد على منصته طنًا ونصف الطن تقريبًا من الجرائد القديمة وعليها خرامة ورق ، الآن يستطيع شناوتس أن يصنع فيها خرومًا كيف شاء ، أحضر التلاميذ معهم من الورق القديم كل ما استطاعت حقائبهم حمله ، لوك الصغير وحده نسى أن يفعل ذلك . كل ما فى الأمر أنه نسى ، ولقد اغتمّ لذلك جداً .

والآن يأتى السؤال المعتاد : "من فعل هذا ؟" وتأتى الإجابة المعتادة : صمت شامل .

"إذا لم يعلن الفاعل عن نفسه فسأضع الفصل كله فى الحبس" . ينهض روزن الطويل : "أنا لا أود أن أرمى إلى شىء ، لكن لوك جاء صباح اليوم وهو يحمل حقيبة كتب منتفخة بشكل عجيب" .

ويضيف جرت توهه أنه يتذكّر أن لوك كان يُحضر معه لفةً ، ويقول شرنك أن آل لوك معروفون بأنهم يقرأون صحفًا كثيرة .

يقف لوك ، أبيض كالطباشير ، ولا يقول كلمة واحدة ، ويأتى القرار :

"أكرمان : سجِّل : يُحبس لوك ساعتين لوضعه كومةً من الصحف القديمة على المنصّة".

يتصدّى هانز للكلمة ، ويريد أن يُدافع عن لوك الصغير ، ويقول إن امرأً واحداً لا يمكنه حمل كل هذا الكم من الور. . .

"اجلس !"

"ثم إنّ لوك الصغير بالذات. . ." .

"اجلس !"

هذه الحجّة لا سبيل إلى دحضها ، لكنها - ظلمًا وعُدوانًا - تبقى فى يد المدرس وحده .

فى طريق العودة للبيت شكا لوك لهانز ما أصابه ، لم تكن شكواه من زملائه - فلم يعتد منهم غير ذلك - إنما يشكو من البروفسور كراى وظلمه .

قال لوك : "ما كنت أتوقع منه هذا .إن المرء لتنتابه المرارة مما فعل" .

فأردف هانز "بل نقول إن ذلك يشدُّ عود المرء ، انظر يالوك الصغير : فى الحياة ظلم أكثر بكثير جداً مما فيها من عدالة ، ومن الخير أن يتعوّد المرء على ذلك مبكراً فلعله أهم من اللغة اللاتينية والحساب" .

"لكننى سأفعلها" .

"ماذا ؟"

"سوف ترى صباح الغد" .

* * *

يبلغ الشعـور بالسعادة أضعـافًا مضاعـفةً إذا لم تكن متوقـعة ، والتلاميذ يسعدون بيوم عطلة غير منـتظر أكثر من سعادتهم بعيد مثبت فى التقاويم ، فسعادتهم عندئذ تكاد تربو عن سعادتهم بالعطلة المقررة .

يوم عطلة مدرسـية غـير متـوقع يجعل التلامـيذ فى حـال نشوة حقيقية بالسعادة .

وفى ذلك الصـبـاح ظل هانز منتظراً بلا جـدوى ، فلم يمر لوك عليه ليرافقه كعـادته ، ربما كان مريضًا . تأخر هانز بسبب الانتظار ، فأخذ يهرول فى طريقه إلى المدرسـة ، وبعد أن اجتاز الشرطى ترومل ، ناداه هذا ببعض كلمات المواساة .

وفى طريقه رأى تـلاميذ الفـصول الأخرى يتـدافعـون فى اتجاهه ذرافات ، وحين يصل إلـى بوابة المدرسة يجدها مـحاصـرة ، فيندس هانز بين زمرة التلامـيذ الواقفين أمامها ويـكتشف السبب : على بوابة المدرسة عُلّقت لوحة كبيرة من الكرتون كتب عليها :

لأسباب تتعلق ببعض تعديلات فى البناء تبقى المدرسة اليوم مغلقة

يقرأ التلاميذ ذلك فيطلقون صيحات التهليل ويتدافعون منصرفين ، ويقـرأ المدرسون ذلـك أيضًا ويهللون - بـينهم وبين أنفـسهم فـقط - ويغذُّون الخطى نحو منازلهم ، إنهم يتعجـبون حقًا لكونهم لم يحاطوا علمًا على الإطلاق بتـغييرات البناء هذه ، كـان من الممكن للمدير أن يخبرهم من قبل بذلك ، لكنهم كـانوا سعداء لأن اليوم الذى خُصِّص لهذا التغيير فى البناء كان يومًا صيفيًا رائعًا كاليوم .

لم تذهب السنة النهائية للمنازل ، وإنما اجتمعت تحت قيادة هانز فايفر لتقوم بنزهة جـماعية ، لقد كانوا مجتمـعين بكامل عددهم فيما عدا لوك الصغيـر . فى حانة قريبة كوّموا حقائبـهم المدرسية وكاباتهم فى صورة هرم كـبير وانطلقوا سـائرين فى هيئة المارش ، فى المقـدمة تسير الأوركسترا الخاصة وقوامها آلتان من هارمونيكا الفم وعدة أمشاط مغلّفـة بورق ناعم، كان النـغم أفضل بكثيـر عمـا يصدر عن جـوقة فريدولين المدرسية ، وهكذا انطلقوا فى هذه الهيئة المتكاملة نحو المدينة الصغيرة ، تصاحبهم إيماءات الود مـن أهلها ، والغمزات المسترقة من عـيون بناتهم ، ثم هبط السـرب فى منطقـة خضـراء . كانوا يبـدون لأنفسـهم كسجناء فـروا من حبسـهم، فلم يكونوا يعرفـون على وجه الإطلاق أى صور المجون يقترفون ، ثم إن الأمر هو عطلة حقيقية من المدرسة وليست روغانا منها .

وفى ركن بديع من الغابة جلسوا يلتهمون شطائر الزبد المدرسية ، البعض منهم خاضوا فى ماء الجدول وطفقوا يرشون بعضهم بالماء حتى

أصابهم البـلل ، وآخرون أخذوا يضـعون الجعـارين على أعناق بعض ويتصـارعون كأنهم تلاميـذ الصف الثانى(*) . وكان آخرون قـد تسلقوا الأشجـار وشرعـوا يقصـفون زمـلاءهم من علٍ بكيزان ثمـار التنّوب وبالبصق عليهم ، أمـا ذوو الطباع الأكثر جدية فأخـذوا يحفرون قلوبًا ورسومًا على جذوع الشجر . لقد كان مع فايفر مطواته هذه المرّة .

أمام حـانة صغيـرة فى الغابة شعـر الصحـاب بعطش الرجال ، وحيث أن البـعض منهم لم يكن معهم نقـود ، فقد جُمع ممن مـعهم مبلغ لشراء البيرة ، وذكر أكـرمان أنه فى مثل هذا الوقت تكون حصة قواعد اللغة الإغريقيـة . هذه الفكرة زادت شعورهم بالسعادة إلى حد لا نهائى .

ورويدًا رويدًا اتخذوا طريق العودة سائرين عـبر مُنحدر بين النهر ومؤخر الغابة .

وهذه المنطقة هى خميلة فريدة مـن أعشاب الليلك تصدح البلابل فيهـا ليلاً ، والآن تدب فوقهـا تلك الثلّة من تلاميذ السنة النهـائية ، وتمخر عباب هذا الجلال المزدهر بأغنيات الشراب الفظة .

عندئذ ندّت عن روزن الطويل صيحة وأشار بيده نحو ظهر الربوة ، فاشرأب الجميع بأعناقـهم ، وكان لذلك مبرر حقيقى ، فثـمة جماعة

(*) كلمة Quintaner تعنى تلميذ الصف الخامس أساسًا ، لكن الترتيب كان يبدأ فى المدارس الثانوية الألمانية ذلك الوقت من الصف السادس فالخامس وصولاً إلى الصف الأول الذى كان قمة الهرم المدرسى آنئذ. (المترجم)

تواصل سيرها متمهلة ، وتبدو كشبح قائم على صفحة السماء الزرقاء العارية ، إنها ولاريب ثلة من الفتيات يسرن في صف طولى .

لقد كُنَّ تلميـذات مدرسة داخلية في المدينة الصغـيرة المجاورة ، تقودهن مشرفتهن للنزهة .

أتاحت هذه النزهة دافـعًـا لمـارسة تمرين صـغـير علـى المشيـة العسكرية(*) وقد رحَّبن به جميعًـا . وقال هانز لنفسه إنه مزاح لا يمكن أن يمارسـه أبدًا طلاب الجامـعة ، وإنما يمـكن أن يمارس كلية من قـبل تلاميذ الثانوى .

انعطف جميع التـلاميذ نحو جانب في الغابة ، واجـتازوا القافلة العسكرية وهم يسيرون من بعيد على هيئة قوس ثم استداروا لملاقاتهن على الطريق الضيق فانضـغطت الفتيات كالدجاج المهـشوش إلى حافة الطريق ، بينا أخـذت الدجاجـة القائدة تحـرس القافلة بنظـرات حادّة خشية وقوع شر ، لكنها دُهشت عندما قابلتهم بعد ربع ساعة ثلة ثانية من الرجال مرّةً أخـرى . كانت هذه الجماعة تحـمل نفس هيئة الأولى ولاريب ، وكان هذا هو الـسبب أيضًا في أن الفـتيات لـم يعُدن على الصرامة المطلوبة وتبادلن نظرات مسترقة .

وعندما قـابلهم بعد ربع ساعة تالـية هؤلاء النفر للمرّة الثـالثة ، استجمعت كبرى الدجاجات قوى قلبها المطبوق وتوجهت بالخطاب لمن بدا أقل أعضاء الرهط خطراً . كان ذلك هو هوزيمان .

(*) كان هذا التمرين مُتبعًا في ألمانيا حتى ١٩١٤ ويسمى Felddienstübung. (المترجم)

"سيدى ، هلاً عملتم على أن لا نتقابل مرارًا ؟"

تظاهر هوزيمان بأنه لم يفهم كلمـة ، وحملق فيهن فـاغرًا فاه ، وعندئذ قفز رودى كنيبل وأخذ يهذى وهو يقلص عضلات وجهه بشدة وقال : "ها بشكو ساسافراس تشمبر ومبوم أولا هوبى." (*)

اقشعر بدن الآنسة ، واندفع بقية التلاميذ وأخذوا يثرثرون نحوها من كل جـانب : "روتشى بينوتشى زامبـابل تاكًا تاكًـا بولليـداه !" ووافق الآخرون قائلين "كروكلودافـتسى تاكريه رى - رى." فأردفت الآنسة قائلة : "parlez - vous francais messieurs?" (**) .

"أوكاساموجا شورلى بورلى إليداروتسبون ليلولته بانونه" .

"Do You Speak English ?" (***)

"لافراياه ديلودو يدكنك شتاكا بومبوم شتاكا بومبوم" .

فما كان من آخر الفتيات إلا أن لملمت أطراف ردائها حول ساقيها النحيلتين ، وزمّت شفتيها فى حزم وطارت عبر الحقول ، والدجاجات فى إثرها . استرق بعضهن النظر فيـما حولهن - كما فعلت ذات يوم امرأة لوط ، لكنهن لم يتجـمّدن أعمدة من الملح مثلهـا ، وإنما شيّعن الفتية بتلويح الأيدى وإرسال القبلات من بعيد .

* * *

(*) طبعًا هذا كلام لا معنى له . (المترجم)
(**) "أتتحدثون الفرنسية ، أيها السادة ؟" - بالفرنسية فى الأصل. (المترجم)
(***) "أتتحدثون الإنجليزية ؟" - بالإنجليزية فى الأصل. (المترجم)

ثمّ عادت الحياة سيرتها الأولى .

ففى الصباح التالى لم تكن تتألّق على بوّابة المدرسة لافتة تزف بشرى ، كل شىء كان كالعهد به .

بل لم يكن كالعهد به ، ثمة شىء يلوح فى الأجواء ، ففى فناء المدرسة بل وفى كل مكان منها كان المعلمون يقفون مثنى وثُلاث يتناقشون وسحناتهم فى غاية الجد ، بأصوات خفيضة وفى سرّية تامة، وفى خلال الحصة الأولى كان حاجب المدرسة كليمكه يهرول من قاعة إلى أخرى ليبلغ : السيد المدير يدعو لاجتماع فى العاشرة .

لابد أن خطبًا جللاً قد وقع .

فى فسحة الساعة العاشرة انتحى لوك الصغير بصديقه فايفر جانبًا. كان أكثر شحوبًا عن ذى قبل ، وكان يرتعش من الانفعال .

"هانز ، ألا تلاحظ شيئًا ؟"

"كلا" .

"اسمعْ - اليوم هو يومى العظيم" .

"ماذا جرى ؟"

"هانز . . عشر دقائق فقط ، ثم تتحدث المدرسة كلها عنى . بل المدينة بأسرها" .

"ولكن يا لوك !"

"أرأيت اللافتة بالأمس ؟"

"تمامًا" .

"ألم يلفت نظرك شيء ؟"

"كلا" .

"هانز . . اللافتة لافتتى" .

"إنك لمجنون" .

"حقًا ياهانز . إننى صاحبها" .

"ياللهول ، آه لو شاع هذا يابنى آدم !"

"بل ينبغى أن يشيع هذا ياهانز ! بعد الفسحة مباشرة سأقدم نفسى لشناوتس ، أنا لا أكاد أستطيع الانتظار . تخيل فقط كيف ستكون الضجة ، الآن عليهم أن يعرفوا أخيراً من أنا . لقد استهلكونى ثمانية أعوام كتلميذ مثالى ، على مدى أعوام ثمانية أذلونى وتندّروا بى وضايقونى . آن لى الآن أن أبين لهم ما يكون تلميذ مثالى ، وأنت بحيلة نبيذ الذئب استطعت أن تدفع بالسنة النهائية ساعتين إلى منازلهم ، لكننى أنا دفعت بالمدرسة كلها يومًا كاملاً للبيت ومعها كل المدرسين ، تفكّر بعض الشيء ماذا يعنى هذا . أنا ، لوك الصغير !"

« يا ابن الناس ، إنك ستُفسد بذلك كل حياتك . على الأقل اكتم هذا ! »

« أنا لا أفكر فى هذا مطلقًا ، فالأمر عندى سيّان تمامًا ، ولقد تحدّثت مع أمى فى ذلك . أهم ما هنالك هو أننى الآن الرجل الكبير، وستسمع لوته طبعًا عن ذلك هى الأخرى ، أو ستقرأه فى الصحيفة . تُرى هل ستظل تنظر بعيدًا عندما أمر عليها ؟ »

فى ذلك الوقت كانت هناك فى قاعة الاجتماعات جلسة جادة ، اجتمعت هيئة التدريس بكاملها على الطاولة الخضراء الطويلة ، يجلس المدير عند منتصفها مميزًا بمسند أعلى فى مقعده وبحقيبة أوراقه الزرقاء .

كان قد أُتى باللافتة المشئومة ، وأخذ المجتمعون يتأملونها بنظارات وبدون نظارات ، وفى أثناء ذلك كان الناظر كناور يوضح بكلمات مضطربة الفعلة التى وقعت ، وحكى لهم كيف لفت الهدوء المريب فى البناية انتباهه ، عندما أتاها بعد الثامنة بقليل ، وكيف أنه هرول بقلب مهموم عبر الممرات وقاعات الدراسة ، وكيف استقبلته المقاعد الخاوية فى كل مكان بالتثاؤب ، وكيف هُرع بعد ذلك إلى حجرة المعلمين فوجد الشىء نفسه ، وأخيرًا تهاوى مُنهك القوى فى أحد المقاعد ظانًا أن هناك إضرابًا مدرسيًا وثورة . إلى أن أحضر كليمكه - وهو يخفى بسمة - اللافتة الرجيمة إليه .

جاء المعلمـون جمـيعًا إلى الاجـتماع بطوية سلـيمة ، وأنصـتوا للتقرير متأثرين ، تغلى مراجل غضبهم . كان البروفسور كراى جالسًا عند رأس الطاولة ، واتخذ الآخرون مجالـسهم بترتيب درجاتهم ومُدَّة خدمـتهم ، حتى كاد د. بريـت ينفجر ضاحكًا لـكنه استجمع عـزمه وحبس ضحكة ، ولم يكن هناك مأخذ إلاعلى تصرف بومل كما هى العادة ، فقد أخذ يضرب على فخذه ويضحك فى قرقرة هادئة .

فى البداية تقـرر أن إجراءً ما لابد أن يتَّـخذ . فى هذه النقطة ، كان هناك اتفاقٌ تام .

أمـا ما الذى ينبـغى أن يحـدث : هنا اخـتلفت الآراء على كل حال. حيث يرى كراى أن مسألة اللافـتة تزوير سافر فى المستندات ، ويريد إبلاغ البوليس الجنائى ، ويقترح د. بريت إبلاغ المطافئ بدلاً من البوليس الجنائى ، فـيَشْتُمُّ كـراى فى ذلك سخرية ويعتـريه غضب ، وعندئذ لابد أن يتدخل المدير كناور ليفصل الديوك المتشاجرة ، ويدعو موللر رقم ٢ لتكوين لجـنة من ثلاثة أعضاء تبـحث الموضوع ، ويعلن فريدولين أنـه سينضم إلى رأى السيـد المدير ، والسيـد المدير لم يُعلن بعدُ عن رأى خاص به ، وليست لديه النية فى ذلك أيضًا .

يكاد المجتـمعون يغفلـون بومل ، وهو يحرص على ألا يزاحم الآخرين من أجل الظهور ، ولكن لأنه كان من الواجب توجيه السؤال إليه مراعـاةً للأدب ونظرًا لأن الموضوع الذى يناقشونه بـالغ الأهمية ، لذا فقد انطلق قائلاً بلهجته :

« رأيى ألا ندع الخدعة تنطلى علينا ، فلو عُرف هذا الأمر لصارت فضيحتنا بجلاجل ، وسوف يمسك أهل المدينة بطونهم من شدة الضحك . أفضل شىء : ألا نقول شيئًا ! ولنتغابى عن هذا تمامًا، وفوق ذلك نتصرف كما لو كان قد حدث تغيير فى البناء حقًا. يمكن مثلاً أن نضع سلمًا خشبيًا قديمًا على سلالم المبنى للإيهام بذلك».

كان الرد على ذلك استياءً من الجميع .

لكن منطق بومل السليم أخذ بالتدريج ينتصر ، وفضلاً عن ذلك كان كل واحد من السادة على يقين تام بأن الفاعل موجود فى فصله هو ، وهو أمر لا يرحب أحد بمعرفته ، أما بالنسبة للمدير كناور فكان أهم ما فى الأمر أنه سيتجنب بهذه الطريقة أى أثر للحادثة وأى نوع من النزاع . وأنه فى المقام الأول لن يكون بحاجة إذن لأن يُعد تقريراً لهيئة التعليم بالإقليم .

قبل المجتمعون اقتراح السلم الخشبى ، وتلقى فريدولين تكليفًا رفيعًا باتخاذ ما يلزم لدى كليمكه لتنفيذ ذلك ، وعندما عاد التلاميذ من فناء المدرسة بعد الفسحة وأخذوا يصعدون السُّلّم ، كانت جهة منه قد حُجزت عن الاستخدام وزيِّنت بالألواح وسلالم الخشب وشكائر الأسمنت .

حُمَّ لوك الصغير ، وخفقت عيناه . إنه لا يرى ولا يسمع شيئًا، ولو لم يكن هانز إلى جانبه وقتئذ لكان قد اندفع إلى حيث يجلس المعلمون .

أخيرًا ظهر البروفسور كراى ، مبلبل الخاطر بصورة واضحة ، ويتقدم لوك إليه ، وكراى لا يلاحظ شيئًا .

« سيدى البروفسور ! »

« أخرجوا كتبكم ! »

« سيدى البروفسور ! »

« لا تكن مُزعجًا يا لوك ! »

« سيدى البروفسور . . هناك شيء بسبب اللافتة ! »

« اجلس ! »

« سيدى البروفسور . . الأمر بسبب لافتة الأمس ! »

« لا يسمى : الأمر بسبب اللافتة ، وإنما نقول متعلق باللافتة ! »

« حسن ، إذن فهو متعلق باللافتة يا سيادة البروفسور ! »

« عليك أن تجلس ! »

عندئذ انطلق صوت من لوك الصغير صائحًا : « سيادة البروفسور، إننى أنا الذى أعددت هذه اللافتة ! »

« عليك أن تُغلق فمك ! » .

« أنا لا أريد أن يضار برىء » .

« إذا واصلت الإزعاج فسيسجل اسمك فى دفتر الفصل » .

« ألا تفهم يا سيادة البروفسور ؟ أنا أنا الذى صنعت اللافتة . . أنا . . أنا !! واللافتة خدعة ! »

« لوك ، أنت أبله . إن اللافتة أُعِدَّت بسبب تغيير فى بناء الدَّرَج ».

« هذا غير حقيقى ! هذا خطأ ! »

« إذا لم تسكت فوراً فسأزج بك خارج الفصل ! »

ارتبك ذهن لوك تمامًا ، إنه لا يستطيع أن يفهم ، ولا يريد أن يفهم أن عمله الكاتيلينى (*) هذا سيذهب أدراج الرياح ، فشرع يؤكد جريمته بصوت مرتفع إلى أن دفعه شناوتس خارج الفصل ، وفضلاً عن ذلك سجل فى دفتر الفصل : لوك يعوق الدّرس بأقوال بلهاء .

كان ذلك هو اليوم العظيم فى حياة لوك ، والحق أنه بذل عدّة محاولات أخرى يائسة لكى يُعرّف الفصل على الأقل بعمله البطولى،

(*) نسبة إلى النبيل الرومانى كاتيلينا Lucius Sergius Catilina (١٠٨ – ٦٢ ق.م) الذى نادى بإصلاحات اجتماعية واسعة ، وسعى للاستيلاء على الحكم سنة ٦٣ ق.م بدعم من فقراء النبلاء وقدامى المحاربين الذين كانوا ينتمون لقوات الحاكم Sulla وكذا بدعم من الجمهوريين ، لكن سيسرو Cicero كشف مخططه وأحبطه . (المترجم)

وأخيرًا كفَّ عن ذلك ورأى أنها كانت بطولة خـرقاء متكلّفةً ، غضب نفسه على اقترافها غضـبًا ، ثم انطوى على نفسه أكثر من ذى قبل ، وتخلّى عن أن يصبح حـديث الناس أو أن تكتب الصحيـفة عنه ، بل إنه قطع الأمل فى أن تنظر إليـه معشـوقتـه لوته عند مروره عليـها ، واكتفى بأن يرفع طيفـها خِلسةً إلى السماء ويكثفه حتى يستحيل مثلاً أعلى متبخرًا كالضباب .

وفيما يتعلق باللافتة ، فقد بقيت على كل حال ثغرةٌ فى حسابات بومل المحنك بشأنها ؛ فهو لم يضع فى اعتـباره حقيقة أن المدير كناور يعيش حـياة أسرية نموذجـية وأن ابنته إيفـا تلميذة فى مـدرسة البنات المجاورة ، وأخذ شيء ما يتـسرب على كل حال مع مرور الوقت عن اللافتة المزيفة ، ولم تنشأ هذه الإشاعة فى حياض مدرسة البنين مثلاً، وإنما جاءت من مـدرسة البنـات التى ارتبطت من قـديم بمدرسة البنين بخيوط سرية ، وكان أكثر ما فى الأمـر غرابة هو أن الإشاعة لم تعتبر لوك مثلاً هو بطل اللافتة - لا سـمح الله ! - وإنما اعتبرت بطلها هو هانز فايفـر ذا الصحيـفة السوداء ، والحق أنه رفض بيـديه ورجليه أن يُلقى على كاهلـه هذا الشرف ، ولكن الإشاعـة أصرّت بعناد على أن مُخـرج تمثيلية نبيـذ عنب الذئب لابد أن يكون هو أيضًا مؤلف قـصة اللافتة ، ولم تعد لهانز حيلة فى دفع ذلك عن نفسه فاستسلم فى آخر الأمر ، وهكذا أصبح فجأة - على غير رغبة منه ولا استحقاق - بطل السنة النهـائية والمدرسـة ، بل إنه لم يعـد بطل مدرسـته وحـسب ،

فتلميذات المدرســة الثانوية صــرن يرمُقنه الآن خلسة كلما مر ويلكزن بعضــهن ويتهامسن . كــان بإمكانه أن يصبح له الآن ملهمــات بالعدد الذى يريد ، لكنه لم يرَ عظيم شأن فى هذا واكتفى بإيفا .

كان يلتــقى بها خلسة كــما يليق بحب التلْمذة فى الطقس الجـيد والطقس الردىء ، وكــان أحب شىء إلى قلبـيهـما هو عندمــا يهطل المطر؛ لأن الشوارع عندئذ تكون خالية ، ولأن المظلة كــانت تمهد لهما غطاءً مُرحــبًا به ، وأحــيانًا ما يكون المـطر قد انقطع منذ فــترة طويلة والشــوارع عادت إلى جـفافـها مــرّة أخرى ، إلا أن الاثنين - وهمــا منقطعان تمامًا عــما حولهما - ما يزالان يواصلان ســيرهما بلا انقطاع تحت مظلتهما خلال الشوارع ذاتها وفى الحى ذاته إلى ما لا نهاية .

ولماذا عساه لا يفعل ذلك ؟ فبالنسبة لماريون : لقد كانت مخطوبة للكاتب المشــهور فى برلين ، أمــا الذى يقــوم بهذه المغــازلة هنا فهــو التلميذ الصغير الوديع بثانوية بابنبيرج ، ثم إن هذا صميم جوهر تلميذ الثانوى شأنه شأن الكاب المدرسى والدرجات الضعيفة فى الجبر.

وهكذا كان كل شىء على ما يرام .

* * *

وبالتدريج دخلت قـصة اللافتة دائرة النسيــان ، ولم يتكدر أحد لذلك إلا المدير كناور ، فــقد كان الضــميــر التربوى ما يزال يــنتفض داخله لأن تمرّ هذه الجريمة بلا عقاب ، والحق أنه كثيراً ما كان يصعب

العثور على من يقوم بعمل فظ ، ولنقل بكل ثقة أن هذه كانت القاعدة ، ولم تكن مجرد أمر وارد . لكنه فى تلك الحالات ، كان البرهان على الاستنكار التربوى يثبت على كل حال من خلال استقصاء شامل ، أما هنا فلم يحدث شىء ، ثم مَنْ ذا يضمن له أن مُرتكب الجرم لن يعتبر ذلك بعينه مدعاة لفعلات أخرى ؟

وبينما كان يفكر ذات صباح فى هذا الأمر - ومرّةً أخرى كان الطقس صيفيًا رائعًا - لفت السكون الموحش فى المبنى انتباهه مرةً ثانية. كانت ساعة جيبه تشير إلى الثامنة والربع ، وساعة البرج أيضًا، فقفز مسرعًا عبر الممرات : خالية ، قاعات الدّرس : خالية ، حجرة المعلمين : خالية .

طبعاً لابد أن تتكرر ! ولكن أن يقع مُدرسوه للمرّة الثانية فى الشرك !

يجلس إلى الهاتف .

ويتصل أولاً بالبروفسور كراى .

إنه لا يفهم تمامًا ماذا هنالك ، فينفجر المدير بالصياح .

كراى لا يقبل هذا « التصرف غير المفهوووم » فيغلظ كناور له فى القول ، فيرد كراى بمثله ، وهكذا ينشب شجار بين كلا المربيين بالهاتف، ويصرخان فى بعضهما حتى تسخن الأسلاك .

إلى أن يصك المدير السماعة فوق الحامل وهو يحس بالإهانة .

فريدولين ليس عنده هاتف .

وبريت يقوم بنزهة تستغرق اليوم كله .

أما بومل فلا يزال نائمًا ، يؤتى به من فراشه : أثناء ذلك كان دم كناور قد احترق .

لكن بومل كان الشخص المناسب لموقف كـهذا . قال للمديـر : « أتعتبرنى مخبولاً ، سيدى المدير ؟ لم لا تذهب للفراش ثانية » .

ووضع السماعة .

لفتت الضوضاء انتباه إيفا .

« ماذا جرى يا بابا ؟ أيحدث مثل هذا فى يوم الأحد المقدس ؟ »

« الأحد . . كيف ؟ هل اليوم هو يوم الأ . . . » .

« نعم بالتأكيد » .

« كيف يكون اليـوم هو الأحد ؟ . . بالطبع اليـوم هو الأحد . لستِ فى حاجة لأن تقولى لى . . السبب فى ذلك دائمًا هو هذا الجلف ! »

* * *

لا يجب أن يظن المرء أن أذُنى هـانز فايفـر قـد أخـذت فى الرنين (*) ضحى ذلك اليوم ، فـقد كفّتا عن ذلك مـن زمن طويل ، وفضلاً عن ذلك فإن لديه أعمالاً هامة يؤديها فى ذلك الوقت بالذات .

كـان هانز جالسًـا مع خلصـائه - رودى كنيـبل ، وإرنست هوزيمان ، ولوك الصغير - فى حـجرته الصغيرة ويُعدّ شـراب « الشارتريز الأخضر » (**) لكنه لم يكن يعده حـسب وصفة الرهبان الصمـوتين ، فلقد حصل هوزيمان اليوم على قدر من الكحول الإثيلى النقى من صالة الكيمياء ، وأحضر رودى كنيبل معه مادة معالجـة بطريقة ما من حانة والده ، ودبّر هانز فايفر السكّر من مخزون صاحبة البيت ، وسُمح للوك الصغير بأن يراقب عملية الإعداد .

ولم تكن السيدة فـيندشايد ترحب بأن تكون فى معيّـة أربعة رجال فى المطبخ العلوى ولا بأن تسىء اسـتخدام مـوقدها بترشـيح السكر عليه ، ولا قدر اللبن بخلط سائل أخضر كالسم فيه ، ولكن قلبها لم يطاوعها من ناحية أخرى بأن « تفسد على الأطفال لعبهم » كل ما تبغيه هو ألا تجرب الشراب، وهى تفضل الموت على ذلك .

لم يكن الشارتريز الأخضر المحضَّر هنا ذا خطورة مباشرة على الحياة بأى حال ، ولم تكن بالندماء طاقة على الانتظار فانطلقوا يشربون السائل الزمردى

(*) «رنّت أذنه » تعبيـر يطلقـه الألمان كناية عن أن حـديثًـا كـثيـرا دار حـــول الشـخـص . (المترجم)

(**) شراب الشارتريز chartreuse نوع من العرق يُعد من بعض الأعشاب وينسب إلى دير بنفس الاسم فى فرنسا حيث صنع لأول مرة ، ويقع هذا الدير بجوار مدينة Greno-ble الفرنسية . (المترجم)

وهو بعدُ دافئ ، حتى لوك علو الكحول راح يلعق هو الآخر من الشراب ويستزيد .

وسرعان ما وجد الكحول الإثيلي المجتلب من قاعة الكيمياء طريقه إلى الرءوس ليفرغ فيها انتقامه ، حتى هانز فايفر لم يقوَ على احتمال أثر شراب الآباء الدافئ .

وليس معنى هذا أن الندامى كانوا يُعانون أثره ، بل بالعكس ، لقد كانوا في ارتياح تام ، وفي البداية راحوا يعابثون بعضهم بعضا بغرامياتهم المختلفة في كثير أو قليل ، ولم يكن بوسعهم أن يُشنِّعوا كثيراً على هوزيمان الذى كان في ارتياح تام ، وكان يفضّل التسكع عند النهر ، أما رودى كنيبل فقد ازداد لذلك حماسه وراح يُظهر تنوعًا مُلفتا في شخصيته ، ولم يكن بوسع هانز أن يحول دون التطرق إلى ذكر علاقة ما بينه وبين إيفا ، بولغ في تصويرها بما يجاوز الحقيقة بكثير ، أما لوك الصغير فقد خيّب كل الظنون ووضع نظريته الجديدة عن تعدد الزَّوجات ، ففتّت لوته الوحيدة إلى حريم كامل ، إن من يشرب « شراب العرق دافئًا » يملك الحق في ذلك ، وسرعان ما تحوّلت الحالة المزاجية إلى الزرقة بفعل الشارتريز الأخضر ، فكان أربعتهم يتحدثون في ذات الوقت معًا ، وكان بعضهم يفهم البعض الآخر بصورة رائعة ، حتى انقلبت كئوس الرّاح ، وأصبح كتاب الجبر أخضر فاقعًا ، وانبعثت منه رائحة كالتي تفوح من محل المعلم بورتس الحلاق ، وابتكر هوزيمان وكنيبل نوعًا عجيبًا من المصارعة ، وأخذا يتمرغان على الأرض بينما تصدر عنهما أصوات

نقيق وضجيج ، وبين هذا وذاك كان لوك الصغير ينشد أفضل مقاطع شتيفان جيورجه (*) .

ثم وجد هانز فايفر بنفسه حاجة مُلحة لإظهار مواهبه التمثيلية ، فاختفى لحظةً وعاد على أنه السيدة فيندشايد مُسربْلاً بثيابها المنزلية ذات المربّعات الزّرقاء والبيضاء واستبدل الاستدارات المطلوبة ببعض الوسادات ووضع على رأسه قُبّعة الأحد الخاصة بها ، ورسم بعلبة الألوان على وجهه وجنةً تفاحيةً صغيرة، في هذه الهيئة التنكرية شنّ هانز حملة تقريع عارم على شلّة الأنس بسبب الكحول وسوء الصحبة.

ولابد أن الموقف كان مُفعمًا بالهزل .

إذ أنه في الحجرة المجاورة كان السيد كنول - الذى كان قد ربط للتو ربطة عنقه - قد سمع الضحك المدوِّى ، وكان على قناعة بأن هناك مرةً أخرى فروقًا يمكن سردها ، لكنّه لم يعجل بالذهاب إلى حجرة هانز .

وبدلاً من أن يأتى هو ، جاءت السيدة فيندشايد . انتابها فى واقع الأمر غضب شديد حين رأت صورتها الحيّة ، ولم يكن مبعث غضبها هو سوء استخدام ملابسها وإنما لإهانة كبريائها : « شيء كهذا لم يكن لابنى أن يعمله » .

(*) شتيفان جيورجه Stefan George (١٨٦٨ - ١٩٣٣) شاعر ألمانى ، مدح فى قصائده صور البطولة ، وكان مولعًا بالاهتمام بشكل القصيدة ، كوّن حوله دائرة من الجماليين سميت « دائرة جيورجه » وكانت وسيلتها للانتشار هى مجلة «صحائف حول الفن» (١٨٩٢ - ١٩١٩) . (المترجم)

وفضلاً عن ذلك فثمة سيدة فى الخارج جاءت فى طلب هانز .

« ولماذا سيدة ؟ »

وصاح كنيل وهو ما يزال فى جو المصارعة : « إلينا بالسيدة ! » وأوضح لوك الصغير : « ولماذا تكون واحدةً فقط ؟ من فضلك إلينا بأربع ، فحق النساء فى الوجود لا يكون إلا حين يكُنَّ جَمْعًا » .

« أعتقد أنها والدة السيد هانز . إنها تلك السيدة التى فى الصورة » .

« آخ ، الطف يا لطيف ! »

ها هى ذى تقف هى الأخرى فى الحجرة . ماريون أيزنشميت ، خطيبة هانز فايفر . برداء سفر أخضر – رمادى مشغول يدويًا ويمثل موضة ما بعد الغد ، وقفت بوجه لا يُسبر غوره ، وبابتسامة ظافرة ، تمامًا كما تعودها هانز فى برلين .

ها هى ذى تقف بلا حراك وسط دائرة الفتية ، وجعلت تقلب نظرتها الباردة من واحد لآخر ، نهض هوزيمان بصعوبة من الأرض ، وتوقف هانز فايفر عن أداء دور « السيدة فيندشايد » ، ومات شتيفان جيورجه بين يدى لوك الصغير .

تجلّد هانز وقال : « أنت ؟ يا له من أمر سار . هل لى أن أعرفكم ببعض ؟ الآنسة أيزنشميت ، إنها . . . خالتى ، إرنست هوزيمان جارى فى المقعد ، رودى كنيل ، طوله متر وسبعة وأربعون سنتيمترا ؟ السيد فولفجانج لوك ، اختصاصى فى تعدد الزوجات وما يتعلق به » .

وصـــاح رودى كنيـبـل الذى لم يع الموقف بـعـد : « ياه ، الخـــالة أيزينشميت! مـرحى للخالة أيزينشميت ، تحـيا الخالة الشميـتأيزنية(*) ولْتَسْمُ مكانةً » .

عندئذ وضع هانز نهاية للموقف ، وأرسل رفـاقه إلى الهواء الطلق . . وصار وحده مع خطيبته .

والآن يجب أن يقول شيئًا . « لطيف منكِ أن جئتِ » .

« حقًا ؟ »

« ألا نجلس ؟ »

« شكرًا » .

« هل لى أن أقدم لك كأسًا من « العرق » ؟ من الشارتريز الأخضر » .

« شكرًا » .

« لطيف منك أنك أتيت » .

« أنت تقول ذلك الآن للمرّة الثالثة » .

« كلا ، للمرّة الثانية » .

« بل الثالثة ! - وبالمناسبة ، أصحابك ظرفاء » .

(*) اسم عـائلتـهـا Eisenschmidt أى الحـدّاد ، وفى هذه العـبـارة تلاعب الفـتى السكران بمعنى الاسم ليعنى تقريبًا الخالة الحديدية . (المترجم)

« آه ، نعم ، كنا نعمل للتو الواجب المدرسى » .

« هذا واضح » وراحت تقلب بـصرها من الزجـاجـة الزبرجـدية إلى المقاعد المقلوبة ، ثم رفعته إلى فستان هانز فايفر ذى المربعات الزرقاء ، هنالك أدرك هانز أنه لا يزال يرتدى ثياب السيدة فندشايد ، فانكب يخلع عن نفسه الفتنة الأنثوية من كل اتجـاه ، وبدا ما توجهه إليـه خطيبته الواقفـة أمامه من حديث ، كما لو كان حديثًا من بعيد :

« هل يمكن التحدث معك الآن حديثًا عاقلاً ؟ أم أنك . . . » .

« كلا ، لست كذلك » .

« أنت لا تدرك على الإطلاق ، كم هو مُـزرٍ كل هذا ، كيف يتـسنى لشخص ناضج أن يجد سـعادةً فى مثل هذه التصرفات الصبـيانية ! هل تبلّد حسك إلى هذا الحدّ ؟ ربّاه ، ليس بالمرء حـاجة إلا لأن ينظر إلى وجهك ، إنك تبدو مثل تلميذ الثانوى بالضبط . . بل أكاد أقول مثل تلميذ بالإعدادى » .

« قد لاحظت هذا طبعًا ، وإنى ليزداد سنى صغرًا ، ويمكنك أن تهدى إلىّ كارل ماى (*) فى عيد الميلاد ، ومع بداية السنة القادمـة سأعاود الاعتقاد فى طائر اللقلق » . (**)

(*) كارل ماى Karl May (١٨٤٢ - ١٩١٢) كاتب ألمانى ، وضـع قصصًا وروايات عديدة وجذّابة عن الهنود الحمر وعن الشرق ، تتسم أساسًا بالخيال الجامح وبالبعد عن الواقع ، بلغت كتبه حوالى ستين مجلدًا تستهوى الشباب والأطفال ويتسلون بها . (المترجم)

(**) اللقلق طائر ذكرت الحكايات الخرافية عنه فيما مضى أنه هو الذى يأتى بالأطفال الصغار ، فلو قيل جاء اللقلق لأسرة ما فمعناه أنها رُزقت بطفل . (المترجم)

« دعك من المزاح . بدايةً هـناك سـؤال : مـا المدة التى تعـتـقـد أنك ستمكثها هنا ؟ »

« سأؤدى امتـحان الثانوية لدى عيـد الفصح (*) وربما أرسب أيضًا فى هذا الامتحان بسبب اللغة الألمانية » .

« لو كنت إنسانًا ذا ذوق وتحـضر لما احتـملت ثلاثة أيام فى هذا العُش المتعفّن الممل » .

عندئذ غضب هانز . فهو لا يسمح لأحد بأن يقدح فى بابنبيرج .

« أنت تصفين بالعفن مكانًا ليست به رائحة الأسفلت ، وتصفينه بالملالة وهو الذى لم يصبه التـرهل ، وأنا أرى أن الحال هنا رائع . ثم إننى أقوم هنا بدراسات » .

« لو أنك كنت تريد رؤية مدرسة ثانوية ، لكان بمقـدور الدكتور برانت أن يطلعك عليهـا فى برلين ، وكان من الممكن أيضًا أن يصطحـبك معه إلى إحدى الحصص تحت أى دعوى ، فلست بحاجة للتسكع شهورًا بأكملها هنا كتلميذ مصطنع » .

« أتسكع : صحيح ، لكننى أجد الحياة هنا نعيمًا . لقد زاد وزنى ثمانية أرطال » .

(*) عيد الفصح هو أقدم الأعياد المسيحية ، ويحتفل به لما ورد فى العهد الجديد عن قيامة المسيح ، وهو يوافق الأحد الأول بعد اكتمال أول بدر فى ربيع العام ويقال أن تسميته منسوبة إلى أوستارا Ostara التى يقال أنها كانت ربة الربيع عند الجرمان .(المترجم)

« المرء يذهب إلى فسترلاند (*) أو إلى جارمش (**) للاستجمام حيث يمكن أن تأخذنى معك أيضًا وتكون بين بشر ، فى أى مجتمع أنت هنا الآن؟ أصدقـاؤك هم أولاء الذين رأيتهم ، أولئك الفـتية الذين لم تكـد تستطيع أن تحمينى من إهاناتهم . وطبعًا أنت تبدو أمام نفسك عظيمًا لكونهم يقرون لك بزعامة عصابة اللصوص ، لقد صرت على كل حال منعدم الطموح بصورة مزرية » .

« حبيبتى ماريون ، أنت ينقصك الحسُّ الرومانسى » .

« رومانسـية اللصوص الجمـيلة . إذن فأنت ترى نفسك صـورة ما من شرطىّ كوپنيك (***) عزيزى إنك مخـطئ . لقد كان يريد بفعلتـه الصعود لأعلى ، أما أنت فتنحدر ، ثم إنه كان يخاطر بشىء ما ، أما أنت . . . » .

« هذا بعينه هو أظرف ما فى الأمر ، إذ أن شيئًا لا يمكن أن يمسنى بسوء » .

« شىء لطيف ، ومـا على المرء إلا أن يرى أين تبدد حـياتك ، أيكون فراشك ولابد هو ذاك الصندوق ؟ وليس لك آخر الأمر حمام » .

« لهذا الغرض يوجد النهر » .

(*) فسترلاند Westerland منطقة فى ولاية شلزفيج هولشتاين . (المترجم)

(**) جارمش Garmisch منطقة فى ولاية بافاريا. (المترجم)

(***) كوپنيك Kopenick ضاحية فى جنوب شرقى برلين ، اشتهرت بحادثة سميت باسمها Köpenickiade وصارت علامة على مقالب الأفاكين والمخادعين ، حيث قام صانع الأحذية ڤيلهلم فويجت W. Voigt (المتوفى سنة ١٩٢٢) بارتداء زىّ شرطى والسطو على خزانة المدينة عام ١٩٠٦ . وصارت هذه الواقعة موضوعًا لأعمال أدبية عديدة ، فكتب عنها ف . شيفر رواية عام ١٩٣٠ ، وكتب كارل تسوكماير مسرحية عنها سنة ١٩٣١ م. (المترجم)

« عـزيزى هانز ، الآن هـناك شىء آخـر : فـأكـاديميـة الفنـون تنتظر محاضرتك، والمسـتشار التجارى فون كايـزر قـدّم لنا دعـوة لرحلة بالسيارة إلى دالماتين (*) وسوف يأسف آل إرنيمان جداً إذا لم تأت إلى حفلهم الصيفى بالحديقة ، ولقد وضعت بالفعل تصميم فستانى لهذه المناسبة » .

نظر هانز فـايفر إلى الفـراغ . يا للعجب ، كم يبـدو كل هذا له الآن بعيداً وغريباً ، هل كان فى برلين من قبل ؟ حاول أن يتصور نفسه فى مسكن العزوبيـة ، وحجـرة عمله ذات المكتب المكتسى بغطاء من الجلد ، والمكتبة القيمة التى تغطى الحوائط ، وحجرته للمـوسيقا وبها تمثال بلوتز وعلى وجهه مسحـة الحزن ، تذكر صوره ، حقـائبه ، كتبه ، قطعه الـفنية المصنوعة من البرونز ومن الصلصال ، كل ذلك عليه الآن غشـاوة ، وتغشاه ظلمة ويحول نوع من الانغلاق دون استكناه حقيقته .

كانت ماريون قد وصلت ساعتئذ إلى الجزء الثالث من محاضرتها .

« وأخيـراً ، ما الأمر بالنسـبة لى ؟ هل فكرت فى ذلك مرةً ؟الجـميع يسـألوننى عنك ويُبدون مـلاحظات غـبيّـة ، لقد سـئمت من أن أكـون أنا وخطيبى الهارب أضحوكة فى كل مكان ، فليس من أجل هذا صرت خطيبة لك يا عزيزى . قيل عند أسرة دومـونـت أن أمرنا قـد انتـهى ، والدكتور أولريش عـاد يتعـقبنى من جـديد ، وأنا لا أفكر فى أن ألعب دور الخطيـبة المرهونة يوماً واحداً بعد الآن ، أفهمتنى ؟ »

(*) منطقة جزر فيما كان يسمى سابقاً بيوغوسلافيا . (المترجم)

فهم هانــز فايفر ولاريب ، فـقد كـانت تتحدث بصـوت عالٍ بما فـيه الكفايــة ، ووصلت الآن إلى ختام خطبتها وأعلنت إنذارها :

« سأقلع عائدة فى غضون ساعة ، لـن أبقى دقيقة واحدة أكثر من ذلك فى هذا المكان القفر ، فالوضع هنا يصيبنى بالقرف ، وعليك الآن أن تقرر : إن لم تعُد مسـاء غد إلى برلين ، فسأتخذ الـلازم من جانبى ، سوف يكون أمامك هنا بعض الأمور ترتبها ، مساء اليوم تحزم حقائبك . . أمْ . . . ».

* * *

وحزم هانز حقائبه حين حلّ المساء . وكان قد وعى كل ما قالته ماريون له ، ولابد أنه سيـعودُ يومًا ، ثم إنها أيـضًا بغَّضت إليه كل شيء وأفـسدت سحره ، حتى إنه لا يفهم إطلاقًا كيف تسنى له قبلُ أن يستسيغ العيش هنا .

لكن حزنًا لا نهائيًـا جثم على نفسه ، وأراد أن يقول للسيـدة فيندشايد بضع كلمات ، لقد كـانت ودودة ومُتعاونة جدًا معه ، وتولت حـزم الأمتعة بنفس الدرجة من العناية التى أولتها من قبل لفضّها ، لكنه لم ينبسْ بكلمة .

ليس هكذا يا سيدة فـيندشايد . لقد أخذت تتـحسر بلا انقطاع دون أن يمنعها ذلك من مواصلة عملها :

« يا خبر ! يا ربى ، من كان يظـن هذا ؟ وفجأة هكذا ! من المؤكد أن السيد هانز أحيانًا ما يقوم بأشياء تثـير الغضب شيئًا ما ، ولكن الأمر لم يكن سيئًا إلى هذه الدَّرجة ، إن السـيـدة الوالــدة متشـددة جـدًا فى الحقيقـة . يا خبر !»

فى الصبـاح التالى تناول هانز وجبـة الجلاّد : كاكـاوًا وبيضًا مـقليًا مع البطاطس المحمّرة ، وكل هذا موضوع بكمـيات مضحكة فوق المائدة ، لكن شهـيته لم تَعُـد شهيـة تلميذ الثـانوى ، ولم تكن هناك أيضًا شنطة مـدرسة تنتظره، ولا مفردات إغـريقية يجب أن يمرّ عليها سريعًـا ، وأما شطائر فخذ الخنزير المملح التى جهزتها أيضًـا السيدة فيندشايد فليست مخصـصة لفسحة الساعة العاشرة .

ثمّ حان أوان الرحيل ، فأخذ حقيبة صغيرة فى يده - أما حقائبه الكبيرة فسترسل لاحـقًا ، ووضع المعطف الصيفى فوق ذراعه وقبـعة الفراء الرمادية على رأسه ، كانت هى نفس القبعة التى جاء بها أول مرّة ، يشعر أنه يبدو بها الآن كرجل عجوز .

كان وداعه من السيدة فيندشايد قصيرًا ، ولكن مؤلمًا ، وكان يوشك أن يُقبلها ، وبعد أن اتخذ طريقه بفترة كافية ، مسحت عينيها بطرف مئزرها .

* * *

كان الطريق إلى المحطة يسـتغرق دقائق قليلة ، وكـان يمر على المدرسة الثانوية ، وكان هانز يستـطيع أن يسلك طريقًا آخر ، ولكن لم لا يلقى نظرة وداع أخيرة على ذلك الصندوق القديم الذى أضحى حبيبًا إلى قلبه ؟

ثم يا للغـرابة ، إنه لم ير البناء من الخـارج بصورة واضـحة من قـبل كالآن، فـيوما بعـد يوم كان يمشى ذلك الطريق الروتينى ويـدلف من البوابة

الحديدية العتيقة ذات المقبض الهائل مسرعًا أحيانًا ومتهاديًا أحيانًا، وأحيانًا لا يدخل بالمرة مثلما حدث في ذلك الصباح الذى لا يُنسى، حين علق لوك لافتته، ولم يكن يعرف السور الطويل الذى يفصل بين فناء المدرسة والشارع إلا من الداخل فقط.

كان الوقت قبل العاشرة بقليل، والدرس فى كل الفصول على أشدّه، كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها، والدّوى ينطلق من الفصول إلى الشارع الهاجع.

ظل هانز واقفًا وأخذ ينصت، هناك كان الصف السادس (*) أصوات صغيرة عالية ورفيعة كانت بصدد تصريف الأفعال، كانت أصوات الجوقة تردد معًا : "Amo - amas - amat - amamus - amatis - amant" (**) واصل السير بضع خطوات، فوقه كان الصف الرابع، ثمة صوت واجف موغل فى الحدّة يتحدث عن نهر الأمازون، كل الأمور تسير فى انطلاق أكيد للأمام، قال هانز لنفسه إن هذا يخول للمرء الحصول على درجة ضعيف، أو على أكثر تقدير ضعيف ومقبول.

وهناك عاليا ناحية ركن البناية كانت السنة النهائية، فصله هو! كانت حصة د. بريت، سمع هانز صوتًا خشنًا مقرقرًا، وكانت

(*) الصف السادس هو أول سنى الدراسة بتلك المدرسة الثانوية ويستمر الصعود فى صفوفها حتى الصف الأول الذى يمثل قمة الهرم المدرسى بها. (المترجم)

(**) أحب، تحب، يحب، نحب، تحبون، يحبون، باللاتينية فى الأصل. (المترجم)

تتـخلله أصـوات أخـرى : هوزيمان ، وشـرادر ، وكنيـبل ، ورروزن الطويل ، لم يكن بوسـعـه أن يفهـم ما يقـولون ، لكنه تعـرف على أصواتهم ، كلهم كانوا حضوراً ، بدونه ، وكانوا يتصرفون كما لو لم يحدث شيء . لم يستطع هانز أن يسـتوعب كيف أن هذا كله يواصل سيره الآن بدونه ، كـان مقعده خاليًا ، ربما لم يلفت ذلك انتـباه أحد بالمرة ، وربما يجلس واحدٌ آخر فيه في الأيام المقبلة ، ربما يكون ذلك غدًا ، وبعد عدّة أسابيع يكون قد لفّه النسيان .

كانوا جميعًا مـوجودين الآن ، هنا وإلى أعلى خلف المنصة يقبع على الحائط فريتس العجوز ، وعلى سـقف القاعة الاتجاهات الأصلية مرسـومة ، وشناوتس يجـد الجميع أحـمق ، وبريت يدعو لتـمارين بدنية، وبومل يُدَرِّس الفيزياء في طبعة شعبية . . . .

بلليم - بلليم - بلليم - بم - بم .

انتفض هانز .

وسَرَتْ في المبنى القديم أيضًا رجفة ، بدا الحال كما لو كان امْرؤٌ قد ضَرَبَ بعـصًا فوق خلية نحل ، فـانطلق طنين وهدير وأزيز بمئات الأصوات ، وبدا السور العتـيق كالذى سيتصدع فـجأة بتأثير كل هذه الحيـاة الفـتية الـفوارة التي ينطوى عليـها ، وأخـذ العزيف والهـديل يزدادان اضطرامًا وانصبابًا في الفـضاء ، في فناء المدرسة . لقد بدأت فسحة الساعة العاشرة .

ظل هانز واقفًا كـأنما زرع في المكان . ماذا ينتظر بعد ؟ تردد في داخله صـوت الجرس بلليـبم . بلليبم . بهـذا الرنين بدأت ذات يوم حياة ما . لكم كان كل هذا عجـيبًا . لوك : واصل القول . كنيبل : مرّةً أخرى تنجز شيئًا مـا . فايفر : اجلس ، أنت عبيط . بلليبم . . بلليبم . الآن لا يعني هذا إلا شيئًا واحدًا : الرحيل .

أجل ، لقد ذهب بالفعل .

ولكن ليس إلى المحطة .

وإنما عائدًا إلى المدينة .

بعد نصف سـاعة كان يجلس ثانيـةً في فصله ، على مقـعده ، بجوار إرنست هـوزيمان ، خلف رودي كنيبل ، وراح يترجـم مطالعة فرنسية ، وتصرف كما لو لم يحدث شيء .

ماذا كـان هنالك على الإطلاق ؟ لا شيء البتة كل مـا في الأمر أنه غـاب عن الحصـتين الأوليين « بسبب آلام حـادة في الأسنان » ، هكذا نصّت شهادة كتبتها له السيدة فيندشايد .

* * *

حان موعد الحفل الصيفي لاتحاد التـجديف والسباحة ، كان المطر عادة ما ينزل في ذلك اليوم ، وكان الحفل يُقام دائمًا في إحدى الصالات ، وكانت الصالة كـما هي العادة مكتظة بالبـشر ، كانت هذه هي المناسبـة الاجتماعـية

الوحيدة فى فصل الصيف ، والتى تعد المشاركة فيها نوعًا من اللياقة والذوق، وفضلاً عن ذلك فإن كل من يفكر بصورة عصرية من أبناء بابنبيرج يرى من واجبه إثبات اهتمامه بالرياضة بهذه الطريقة .

كان الهواء فى الصالة السفلية رطبًا ومن ثم ثقيلاً ، حتى لقد يظن المرء أن بإمكانه تقطيع هذا الهواء شرائح ، وأخذ العرق يتصبب من السادة المتزيين بحللهم السميكة السوداء وأقمصتهم ذات الصدور المنشاة ، فكانوا يخرجون من وقت لآخر لاستبدال ياقاتهم القائمة التى أضعفها العرق تمامًا بأخرى جديدة وقوية ، أما بنات بابنبيرج ، فكُنّ أفضل حالاً فى هذا الشأن حيث كنّ بفساتين الرقص القصيرة الخفيفة فى تواؤم تام مع درجة الحرارة الصيفية ، غير أن الآنسة هانى أكسماخر تجاسرت بصورة شديدة فى هذا الخصوص وحققت بذلك نجاحًا تامًا . كان الحاضرون قد أجمعوا على وصف فستانها بأنه أبعد ما يكون عن الحياء ، وبعد ثلاثة أسابيع تمت خطبتها .

لم يكن فستان الآنسة هانى أكسماخر هو محور اهتمام الحفل ، وإنما كان الاهتمام الحقيقى هو ما حظيت به مسابقة يانصيب التنبولا الكبيرة ، التى وضعت تحت تصرف الآنسة إيلاّ مويزيتسال ، وهى مخلوق ضئيل وودود ومُسنّ ، امتلأت حياتها التى امتدت فيها عذريتها حتى ذلك الوقت المتأخر بمثل هذه الأعمال الشرفية ، وهو أمر يحقق الغاية المرجوة منه .

كان هناك حدث هام جدًا فى ذلك اليوم . فثمّة متبرع لم يُعلن اسمه منح مسابقة اليانصيب ثمن زورق للسباق بكل مشتملاته ، زورق بمعنى الكلمة من ماركة كليبر ، له مقعدان ، ومن النوع الذى يُطوى ، اهتزت

المدينة كلها واتحـاد السباحـة والتجديف خـاصة لهذا الحـدث ، ليس بسبب التبرع، فكثـيراً ما سعى الموسرون إلى حب الناس بتـقديم تبرعات معـتبرة ، ولكن ذلك كان يتم للدوافع اجـتماعيـة أو تجارية ، وبالتأكيد لا يـكون المتبرع مجهولاً .

استـمع هانز فايفر مُـفترّ الثغـر إلى المحاورات العامـة لحل هذا اللغز ، وشارك فيها بقدر ما يسمح له قدره المتواضع كتلميذ بالثانوى .

لقد كانت له أسبابه الخاصة للمشاركة فى الحفل الصيفى ، ولعدم وجود بدائل أخرى انضم لرفقـة مستشار الصـحة شتاينهاور ، وعلى كل حـال فقد كانت علاقاته بهـذا الكهل ذات طبيعة غير منتظمة إلى حد مـا ، فبعد الزيارة التى قام بها هانز إليه والتى انتهت بعد منـتصف الليل بالتآخى بينهما ، أصبح كلاهما غريبًا عن الآخر مرّة أخرى ، ولم يعـد أحدهما يهتم بالآخر كثيراً ، اللهمّ إلا أنه كان يحدث بين فـينة وأخرى أن يدعو مستشـار الصحة - حين ينتابه الضيق التـام بالدّنيا - هانز إليه تحت أى دعوى ليدق مـعه عنق عدد من القوارير ويشربا من جديد نخب التآخى .

لم تكن لمستـشار الصحـة أدنى علاقة بالرياضـة ، وبخاصة التـجديف والسباحة ، لقد كان أكثر مـيلاً للترطيب من الداخل ، لكنه ما كان ينبغى له أن يتغـيب عن الاحتفـال الصيفـى ، وهو عضو شـرفى فى اتحاد السبـاحة والتجديف منـذ أعوام طويلة ، وراح المستشار يشـرح لصديقه الشاب مراعياً ما يلائم الموقف : « أجمل شىء فى الصيف قاطبة هو العطش » . ولم يكن هانز فايفـر يشعر بكثير رضًـى وهو واقع بين استعراض لزجـاجات الشراب

يتنامى بصورة تبعث على الريبة ، ولكنه كان يستطيع أن يراقب من موقعه هذا الطاولة التى تجلس عليها أسرة كناور من حيث لا يلحظه أحد .

كانت إيفا تجلس بادئ الأمر بين بابا وماما فى عناية تامة ، وأخذت تشرب خلسة نخب هانز عدّة مرات ، فكان هانز يجرع بسرعة كأسًا كاملة فى كل مرّة تومئ إليه ، لكن البروفسور كراى ظهر بعد ذلك فجأةً وجلس إلى جوار إيفا ، واعتبرت السيدة كناور أن الوضع هكذا صحيح ، فبدأ هانز من هذه اللحظة يحول نظره بعيدًا بصورة ملحوظة ، وتيقن من أن شناوتس يبدو اليوم فى هيئة أبهى كثيراً من هيئته فوق الأرجوحة ، وكان يكثر من الحديث إلى إيفا ويلح فيه ، ولم يكن سبيل لإنكار أنها كانت بدورها مصغية إليه معظم الوقت . كان الأمل لا يزال يحدو هانز فى أن يرقص شناوتس معها ، لكنه لم يفعل ، والذى حدث هو أن جماعة من الشبان كانوا يتدافعون فى كل مرّة نحو إيفا عندما تبدأ الموسيقا ، كانوا بالتأكيد أكثر فتيان بابنبيرج جسارة ، مثلما كانت إيفا هى الأخرى أجمل فتاة فى سنها ، وهو أمر لا سبيل لإنكاره برغم أنف هانى أكسماخر ذات الملابس الخفيفة ، وفى كل مرة كانت إيفا تتلقى من تحت المائدة تحذيراً أمومياً صارمًا فترفض الرقص شاكرة ، وكانت السيدة كناور تُعد الأمر هكذا صحيحًا ، وكان البروفسور كراى سعيدًا لأن الفتاة الذكية تفضل على ذلك مسامرته .

أحس هانز بالملل ، ولم يكن صديقه هوزيمان قد حضر ، ثم إنه لم يكن على علاقة طيبة بروزن الطويل ، أما أكرمان فقد كان محشوراً بين أفراد أسرته الكبيرة العدد ، وأما رودى كنيبل - وهو الأمل الوحيد له الآن ، فكان

مختفيًا بصورة دائمة ، وكانـت إيلاً مويزيتسال منهمكة فى إعداد اليانصيب، وبذلت جهدًا فائقًا على طاولـة آل كناور ، وأنشأت تقول : « آخر ورقة على الطبق ، تناوليها يا آنسة كناور ، فهى تجلب الحظ ! » وتتردد إيفا . ففى العام الماضى أخذت أربع عشرة ورقة يانصيب وربحت آلة حلاقة ، لكن البروفسور كراى الشهم كان قـد دبر لها كسب اليانصيب ، وكسـبت إيفا زورق السباق وجنّت بالسـعادة ، وجـعلت تطوق بالتناوب عنق أبيـها وعنق أمـها - كـاد البروفسور كراى يناله قسط من ذلك - وأخذت تغنى بلا انقطاع :

« أصبح عندى زورق سباق ، أصبح عندى زورق سباق » .

كـان العُرف على أن يغـادر تلامـيذ السنة النهـائيـة الحفل خلسـة عند العاشرة، أما تلامـيذ السنة قبل النهائية فكانوا يغادرون قـبل ذلك فى التاسعة والنصف ، نجح هانز فـايفـر عندئذ فى أن يدرك إيفـا فى أحد الأركـان وأن يهنئها . كانت لا تزال خارجة عن الوعى . قالت :

« وأعرف الآن أيضًا ممّن يكون الزورق ! »

« حقًا ؟ »

« إنه من كراى طبـعًا . فـأنا لست غبيـة ! وقد حـرص أيضًا على أن أحصل على اليانصيب الصائب ، أليس ذلك لطفًا منه ؟ »

لم يقل هانز فـايفر شيـئًا . وعاد إلى البـيت. وفى الطريق راح يراجع حساباته : مـئة وأربعة وستون ماركًـا ، يضاف إليها سبع ماركـات وعشرون فنيـجا أجر الشـحن والتغليـف وفطائر للآنسة مـويزيتسـال بثلاث مـاركات وخمسين . . .

لكن البروفسور كـراى لم يكن هو الآخر سعيداً ، فإن كـان قد احتمل لضغط الضرورة أن يُنسب إليه التبرع بزورق السـباق برغم مقاومته الشديدة ، إلا أنه لم يكن بوسعـه أن يتعزى عن أن يظن به تدبيـر خديعة فى أمـر ورقة اليانصيب .

* * *

سرعان ما تبدأ الأيام الحارة بعد العيد الصيفى .

كانت السماء تبـعث بحرِّها فيحصل تلاميـذ الثانوى على عطلة القيظ ، لكن البشر غالبًا ما يبدون فهمًـا ناقصًا لقضاء السماء ، فكناور لم يكن يعانى كثيًرا من شدَّة الحرارة ، وشرع كليمكه يرش قاعات الدّرس وأبهاء المبنى وفناء المدرسة بالماء فى هِمـَّـةٍ ، وحرِص على ألاّ يتخطى مـقياس الحـرارة بالمدرسة النقطة الحرجة .

فى أثناء ذلك كانت السنة النهائية تجلس لدى شناوتس فى قاعة الكيمياء وتصارع النوم فى قنوط . كلمة «تصارع» جـاءت هنا للمبالغة ، فلقد تدرّب التلاميـذ على أسلوب النوم جلوسًا دون أن تتدلى رءوسهـم ، وبرع بعضهم فى ذلك إلى حدّ مُدهش ، بل إن روزن كان يستطيع أن يُبقى عينيه مفتوحتين أثناء ذلك ، وكـانت موهبـة هوزيمان فى ذلك ممتازة ، غـير أنه كـان ذا ميل شديد للشخـير ، وكان يبدو أحيانًا مزعـجًا ، وكان كثيراً مـا يغفل عن نهاية الحصة أيضًا ، ويبـقى وحده مستنداً إلى مقعده ، بينمـا يكون أكرمان قد دق الناقـوس مـن وقـــت طـويل والفـصل قـد ولَّى . كـان هوزيمان يؤدى كل شىء بإتقان .

حتى ميلفورم المتواضع اشترك فى سـباق النَّوم ، وكان ميلفورم هو فتى الفصل الفـاضل ، وكان يثير أقل قـدر يمكن تصوره من الضجـيج ، وحتى حين كان يُنادَى عليه ، كان غالبًـا ما يرد بصمت صامت ، ولم يلاحظ هانز فايفر وجود ميلفورم على الإطلاق ، إلا مع مرور الوقت . كان ثمّة نبأ يتردد عن ميلفورم بأنـه يوزع الأبحاث سرًا ، والحق أنه لم يكن سبيـل إلى التحقق من ذلك ، حيث إنه كان بهذا الفعل يسعى لراحة أقرانه فى الفصل ، وهناك حقيقة ماثلة عنه وهى أنه كان يبقى دائمًا بمنأى عن كل مسرّات الحياة ، فإذا ما قيل له : « مـيلفورم ، غدًا عندنا حـفلة شراب . أنت لابد قادم إليـها ؟ » عندئذ كان يجيب : « كلا كلا ؛ فليس هذا بطريق السلامة » . لكنه لم يكن يرى إثمًا فى النوم أثناء حصة الكيمياء ، وكان يفعل ذلك بوجدٍ حار .

على أن هانز فـايفر لم يـكن يستطيع النـوم ، حيث كـان يعانى أرقًـا شديدًا ، فثـمة ما يدور بخلده . كان قـد كتب خطابًا إلى برلين ، وتلقى ردًا من ماريون ، خطابًا يفـيد بأن الإجراءات اللازمة قد اتُـخذت . ربما كان من الخير أن تمّ الأمر على هذا الوجه ، ومن الخير دائمًا أن تتمّ الأمور كما تتم ، على الأقل هذا مـا لابد للمرء من اعـتقـاده ، وبعد ذلك يصـير هذا أيـضًا صحيحًا .

انطرح رودى كنيبل برأسـه للأمام فأيقظه ارتجـاجه ، وعندئذ راح ينظر عبر النافذة المفتوحة المطلة على مدرسة البنات الثانوية وأعرب عن تأملاته :

« يا هانز ،تصوّر أن كل هذا المبنى ملىء بالبنات » .

فتنحنح هانز موافقًا : «هم» .

« وددت لو كنت أنا أيضًا فتاة ، إذن لقضيت اليوم كله فى معيّة الحلوات الصغيرات ، وى ، إن ذلك يبدو لى رائعًا » .

« خطأ . فلو كنت فتاةً ، لما كانت لديك فى الفتيات رغبة » .

« على كل فأنا أقصد بذلك شيئًا آخر أيضًا » .

« وهذا سببه حرارة الجو » .

« ينبغى عليهم أن يبعثوا إلينا ببعض منهنّ ، فمن شأن ذلك يا فتى أن يبعث الحياة فى كوخنا » .

بدا صوت المعلم فى أثناء ذلك كصوت واعظ على بُعد كيلو مترات فى صحراء .

« يتكون كبريتيد الهيدروجين من تأثير حمض الكبريتيك على سلفات الحديد وفقًا للمعادلة . . . » .

شرع يشخبط على السبورة شيئًا ما وهو يتوهم أن الجميع يلقون بالهم إليه .

كان رودى كنيبل لا يزال يحملق ببصره عبر النافذة المشرعة ، لعله بإمكان المرء أن يحملق بصورة أفضل وهو فى قاعة الفيزياء هناك . لكم يكون ذلك بديعًا ، لكن هاتيك العصابة تغلق دائمًا نافذتها .

لماذا إذن ؟

« لكى لا يكون الأمر بديعًا » .

« لابد أن يخلّى المرء يومًا بينهن وبين هذه العادة » .

قطب هانز جبينه وأخذ يفكر .

الكبريت عنصر منتشـر جدًا، فهو يوجد فى الطبيعة أحيـانًا نقيًا وأحيانًا مندمجًا بالمعادن ، وهو مادة كريستالية ضاربة للصفرة ، وزنها الذّرى ٣٢,٠٧ وتنصهر عند درجة ١١٢,٨ مئوية .

كان هانز يعـرف كل ذلك أثناء دراسته الثـانوية ، ولكنه نسيه فيـما تلا ذلك من وقت ، والآن استعاد ذهنه استحضاره .

فى ذلك الوقت كان شناوتس يصب نسبـة من حمض الكبريتيك على سلفات الحـديد ، فنتج عن ذلك تكوّن غازى نشط تعاف الأنوف رائحـته . قال شناوتس :

« كبريتيد الهيدروچين هو مادة فـعالة ثقيلة الظل ، ورائحته النفاذة تشبه رائحة البيض الفاسد وغيره من الأشياء السيئة الأخرى » . فندت عن الفصل ضحكة مضطرة : « هؤ .. هؤ .. هؤ .. هؤ » .

« أنت يا رودى ، أنا أعرف الآن كيف أجعلكم تقلعون عن ذلك » .

« وما ذاك ؟ »

عندئذ كان هانز قد قفز وأخبر شناوتس بأن الرعاف قد أصابه ، فسمح له بالخروج ، فانطلق إلى صنبور الماء وغسل عن نفسه الألوان المائية ثم انطلق

إلى البدروم ودلف إلى حجرة التدفئة ، فوجد بها سترات ، ومآزر ، ومعاطف بيضاء ، وكلها قديمة .

وبعد عشر دقائق كان عامل شاب يتسكع عبر ممرات مدرسة البنات الثانوية ، وكان وجهه متسخًا ومزيتًا ، وكذلك يداه . وكان يتأبط لفافة .

عند قاعة الفيزياء استوقفته مُدَرِّسة الإشراف . كان الوقت هو وقت الفسحة .

« ينبغى أن أتفقد وصلات المياه » .

« أهكذا ، إذن فلا يعطلنّك شيء » .

ولم يعطله شيء . وفى قاعة الفيزياء فك اللفافة ، ووضع فى زجاجة مملوءة بسائل ما شيئًا أسود وتشمم الزجاجة بسحنة راضية ، ووضع كل هذا أسفل قاعدة طاولة العمل الكبيرة - وهى قاعدة مغلقة من كل الجهات - واختفى .

وآن أوان دخول السنة النهائية فى مدرسة البنات متهادية إلى صالة الفيزياء، وكانت المديرة هي التى تدرسها .

بدأت الحصة .

بدأت الحصة بإغلاق النوافذ بإحكام ، وكان هذا الأمر يتولاه تطوعًا ثلاث من النساء الواعيات بواجبهن .

وما هو إلا وقت قصير حتى ينتاب المديرة القلق ، فتقلب بصرها فيما حولها بارتياب وتسأل آخر الأمر :

« لست أدرى . . أيكون مع إحداكن جبن فى شطائرها ؟ »

كلا ، ليس معهن جبن .

وسرعان ما تبدأ فى التشمم مرّة أخرى .

« لا أدرى ، لازالت تفوح رائحة غريبة جدًا » .

ولا تنتهى الرائحة ، وتحاول المديرة أن لا تعبأ بهذا الأمر ، فلعله يكون توهُّما .

ولكنه ليس توهُّما .

وتنفجر فى نهاية المطاف : « ما هذا إذن ؟ ألا تشمُمْن شيئًا ؟ »

« بلى » .

« ما رائحة هذا فى الواقع ؟ »

فتتصدّى إحداهن للرد : "هذه رائحة . . » .

ولا تستطيع أن تكمل قولها وتنفجر بالضحك .

وتقول أخرى : « كلا ، إن هذه الرائحة أقرب إلى . . » .

وتضج هى الأخرى ضاحكة ، وشيئًا فشيئًا ينفجرن جميعًا ضاحكات،ويصدر عنهن نفخ وصرير من أثر اللهو والمرح .

عندئذ يتخذ أقصى قرار يمكن اتخـاذه هنا : تفتح النوافذ ،فيندفع الهواء النقى داخل القاعة . آآآه !

لكن ذلك لا يجدى نفعًا ، فالرائحة تبقى أكثر نفاذًا ، فتقرر المديرة التى تجلس فوق مصدر الرائحة نوعًا ما ، قائلة : « إنها رائحة زراعية » .

إذن فالرائحـة من الخارج ، فتغلق الـنوافذ على وجه السرعـة ، وبعد دقائق ثلاث أخرى يقوم الفصل بفرار رهيب .

تقطع الحصة . ويستدعى المستشار الهندسى .

« سيادة المديرة ، هل لنا أن نذهب لبيوتنا ؟ »

« سنذهب إلى الفصل ونراجع قواعد النحو الفرنسى » .

صـارت نوافـذ قاعة الفيزياء مفتوحة على مصاريعها ، الآن ليس هناك ما يعوق التلصص من جانب مدرسة البنين ولكن المرء لا يرى إلا مقاعد خاوية.

* * *

فى اليوم التالى ظهـر رجل ضئيل الحجم أشيب ، وقـدّم نفسه على أنه المستشار الهندسى وحاول الوصول إلى علّة هذه الرائحة ، وقد وصل إليها ، وتقدم إلى حيث المديرة ليقدم إليها تقريره حول المسألة ، وكانت المديرة تعطى حصة فى اللغة الألمانية ومنهمكة بشدة فى أدائها ، ولكن على غير رغبة منها،

وطرحت إيفا برياء ناصع سؤالاً : لماذا لم يتقدم فاوست لطلب يد جرتشن؟ (*) ولم تستطع المديرة أن تجيب على ذلك ، فهذا السؤال لم تتناوله الشروحات المتوافرة ، ولذا فقد فعلت المديرة ما يفعله كل مدرس محنك فى مثل هذه الحالات : لقد وجهت السؤال بدورها للفصل ، وكان النجاح معقولاً .

« لم يُرد فاوست ذلك . لأن جرتشن كان لديها طفل » .

« تفضلى بالجلوس . وأنت تفضلى » .

« لم يكن ذلك فى وسع فاوست . لأن جرتشن كانت متزوجة بالفعل » .

« . . ؟ . . » .

« طبعًا ، فقد كان لديها طفل بالفعل » .

ودق الباب فى اللحظة المناسبة . السيد المستشار الهندسى يطلب اللقاء .

المستشار الهندسى هو رجل يختص بعمليات البناء ، وهو لا يستطيع أن ينى من تلقاء نفسه ، كان ذراعاه طويلين لحد مفرط ، ويداه تصلان إلى قصبتى ساقه ، فالرجال الكهول تقصر قاماتهم مع الزمن نتيجة للتيبس وتتجعد غضاريف العمود الفقرى ، لكن الأذرع تحتفظ بطولها ، فليس فى الأذرع غضاريف .

وجاء تشخيص الحالة بالنتيجة التالية : أصبح الخشب فى قاعة الفيزياء هشًا ، والرائحة تنبعث من فطر ذى اسم لاتينى ، ويجب أن تجدد قاعة الفيزياء من أساسها .

(*) جرتشن هى حبيبة فاوست فى رائعة جوته التى تحمل نفس الاسم « فاوست » عنوانًا لها . (المترجم)

فيما بعد اكتُشف أثناء التجديدات الموضع الذى يكمن الداء فيه : مجرد زجاجة آثمة . لكن أحدًا لم يلاحظهـا ، ولو أن أحدًا كان قد لاحظها لكان قد حاذر كى لا يلاحظ شيئًا .

دامت الإصلاحات فى القاعة عدّة أسابيع ، وكان لابد أن تسقط خلال هذه المدة حصص الفيزياء والكيمياء ، وهللت الفتيات لذلك .

لكنهن هللن قبل الأوان ، فلقـد استبدلت حـصص الفيزياء والكيـمياء بحصص الجبر والنحو ، وما كان هذا وضعًا يُطاق .

غير أن إيفا كانت لديهـا فكرة ، وليس يهم أحدًا إن كانت قد توصلت وحدها للفكرة أم أن هانز فـايفر الذى لا ينضب معين تقاليـعه - والذى كان وخز ضمـيره يزداد عنفًا على كل حال بسـبب فعلته فى قاعة الفـيزياء - قد ساعـدها فى ذلك بعض المسـاعدة . سـعت إيفا على كل حـال إلى المديرة وقالـت لها أنه لا يمكن الاسـتغناء بأى حـال عن الفيـزياء ، فهى فى غـاية الأهمية ، وأنهن يحببن الفيزياء جميعًـا بصورة رهيبة ، وأنهن جميعًا يأسفن لتخلفهن كثيرًا فى مادة الفيزياء ، وأن جميع الآباء يعتزمون رفع شكوى بهذا ، وإذا لم يتغير الحال فيمكن إجراء دروس الفـيزياء فى قاعة فيزياء مدرسة البنين مثلاً ، وفى صورة مشتركة مع تلاميذها . أليس كذلك ؟

« ولكن يا صغيرتى العزيزة ! إننى بالتأكـيد امرأة ذات تفكير عصرى إلا أنه . . وبغض النظـر عن أى شىء ، فـإن السـيـد والدك سـيكون له رأى مختلفٌ عن ذلك تمامًا » .

وذهبت إيفا إلى والدها .

« تتلقون الدرس مع تلاميذ الثـانوية ؟ ولكن يا إيفا ! حتى بغض النظر عن ذلك . . فإن مُديرتكن ستقلب الدنيا » .

قـالت إيفا وهى قـاصدة إلى المديـرة مرة أخـرى أن على المرء أن ينسّق الأمر بصورة أخرى فأخبرتها بأنها حادثت أباها ، وأنه متحمس للفكرة ، وأنه لا يستطيع أن يفهم على الإطلاق أن السيدة المديرة . .

« ولكنْ صغـيرتى إيفا ، لا مجـال للحديث فى هذا على الإطلاق . فحين يسمح السيد المدير بذلك ، فإننا طبعًا نوافق وبكل سرور » .

ثم عادت لأبيها مرة أخرى وقـالت له إن السيدة المديرة رحّبت بالاقتراح وتأمُل ألا يقوم هو من جانبه بوضع المشاكل .

« بل على العكس تمامًـا ! فبـودى أن أسـتطيع بذلك أن أسدى إليـهـا خدمة . . . » .

* * *

فى عصر ذلك اليـوم الخالد ، يوم اتفاق مدرسة الـبنين ومدرسة البنات على هذا الأمر ، عاودت إيفا الذهاب إلى صديقتها الموثوقة الجانب ليزبث . ولم يكن هانز فى مسكنه .

لم يكن ذلك أمرًا ذا خصوصية ، لأنهما كانا يلتقيان كلما أمكن ذلك ، وكان هانز قد تلقّى منذ وقت طـويل صفعته الأولى ، واستـحق بعدها عدّة

آلاف أخرى ، لكنه لم يتلقها ، وحتى هذا الوقت من عصر ذلك اليوم ، ما كان جديرًا بالملاحظة لو لم تهب فيه على سماء الحبيبين زوبعة شريرة .

فلقد طفقا يسيران ، كما يحدث كثيرًا ، على الربى الخلفية للغابة ، التى تمتد بامتداد السهل الذى يجرى فيه النهر ، ومنذ عدّة أيام كان يسود طقس حار لدرجة تشل الحركة ، وكانت المروج والحقول تلُوح قاتمة ، وأوراق الشجر تتدلى من غصونها مرهقةً ومتراخية ، وبدا الجو حتى بالنسبة للطيور أحرّ من أن يبعث على الغناء ، فتركت للصراصير أن تحل محلها بصريرها .

حتى الهواء بدا خامدًا تمامًا ، وكانت باخرة صغيرة تزحف فوق النهر قادمة من بعيد وتجر خلفها زورقين كبيرين ، فكان العلم الدخانى يمتد مسافة كيلو مترات فوق تعاريج النهر . كان بمقدور العين أن ترى بعيدًا ، إذ كان صفاء مريب يغلف الأجواء .

لم يكن هذا طقسًا يناسب السير لمسافات طويلة ، فهبط هانز وإيفا إلى منحدر تنمو عليه الطحالب ، ووضعت إيفا رأسها الكث على ذراع هانز فايفر وحاولت أن تحلم ، واجتهد هانز فى ألا يقلقها وتحاشى أن يتحرك أى حركة . بل إنه كاد لا يجسر على التنفس .

لكن إيفا لم تنم .

« هانز ، هل ستؤدى امتحان الثانوية لدى عيد الفصح ؟ »

« طبعًا ، لماذا تسألين ؟ »

« ألا تستطيع أن ترسب بعض الشيء ؟ »

« يمكن إذا بذلت جهداً كبيراً » .

« من فضلك يا هانز ، ابذل جهداً كبيراً ! »

كان هانز يشعر منذ بعض الوقت أن مُداعبة التّلْمذة الخالية من الهموم والتي يغيب المستقبل عن رؤاها قد نضب معينها ، لقد ازداد بصورة مطّردة اقتحام الأفكار لخيالهما .

« أتخشين إذن أن أمضى لحالى ؟ »

فقالت وهى تضغط رأسها أكثر إلى صدره : « واهًا ! »

« إيفا ، لعله بإمكانى إن . . . ما الذى أردت أن أقوله ؟ »

إنه لم يمس هذه المسألة من قبل ، وكذا لم تفعل إيفا . الآن حانت الفرصة لإفساد كل شىء .

« أقصد أنه ربما أستطيع عندئذ أن آخذك معى » .

فصعّدت إيفا إليه عينين نجلاوين وقالت :

« إنك مجنون » .

هل كان مجنونًا ؟ لقد كان فى ذلك الوقت تلميذًا بالثانوية . كان يستطيع أن يسقط القناع عن نفسه ، لكنه لم يشأ ، فهو على أى حال تلميذُ ثانوية من نوع خاص جدًا . أهو واهم ؟ لعل فى ذلك الكفاية . نتف هانز

قصلة من عُـشب وكسـرها قطعًا صغـيرة . ثم سـأل مباشـرة : « ماذا عن البروفسور كراى حقًا ؟ ، ألا يتردد عليكم كثيرًا ؟ »

« إنه من ينبغى على أن أتزوجه يا هانز » .

« نعم ، وبعد ؟ »

« لا شىء على الإطلاق ، فأنا لا أفكـر فى ذلك الآن مطلقًا . لازلت فتاة صغيرة فى المدرسة ، ولكن أتدرى يا هانز . . » .

عندئذ اشرأبّت برأسها عاليًا فى حيوية وأكملت : « حين ينبغى على أن أتزوّج يومًا - وهـو مالا أعرف مطلقًـا إن كان سـيحـدث أم لا - فلابد أن أتزوج رجلاً ذا خصوصية تامة ، واحـدًا يبهرنى حقًا ويكون أذكى منى عشر مرات : ألا ترى ذلك أنت أيضًا ؟ » وكان هـذا هو رأى هانز أيضًا . فشرع يفكر : يبهرها حقًا . . أذكى عشر مرات ، إن بمقدورها الحصول عليه .

وهنا سـرعان مـا ارتكب هانز الخطأ الذى يرتكـبه الناس فى مـثل هذه الأحوال : حاول أن يبهرها ، وأن يكون الأذكى عشر مرات .

لقد صـار فجأة مـتحدثًا زلق اللسـان ، وراح يلقى خُطُبَةً ، فـبدأ فى عرض معرفته الشاسعة وانطلق يظهر ثقافته بمكامن عقله وروحه ، ومؤكد أنه قد فعل ذلك بمزيد من المهارة . لكن لعلها لم تكن المهارة الكافية لإرضاء إيفا الرقيقة .

انطلق هانز فى حديثه ذاك من المسائل اليـومية العامة ، ثم أردف بالحديث عن التاريخ ثم انتقل إلى الفلسفة القديمة والحديثة ، وكان فى سبيله للحديث عن الفلسفة الطبيعية وعن نظرية المقادير الإلكترونية .

ولم ينطل ذلك على إيفـا ، فـأعلنت فى صـراحة : « أينشـتين أعلى من قدرات فـهمى ، وأنا أعرف أنه ربما يوجد فى العـالم عشرة من علماء الرياضيات يستطيعون أن يتناقشوا مع أينشتين ، أما الآخرون فيعصرون عقولهم عصراً أو يتظاهرون ببعض العلم » .

شعر هانز بالخيبة .

« ربما يا عزيزتى إيفا ينقصك هنا شىء ما ، وهو التفكير العلمى الطبيعى » .

« لذلك فإن لدينا ولله الحمد كراى » .

« لماذا تذكرين اسمه ؟ أنت تعرفين أن ذلك يغضبنى » .

« لو أننى كنـت أعلم ذلك لذكـرته مـراراً وتكراراً . كـراى ، كـراى، كراى! أم أنك تفـضل أن أقول شناوتس ؟ » وحـولّت بذلك مجرى الحديث .

لاحظ هانز أنه ليس على الطريق الصـحيح ، فأتاح لنفـسه برهة للتنفس ، وانتقـل بعدها للحديث بمهـارة عن الأدب . ربما كان ذلك يعنى شيـئًا بالنسبة للفتـيات الصغيـرات ، وهو هنا بالذات فى موطنه

تمامًا ، ولـم يلحظ فى حمـيته تلـك على الإطلاق ، أن السمـاء قد تلبدت بـسحب قاتمة ، بينـما يشع ضوء كـبريتى الصـفرة من ناحـية الغرب ، وقد أحاطت الغبـشة الشديدة المنحدرة كل شىء ، ولم يهتمّ أيضًا بضربات الريح القصيرة الحادّة إلى قـمم الأشجار مسقطة غصونًا منها وفروعًا .

«أتعرفين يا إيفا ، ما الذى تمثله نقطة التعارض فى الموسيقا ؟ إنها مثل الحدث المضاد فى المسرحية أو الرواية ، مثل روايـة هامسـون (*) « خيـر الأرض » ، وبالمناسبة فـقد ظهر عن هـذا الموضوع منذ بعض الوقت بحث نقدى شائق جدًا ، كتبه شبيهى فى الاسم يوهانز فايفر . لابد أنك قرأتيه ؟ »

« أنا أعرف رواية « خير الأرض » وكثيرًا غيرها ، ولكن الآلاف من الأبحاث (عن - الـكُتب) لا أعرفهـا ، ولا أهتم بها . فـدائمًا يأتى أى رجل صغيـر الشأن ويتطاول مُدّعيًا الحق فى إصلاح مـا كتبه رجل عظيم » .

« فأنت إذن تعدين هذا اليوهانز فايفر رجلاً صغير الشأن ؟ »

(*) Knut Pedersen Hamsun (١٨٥٩ - ١٩٥٢) كاتب نرويجى تأثر إنتاجه الأدبى كثيرًا بفلسفة فريدريش نيتشه ، وعالج فى كتاباته الكثير من القضايا النفسية والفسيولوچية ، وروايته المذكورة هنا « خير الأرض » كتبت عام ١٩١٧ . حصل هامسون على جائزة نوبل عام ١٩٢٠ . (المترجم)

ولم يكتمل الحـوار فقد هطل الوابل فى أثناء ذلك ، فبـدأ البرق ودارت فى الفضاء دورة رعدية طويلة وعميقة ، وبدأت أولى القطرات الثقيلة تصفق .

« ها هو ذا بيت فلاح » ، قـالتها إيفـا وهى تنطلق هابطة الربوة لدرجة طارت معها ثيابها حتى خـصرها ، أما هانز فقد تظاهر بالثبات باديءَ الأمـر ، وتهادى فى بطءٍ وراءها ، فـربما يظهـره الجرى بمظهـر شخص لم ينضج بما فيه الكفايةَ . ومـا هى إلا عشرة أمتار حتى بيت الفلاح - وكـانت إيفا قد صـارت فى مأمن - حتـى انطلق من جديد هزيم الرعد ، وفى نفس اللحـظة انهمر فوقـه دفعةً واحـدةً سيل من المطر بارد كالثلج ، عندئذ أطلق ساقيه للجـرى . لكن الأمتار العشرة إلى بيت الفلاح كانت كفيلة بأن يَغْمُرَهُ البلل حتى جلده .

كان باب البـيت مشرعًـا ، فاندفعـا إلى الدّاخل ، وحين أخذت أعينهمـا تعتاد شيئًا فشـيئًا الظلمة المطبقـة ، ألفيا نفسيهـما فى حجرة قروية بائسة . ثمة فتاة منشغلـة بالمدفأة ، فلم تلحظ قدومهما ، وكذا ظل الفلاح الشـيخ - الذى كان جالسًا بلا حـراك فى أحد الأركان - على سكونه ، وفى فتـرات زمنية متـلاحقة جعل المتنزهون يتـوافدون تباعًا فارين إلى الحجـرة ومبتلين حتى النخاع ، ولم يمض طويل وقت حتى كانت القاعة الصغيرة غاصـة ببشرٍ يتصببون ماءً ، وتكونت حول الأقدام نقر كبيرة من الميـاه ، وأخيراً تدافع الماء أيضًا من الحوش الذى لم يستطع أن يستوعب كل هذه الزّخات من المطر ، فـاجتاز الماء عتبة الباب داخلاً الحجرة . ولم يكن الوضع مريحًا بحال .

في الخارج كان الطقس يزمجر ، وحلَّت في الفضاء ظلمة دامسة(*) ولم يكن للمرء أن يرى من خلال الشبابيك الصغيرة إلا صبَّات من الماء المنهمر ، وراحت هنالك ومضات البرق في التقارب أكثر ، ولم ينقطع هزيم الرعد ، وبدا كما لو أن بروقًا ورعودًا عديدة قد دخلت في سباق فيما بينها .

وفي داخل الحجرة راح شخص ما يصفر لحن أغنية شائعة ، فندّ عن الآخرين صوت : « هُس » . فطفق الأول يصفر بحرارة ، وعندئذ بدأت مناقشة حامية ، حيث رأى البعض أنه من غير اللائق أن يصفر المرء أثناء عاصفة كهذه ، فيما رأى آخرون أنه أمر شديد الخطورة على الحياة ، وجعل هانز من هذا الحدث مدعاة لينطلق في محاضرة علمية ضافية عن الأخلاق والعادات والخرافات المرتبطة بخطورة العواصف .

وقال لنفسه : أذكى عشر مرات .

ومن أسف أن إيفا كانت قد وجدت شيئًا أكثر أهمية تفعله ، ففي الركن كان يقف طفل بائس بلله المطر حتى عظامه ، فازرق جلده

(*) يعبر الألمان عن ذلك أحيانًا بقولهم – كما قيل هنا – ظلمة أو ظلام مصري ägyptische Finsternis ويبدو أن عمق القبور والأهرامات وسحر المعابد المصرية كان الدافع وراء هذا الوصف . انظر أيضًا ما جاء في سفر الخروج. (المترجم)

وأخـــذ يرتجف تحـت وطأة البـــرد ، ويعـــول بلا انقـطاع بصـــوت خفيض،ولم يكـترث أحد بالرجل الصغيـر . لكن إيفا رفعتـه بدفعة واحـدة على الطاولة وبدأت تخلع عنـه حذاءه وجـوربه وقـمـيصـه وبنطاله، ثم شرعت تدلك جسده الصغير العارى حتى جف ولفته فى سترتها الصيفية ، وعلّقت أشياءه الصغيرة فوق المدفأة لتجف ، وحين حصل الصـغيـر على كوب من اللبن السـاخن التمـسته إيـفا من أهل الدّار، استعاد سعادته ورضـاه وأمسك عن عويله وضحك بملء فيه . عندئذ تقدّمت أخته هى الأخـرى ، وكانت حتى ذلك الوقت ما تزال مشـغولة بترتيب تسريحـتها التى بللهـا المطر ، وبتجفيف قـفازها بأن تفرك فردتيه فى بعضهما ، وصار الضوء يزداد شيئًا فشيئًا فى الخارج، وتقدمت إيفـا إلى النافذة ، فرأى فـايفر ظلها المـنعكس فى الضوء ، وقال لنفسه : إنها تبدو كصورة قـديمة مقصوصة . لكم كانت حازمة وتلقائية وهى تُلبس الفتى ثيابه ، كأنها لم تفـعل فى حياتها شيئًا غير تجفيف الصبية المبتلين .

وشعر فى قرارة نفسه بحاجة لأن يؤدى هو الآخر من جانبه شيئًا ذا بال فأجرى بين المتنزهين صندوقًا لجمع مبلغ من المال لصالح الفلاح الفقـير الذى لوثوا حجرته تلويثًـا شنيعًا ، أخذ الرجل المبلـغ - ماركًا وثلاثين فينجًـا - بنفس الفتور الذى اسـتقبل به العـاصفة والضـيوف الذين تطفلوا عليه .

توقف المطر فانصرف المستعمرون بالتدريج ، وكذا بدأ هانز وإيفا طريق العودة .

كانت أرض الغـابة قد تحولت كـتلةً من الوحل ، وغمـرت المياه الطرق الموحلة ، فقالت إيفا : « ليتنى أحضرت معى زورقى » . ولم يكن حذاؤها الصيـفى الرقيق كفئًا لتـحمل هذا الإرهاق ، فانفك نعل إحدى فردتيه ، فضحـى هانز بنصف رباط حذائه وأعد لحذائها رباطًا مؤقتًا وبعد ثلاثين مترًا كـانت عُرى الرباط قد انفكت تمامًا وكانت إيفا تغُذّ خطـاها بإقدام عبـر الغابة وليس فى قـدميـها سـوى الجورب ، وعندئذ اصطدمـا بعائق جـديد . فـقد تحـولت قناة صغـيرة ، كـان اجتيازها لا يتطلب إلا خطوة واحدة إلى جدول جبلى هادر ، فلم يبق أمامهـما إلا أن يخوضا فيه عند مـوضع كان واسعًا كبـحيرة لكنه أقل عمقًا وانجرافًا ، وخلع هانز حـذاءه وجوربه وشمر سرواله إلى ما شاء له ، وحمل إيفا ليعـبر بها . قال لنفسه حين شعر بجـسمها الناضر : إنها حِمْل حلو .

هذا ما دار بذهنه فى الأمتار القلـيلة الأولى من المسافة ، ثم أخذ يفكر فى الماء المقرقر الأصـفر الذى يضربه بشدة فى ركبتـيه ، وأخيرًا أدرك أن حَمْله لإيفا كان شقاءً له ، فلم يكن معتادًا على حمل أثقال، ومن خطوة لأخرى أخذت إيفـا تزداد ثقلاً عليه ، فقـال لنفسه: إننى حقا خريستوفوروس (*) عظيم .

(*) خـريسـتـوفـوروس Christophorus اسم يونانى بمعنى حـامل المسيح ، وهو قديس شعبى كاثوليكى ، تقول القصة الدينية أنه حمل المسيح فى هيئة طفل وعبر به النهر ، وهو شخصية يتعرض الفن والأدب لها كثيرًا . (المترجم)

وعندما عــبر الماء قفـزت إيفا عنه بقدمين خـفيفـتين ، وكان هو يلهث إلى حد ما .

وابتدر إيفا وهو لاهث بالقـول : « أى إيفا ، وددت لو أحملك عبر الحياة » .

قيلت العبــارة بشىء من التفاهة ، وقد أحس هــو نفسه بذلك ، ولكنه كان يعنيها بكل الجد ، ولذلك لم يَردْ أفضل منها على خاطره، ولم يكن يهمه فى الواقع أن تبتسم إيفا له مـشفقةً وتربت على وجنتيه قائلة : « استرح قليلاً يا هانز » .

أكانت تلك إجابة على عرضه بأن يحملهــا عبر الحياة ؟ من كان هو إذن ؟

وتذكر رهانًا خسرهُ مرَّةً فى برلين ، حيث كان عليه أن يسلِّم بحثًا لإحدى المجلات عن هولدرلين (*) ، واتفق أنه كتب - بدافع المزاح - العمل مع طالب من معارفه يدرس الـطب البيطرى ، ولقد كلفه الأمر بعد ذلك جهــدًا جهيدًا ليحـول دون طباعة هذا الشىء . الآن انعكس الحال معه تمامًــا ، فليته يستطيع كتلميذ فى مـدرسة بابنبيرج أن يكتب

(*) هولدرلين F. Hölderlin (١٧٧٠ - ١٨٤٣) شاعر وأديب ألمانى ارتبط إنتاجه الأدبى إلى حدٍّ كبير بمُثل الثورة الفرنسية والآثار الإغريقية القديمة وتميز بالرهافة والكآبة معًا ، وتنبض أعماله بالتطلع لإعادة إحياء الانسجام الإنسانى والاجتماعى المفقود ، ويظهر ذلك خاصة فى قصائده السياسية . أصيب منذ عام ١٨٠٦ بمرض نفسى لازمه حتى نهاية حياته . (المترجم)

فاوست (*) أخرى ، ليته يستطيع الحديث كزرادشت (**) ولعله سيحصل عندئذ على مجرد ابتسامة مشفقة .

ازداد الجو دفئا برغم اقتراب المساء ، وتصاعد البخر من الأرض الرطبة ، وحلقت الأبخرة بين الأشجار ، وبدت الدنيا مُغلفة بحجاب شفاف ، ولاح فى الأجواء ضوء أخضر .

(*) فاوست : شخصية شهيرة فى الأدب العالمى ، هو فى الأصل د. يوهانز فاوست (واسمه الحقيقى جيورج فاوست) ولد عام ١٤٨٠ ومات قبل ١٥٤٠ ، وورد ذكره أولاً عام ١٥٠٦ وقيل عنه أنه منجم أفاك ومدَّع للطب . وجاءت قصة العقد الذى أبرمه مع الشيطان لأول مرة فى كتاب شعبى ظهر عام ١٥٨٧ فى ألمانيا ، وفى عام ١٥٩٠ وضع الكاتب الإنجليزى مارلو مسرحية عنه ، ثم توالت المؤلفات التى اتخذت حياته موضوعاً لها ، فكتب عنه فيدمان سنة ١٥٩٩ وبفيتسر سنة ١٦٧٤ ودخلت أسطورته مسرح العرائس عام ١٧٥٠، وكتب عنه بعد ذلك ليسنج ، ومالرميللر ، وكلنجر ، وجرابه ، ولينــاو ، وتومــاس مان ، وهـ . أيزلر ، وكتب جوته تراجيديا من جزأين عنه ، أتم الجزء الأول منها عام ١٨٠٨ ، والثانى عام ١٨٣١ ، وتعتبر فاوست جوته أروع ما كتب عن فاوست الطبيعى . وعن طريق جوته أصبح فاوست مثالاً للتجربة الإنسانية بعمومها وللسعى الدءوب والتعطش للمعرفة بصورة مطلقة . (المترجم)

(**) زرادشت : داعية وصاحب مذهب فارسى عاش بين عامى ١٠٠٠ و ٥٠٠ ق.م . وكانت دعوته قائمة على ثنائية الخير والشر ، التى يقع الإنسان بين فكى الرحى فى صراع طرفيها ، ولابد له من أن يختار أحد قطبيها فى النهاية ، خاصة وأن الصراع بينهما سوف يطال كل قراراته العقلية وأفعاله الجسمية ، وفى النهاية يكون النصر دائماً حليف الخير ، وقد ظلت دعوة زرادشت هى الديانة الرسمية فى بلاد فارس حتى دخلها الإسلام فى القرن السابع الميلادى ، ولا زال لها بعض الأتباع حتى اليوم ، وقد جعل الفيلسوف الألمانى فريدريش نيتشه من زرادشت مثالاً لفلسفة (الإنسان الخارق) وذلك فى مؤلفه الكبير : « هكذا تكلم زرادشت » الذى يتميز أيضاً برصانة لغوية باهرة . (المترجم)

« إيفا ، لقد قطعت العاصفة حديثنا ، كنا نتحدث عن يوهانز فايفر ، ذلك (الرجل الصغير) كما قلت عنه فى أناقة . هل قرأت من أعماله شيئًا ؟ »

« ربما ليس كل أعماله . لكنى أعرف من إنتاجه (خبز وفن) و (صيادو أيسلنده) »

« وكيف وجدت (خبز وفن) ؟ »

« لقد كُتبت بطريقة لطيفة وآسرة ، لكن شعوراً ينتاب المرء بأن شخصًا ما يكتب عن جوع لم يجعهُ هو شخصيًا » .

« ليس هذا مهمًا ، يا إيفا . فلو كتبت مثلاً عن نابليون ، لا يكون من الضرورى اشتراط أننى كنت يومًا ما قيصراً » .

« أتود أن تكون كاتبًا ؟ »

« ربما » .

« واه يا هانز ، ليس هذا أمراً يخصنى فى الواقع . . ولكنى لا أدرى . . » .

فقال هانز بغلظة : « طبعًا لا تدرين ، ولا تستطيعين أيضًا أن تدرى . فمن أين لك هذا أيضًا ؟ . . وما رأيك فى كتابه (ماسك الدفاتر المزدوج) ؟ »

« ياه ، إنه رائع ، وهازل إلى أبعد مدى ، وليس متهكما بصورة غير لائقة كما هو الحال فى بعض أعماله الأخرى مثل (زمجرة) أو (عطلات زوجية) . أتدرى ، إننى لا أحب مثل هذا اللون المسف من التندّر بالحمقى فهو ابتذال وتجنٍّ ، فالحمقى لابد أن يوجدوا ، ومن يسُبُّ الحمقى فهو نفسه واحد منهم ، هذا ما يقوله أبى ، وأنا لا أريد أن أقول هذا عن ذلك اليوهانز فايفر ، لكننى أعتقد أنه رجل ناقص التكوين إلى درجة ما ، ولا يعرف ما يريد » .

فرد هانز متفكراً ومهزوماً بعض الشىء : « قد تكونين على حق هنا ، فهو أيضًا ما يزال صغير السن إلى حَدٍّ ما ، لكنه بالمناسبة فتى لطيف كل اللطف » .

« أتعرفه بصفة شخصية ؟ »

شعر هانز بمدى الخطورة التى جر الحديث إليها .

لكن ذلك أثاره فقال :

« طبعًا أعرفه . فكثيراً ما كنا معًا فى برلين . ولعلّنى أستطيع أن أقص عليك كل شىء عنه ، حتى بعض الذى لا يعرفه عنه الآخرون . أتدرين كيف يبدو ؟ »

« لعله على العكس تمامًا مما يتخيله المرء عنه . ربما يكون قصير القامة وبدينًا ، له صلعة ، وزوجة وثمانية أطفال » .

غضب هانز من أعماقه لذلك ، وقال : « إنه ليس متزوجًا بطبيعة الحال ، بل وليس خاطبًا بعد ، ومبلغ علمى أنه ليس لديه أطفال ، وهو إنسان وسيم ، طويل القامة ، ورشيق نوعًا ما ، مثلى تمامًا ، ربما يكون أعرض جسمًا منى بدرجة صغيرة ، وشعره أشقر مائل للسمرة ومرجّل للخلف . . » آن عندئذ وقت الإمساك عن الحديث ، لكنه غامر وواصل القول : « وله نظارة قاتمة تشبه نظارتى . والوجه . . إذن فما عليك إن أردت أن تعرفيه تمامًا إلا أن تنظرى إلىَّ ، يا إيفا ».

وهنا أمسك بيديها ووقف أمامها تمامًا .

« دققى النظر فى عينىّ . هكذا ! أنت الآن تعرفين ما شكله » .

« كيف ذاك ؟ »

« تمامًا هكذا يبدو ، مثلى تمامًا ، إيفا ، انظرى يا إيفا : إننى لن أستطيع أن أكذب عليك إلى الأبد . إن يوهانز فايفر هو أنا » .

ولم تدر إيفا تمامًا إن كان ينبغى عليها أن تضحك أم لا .

« أجل يا إيفا ، وقصة (خبز وفن) هى قصتى، و (ماسك الدفاتر المزدوج) هى قصتى، و (عطلات زوجية) ، و (زمجرة) وكل الأعمال الأخرى هى لى ، وليكن فى معلومك أيضًا ، فزورق السباق هو أيضًا منى ، كل ذلك منى . هكذا ! »

لقـد كلَّفَتَ هانز كل شىء بلا روية ، وقـد أعلن الآن كل شىء فرمقته إيفا فى أناة وجد : « ماذا دهاك ؟ أنت اليوم لا تطاق » .

« إذن فلو كنت لا تصـدقين هذا . . فإننى أعطيك كلمـة شرف . . وأقسم لك أن . . » .

« استحِ يا هانز . فلو كنت تريد أن تضحك على عقلى ، فافعل من فضلك بلا قسم أو كلمة شرف ! »

احمرّ وجـه هانز كالجمان وقـال : « لا أنوى أن أواصل الحديث معك حـول هذا الموضوع . ربما استطعت أن أحـضر معى مـستنداتى غداً » .

« كما تشاء » .

« لست فى حاجة لأن تقوليها هازئة . طبعًا كما أشاء ، ولكننى . . لا أشاء ، أتسمعين يا إيفا ، أنا لا أشاء أن أفعل هذا ، ولا أفكر مطلقًا أن أفـعله ، فحيث إنك مـازلت لا تدركين من الذى أمامك ، وحيث إنك مازلت تعتبريننى تلميذاً صغيراً وبائسًا ، إذن . . » .

« إذن ؟ »

« . . إذن فأنت تستحقين ! »

وانتهى الحديث عندئذ .

ولم يقل هانز شيئًا آخر .

ولم تقل إيفا شيئًا آخر .

سارا متجاورين ومتمهلين ، تفصل بينهما مسافة مترين حرص كلاهما على الاحتفاظ بها بينهما ، ونظر كل منهما أمامه بجمود وفى خط مستقيم ، مزموم الشفتين ومنتفخ طاقتى الأنف .

هكذا سارا عبر الغابة .

شعر هانز ببعض الأكلان في حنجرته ، لكنه لم يجرؤ على التنحنح خشية أن يُفسر ذلك على أنه محاولة للتقارب .

وكانت إيفا ترتعد من البرد وودت لو ارتدت سترتها التى كان هانز يحملها ، ولكنها كانت تفضل أن تقطع لسانها بنفسها على أن تطلبها منه .

على هذه الحالة وصلا أخيراً للمكان الذى دأبا على الافتراق عنده، وكانت أولى بيوت بابنبيرج تلوح للرؤية ، وأشعلت هنالك أنوار متفرقة .

« إذن إلى اللقاء » .

« إلى اللقاء » .

وافترقا ، فاتجه هو إلى اليمين ، وهى إلى اليسار . كان يود أن لو يرى مـا إذا كانـت ستـتلفت نحـوه أم لا ، ولكنه لم يجـرؤ على الالتفات برأسه .

ومضت إيفا بنفس الصورة .

* * *

فى شارع بورجـشتراسه المؤدى إلى بابـنبيرج والذى لا تكثر فـيه حركة الحياة لحسن الحظ ، كان يسير شاب ويتصرف بصورة غريبة إلى حد ما . فـمن وقت لآخر كان يتوقف ، ويـسدد بيده اليمنى صـفعةً قويةً على خده الأيـسر ثم يصفع بيده اليسـرى خدّه الأيمن ، ثم خلع نظارته وكرر هذا الإجراء بقوةٍ متزايدة .

وكان يود أكثر ما يود أن لو يصوب ركلةً لمؤخرته ، لكنه اصطدم عندئذ بصعوبات تقنية .

دقت الساعـة الثامنة والنصف ، وكانت حفل الشـراب قد بدأت فى تمام الثامنة ، ولم يكن لديه وقت ليبدل ثيابه فى المنزل ، فلا ريب أنه قد تأخر بصورة لافتة للانتباه .

جدّ فى السير وجعل يفكر فى حجة يتعلل بها .

إن اختـلاق الحُجج أمام المعلمين أمـر فى غاية اليـسر ، ولذلك هناك قائمـة ثابتة : كالرعاف ، وآلام الأسنان ، وتوقف السـاعة عن العمل، وانجزاع الـقدم إلى غير ذلك من علل . أما فـى حالة الزملاء فإنهم يقظون بصورة فجّة .

قبل التاسعة بقليل وصل إلـى حانة « المقص » . لقد كانت حانة سيـئة يؤمهـا الحوذيون ، وتقع خلف المدينة بقليل ، لكنهـا كانت فى مأمن عن أعين المعلمين ، أبرز ما يميزها أن لها حجرة خلفية سرية لها مخرج طوارئ يؤدى إلى ضفة النهر .

سار هانز فى الممر الطويل ، ثم انعطف يساراً ماراً بالمطبخ ثم فى خط مستقيم مرّةً أخرى واسـتدار لليمين خلف دورة المياه ثم عبر الفناء وبذلك وصل إلى هدفه .

وكان قد سمع وهو على حدود الشارع تقريبًا جلبة التلاميذ الذين اجتـمعوا لأداء الفعل الحـميد . كانوا يجلسـون فى الحجرة الصغـيرة المعبأة بالدخان ، متعاظمين خلف الكئوس الكبيرة ويدخنون فى بطولة أعوادًا رخـيصة من الـسيجـار ماسخـة اللون ، واستقـبلوه بوابل من الأسئلة الخائنة .

« هل ما عاقك أمر محبّب ؟ »

« أكان الأمر لطيفًا ؟ »

« هل كانت رقيقة ؟ »

« دعوه فهو غائب عن وعيه » .

كست الحمرة وجه هانز كله ، وقال فى نفسه وهو يجاهد الفكرة: « مثل تلميذ فى الثانوية » وصار الأمر بذلك أكثر مدعاة لغضبه .

« إن ضمير هانز يؤنبه » .

استجمع هانز قـواه وقال : « أيتها العصابة الغبـية ، لا يستولَيَّن عليكم الحـسدُ إلى هذا الحـد ، وإننى لأضـمن لكم أن يكون مع كل واحد فـتاة غداً بجـوَاره على المقعـد ، أجل على مقعـد الدراسة » . وأفشى سرّ الهجـوم الغازى وحصة الفيزياء التى سـتؤدَّى بحيث يُضَمَّ التلاميذ والتلميذات معًا .

وتدافعوا فى دائرة ضيقة حوله ، وأنصتوا إليه بأنفاسْ محبوسة ، وتركوا الشراب والسجائر ، ومن فرط اسـتخفاف الطرب بهم تصرفوا كـمن لا يصـدقون مـا قـيل ، وطالبوا هـانز بأن يُقسم بـكل عهـود الشرف، وعهود ندامى الجعّـة المغلّظة ، وهددوه بعقوبة خابور الفصل إن كان يستعبطهم . ولكنهم كانوا مـقتنعين فى أعماقهم بأن لكل هذا الذى قيل وجاهته ؛ لأنه كان أجمل من أن يكون فشراً وتلفيقًا .

لم يستـطع هانز أن يمسك عن تزييف المضمـون الحقـيقى للخـبر بعض الشىء ، وصوّره كمـا لو كان يرى أمام عينيـه منذ البداية درسًا مشتركًا فى الفيـزياء . إنه لم يقل ذلك صراحةً ، لكنه فُهم على هذه الصورة، وكان هانز من المكر بحيث لا يُعارض ذلك ، ولعله ككاتب يسمى ذلك « رتوشًا فنية » ، لكن هـذا المصطلح لابد وأن يبقى غريبًا وهو تلميذ بالثانوى ،لذلك راح يهدئ ضمـيره بقدح من البيرة تجرعه فى صحة السنة النهائية .

وهكذا بدأ حفل شراب جرمانى قديم ، حيث أراد الصحاب أن يستعدّوا ليوم غد بما هو أهله .

وفضلاً عن ذلك فـالأمر لا يكلف شيئًا ، ولـعلّه من التبذير ألا يسكر المرء هنا .

كان حـذاء هانز مبـتلاً تمامًـا ، وحالت طبـقة الطين علـيه دون انبعاث أية رائحـة منه ، فخلعه بلا تردد ووضعه ليجف ، فـيما لفّ قدميه فى ورق الجرائد ، وشعر بدفء ممتع .

أما رودى كنييل فـبدأ يتعامل مع البيـانو ، ولا يكون حال بيانو جيـدًا مادام فى حانة ، فـالجهاز الموجود هنا سـقطت بعض أسنانه أو ثلمت ، واستحال لون معظم الأصـابع قاتمًا ، وغاب عن العديد منها غطاؤها ، لكنه إذا ضـغط المرء بشدّة صـدرت على كل حـال فرقـعة خفيفة ونغمة نائحة كما لو كان عزف قيثارة من هاواى ، ومن الممكن أيضًا ألاّ تتناسب الدرجات الصوتيـة مع ترتيب الأصابع بتاتًا . إلا أنه كان فى مـقدور المرء على كل حال أن يتفـوّق بصخب هذه الآلة على جلبة تلاميذ الثانوى بقدر كبير .

فـإذا مـا لـم يكن المـرء فى رضًـى تام عن البـيانو ، أو شـعـر بالإشفـاق علـى أثـاثه ، فمـا عـليه إلا أن يـرفع غـطاءه ويفرغ فـيه بعض كئوس البيرة ، وطبـعًا لن يـرفع هـذا من كفاءة إنجـازات الآلـة بصـورة ملحوظة .

ولما كان البيانو لا يعرف مقامات أخرى ، فقد غنى التلاميذ بالدرجات الصوتية المختلفة ، فغنى كل منهم بالدرجة الصوتية التى تناسبه ، فشرع هوزيمان يغنى بدرجة الباس العميق ، وكنيبل بدرجة التنيور البطولى ، وشرنك بنغمة الباريتون الرجالى الوسطى ، وروزن بنغمة الميسوسوبران النسائية ، وطفق ملفورم يعزف القيثارة كأنه شحرور يتربّص الموت به .

ولا ريب أن النغم لم يكن متسقًا .

كانوا فى أثناء ذلك يضخون البيرة الباردة فى أمعائهم الفتية ويتصايحون ويلغطون ويرقصون معًا ويهوون بالمقاعد أرضًا ، وكانوا سعداء جدًا جدًا ،واستخدم أكرمان بصفته رئيسًا عصا التنزه الخاصة بأبيه كمضرب ، وتولى إسكاتهم ثمّ ضرب المقطع الأول على البيانو ، وبعد ذلك قدّم للمغنين السكارى أنخاب أخوّة التلْمذة واحدًا فى إثر واحد ، وهدأً من روع ملفورم الذى نادمهم مراعاةً للأدب . لقد تشارب الصحاب كل ما فى العالم من أنصاف وأرباع وأثمان الكئوس ، وصاح صائحهم : « لسوف أعرف كيف أزهو بذلك فى البيت » وطالبوا بوقت مستقطع ، وخوّلوا أنفسهم حق التصرف فى أنفسهم(*) وأثاروا هرجًا طلابيًا ، وعاقروا الجعة مثنى وفرادى ،

(*) habeas اختصار لـ habeaskorpus akte وباللاتينية habeas corppus ومعناها : « أنت تملك الجسم » وهو قانون صدر فى انجلترا ١٦٧٩ بحق حماية الحرية الشخصية للمواطن فى مواجهة الحبس الاعتسافى من قبل السلطة المستبدّة وجاءت تسميته وفقا للكلمات الأولى من أمر السجن فى العصور الوسطى . (المترجم)

ومعروف أن هذا يندرج مباشرة تحت عقوبة الموت ، وبعد ذلك تدافعوا للخارج على وجه السرعة . ثم أكلوا شرائح صغيرة مطهمة بالزبد ، وشعروا بين الشقاء والبهاء بدرجة عظيمة من الرضى ، لدرجة أنهم لم يعودوا يعرفون أى شيء أجمل على الأرض مما هم فيه ، لم يكن ذلك مجرّد أثر فسيولوجى للكحول ، ولا كان مجرد استمتاع بصورة جديدة تمامًا ، مثلما يطأ المرء أرضًا غير معهودة إلى حدّ ما كما يحدث عند الحب الأول ، فيشعر بالاندهاش والكبرياء معًا ، بل كان سبب كل هذه السعادة هو فى المقام الأول كون الأمر محرّمًا بلا حدود ، فمجرد فكرة انتهاك النظام المدرسى خمس ساعات متصلة كانت كافية تمامًا لتهيج ثورة من السعادة ، ولم يكن حالهم هذا يشبه من ألفى نفسه فى معمعة هرج ومرج ، فيتوقع حدوث شيء ما بينما لا يحدث شيء ، ولأن شيئًا لايحدث ، يزداد التوقع إلحاحًا ولكنه لا يجد تلبية له ، بل كان كل شيء يبدو لهم عندئذ جميلاً وعظيمًا ورائعًا ومبهراً أيضًا ، وطفرت وجوههم بالسعادة عندما حك هانز فايفر الكأس(*) بالطاولة على شرف شناوتس مقرراً بلهجته : « ولا كن كول واحد جرعة ضئولة » ، واختنقوا من الضحك ونفثوا ما بأفواههم من بيرة رذاذًا حين بدأ هوزيمان فى تقليد بومل : « ماهى البيرة ؟ نتخيل ذلك ونقول : البيرة هى الشيء الذى حيثما لايكون لديك كأس منه ، وجب عليك أن تطلبه » .

(*) يسمون ذلك بالألمانية Salamander وتعنى أصلاً حيوان السمندر البرمائى ، لكن الكلمة وحركة الاحتكاك تعنى فى لغة الطلاب تحية الشراب . (المترجم)

ثم يعلو صوت ملفورم الصامت الأكبر ، بخطبة مدوّية ، بينما ينتقد أكرمان كثرة ترديد ملفورم للازمة « إيه » . ولم يُعفَ لوك الصغير أيضًا من أداء دور ما ، وعليه الآن أن ينشد قصائده الخفيّة أو أن يُنشئ فوراً ثلاث قصائد كاملة ، وما كان يستطيع أن ينشئ ثلاثًا كاملة ؛ ولذا فهو ينزوى فى أحد الأركان ويتلو بصوت كصوت الأشباح مقاطع مختلطة من هولدرلين وشتيفان جيورجه تمس شغاف نفسه ، وقد تأثر هو بما تلاه تأثرًا شديداً ، وطبعًا تأثر الآخرون بصورة أكبر منه ، وبرهان ذلك أنهم رقدوا تحت المقاعد وشرعوا يتمرغون ، وحتى هانز فايفر ضحك معهم وحوّل وجهه عنهم خجلاً . غير أن لوك صار منذ الساعة شاعراً هجّاءً .

مالت الساعة نحو الحادية عشرة ، وأمست الأجواء أكثر جمالاً وأكثر صخبًا ، وجرى كل شيء بأعلى الدرجات الصوتية : الغناء ، وقيادة الأوركسترا ، والحكايات ،وحتى الشراب أيضًا . ولم تعُد تحية الشراب الطلابية (السمندر) تتم بحك الكئوس فى الموائد وإنما بخبطها فيها لدرجة طارت معها المقابض من كئوسها ، وكان الضجيج يهدر إلى خارج الحانه كأنما يصدر عن ملتقى الجنيات ، وكان المارة يتوقفون في الشارع ويتعجبون ، ولكن شركاء الطرب كانوا يشعرون كأنهم محمولون على أرائك الباركيه إلى الفردوس .

كان الغناء هو ذروة الصخب ، ففيه كانوا جميعًا يزعقون معًا وبدا كل منهم لنفسه كأنه هو وحده صاحب كل هذا الصخب ،

وهكذا انطلقوا يغـنون سلسلة لا تنتهى من أغنيات الطلاب البـالية مثـل : « فـى الحـوت الأسـود عـند عـسقـلان » و « ما الـذى يهـبط من عـلٍ ؟ » و « سـاقيـة الزيـزفون » و « تشاتشـا ، هنيئًا مـريئًا » . أو كانوا يـدربّون ثقافـتهم الإنسـانية بأغان مثـل : Gaude amusrigitur(*) و Ergo bibamus (**) أو كانوا يتـغنون بالحب فى أغانـى مثل « لورا عند البوابة » أو "Filia hospitalis" (***) التى لا مثيل لهـا ، أو يصيرون فجأة رجالاً ذوى نزعة إنسانيـة ويلحون فى السؤال عن : أين اختفت روعة الصبا القديمـة ؟ وكانت أعلى الأصوات هديراً هى أغنياتهم عن الحرية : « حرّ هو الفتى »، أو « الحرية التى أعنى » . وكذا :

يا شبان

هيا اخرجوا !

من بيت لآخر

هيا اهتفوا !

واستنجدوا

بالشعر ضد الـ (. . . .) .

(*) مطلع أغنية طلابية : « لذا هيا نكن سعداء » باللاتينية فى الأصل .(المترجم)

(**) « إذن هيا نشرب » مقولة من العصور الوسطى تقال عند الشراب . باللاتينية فى الأصل .(المترجم)

(***) « ابنة أصحاب المقصف » مطلع أغنية طلابية . باللاتينية فى الأصل . (المترجم)

توقف الغناء بغتة . وانطلقت صيحة فزع واهية ! « زيوس ! » في لحظة واحدة انقض عليهم هجوم الطاغية وصارع الحريات ، فما عادوا إلا حفنة من تلاميذ المدارس المرتعدين خوفًا والذين زحفوا في فرار رهيب من النافذة ، وانطلقوا إلى الفناء متخذين طريق الرجعة قافلين إلى النهر .

كان من حسن الحظ أن نظّم هانز فايفر عملية الانسحاب والتغطية : « خذوا معكم كتب الندماء ! » فعليها كتبت أسماؤهم تحديدًا ، وأراد هانز في تلك اللحظة أن يدس قدميه في حذائه الذي لم يكتمل جفافه من البلل ، أراد أن يكون مثل القبطان فيكون آخر من يغادر السفينة الغارقة ، عندئذ شعر بمن يمسك بأذيال ثيابه .

« فايفر ؟ طبعًا فايفر مرّة أخرى . . ماذا تفعل هنا ؟ »

« أنا ؟ لاشيء . أنا ألبس حذائي » .

« وأين الآخرون ؟ »

« إنهم عند صاحبة البيت الذي أسكن فيه . يتولون النظافة » .

« إخرس ! من كان هنا غيرك ؟ »

خرس هانز .

« أجب ! من كان هنا غيرك ؟ »

« كنت وحدى تمامًا ، سيدى الناظر ، فأنا أحب الوحدة » .

دار كناور ببصره فى القاعة ، فى كل أنحائها توجد أكواب مقلوبة ، وأعواد سيجار ملقاة ونقر ماء كبيرة ومقاعد هاوية .

« هكذا ؟ ولمن إذن هذه الكئوس جميعًا ؟ »

« كنت عطشانًا عطشًا فادحًا » .

« فايفر ، إذا لم تذكر الأسماء ، فسيطاح بك من المدرسة » .

ولم يكن ذلك فى مصلحة هانز ، وخصوصًا فى هذا الوقت الذى بدأت التجربة تصير لطيفة !

« سيادة المدير ، لا حق لك فى هذا ، فليس لسيادتك أن تجبرنى على الوشاية بزملائى ، فهذا أمر لاتستطيع أن تتحمل مسئوليته تربويًا ! ولقد تناقشت منذ وقت قريب مع خالى فى حالة مشابهة . وسيادتك تعرف طبعًا السيد فون فيرن مدير أحد أقسام وزارة التعليم ؟ »

الحق أن المدير لم يكن يعرفه ، ولم يكن له من سبيل إلى معرفته .

لقد كان هناك بالفعل شخص ما يُدعى فيرن ، ولكنه كان بدون لقب « فون »(*) وكان يورد الفحم إلى شركة هانز فى برلين ، غير أن عبارة « خالى ، مدير أحد أقسام الوزارة » كان لها على كل حال

(*) von : فون : لفظة للدلالة على لقب النبالة لمن يحملها . (المترجم)

بعض الأثر ، وكناور لم يكن يؤيد النزاعات . فقال : « سأفترض أن رفاقك الندامى لم يكونوا تلاميذ مـن معهدنا » . واتفق مع هانز على معاقبتـه بعقوبة خفيفة تسلم إلى المدير فى منزله عـصر غدٍ فى الرابعة والنصف ،وهذا الإجراء الأخير اتخذ كنوع من تشديد العقوبة وليتلقى هانز فوق ذلك تقريعًا مُسهبًا .

* * *

حين دلف بريت فى الصباح التالى إلـى فصل السنة النهـائية ، كان لابد أن يبتسم ابتسامة ساخرة ، فقد ارتدى جميع التلاميذ بذلات يوم الأحد وأجـمل ما لديهم من قـمصان ، وكل واحـد منهم رجّل شعـره وحلق ذقنه وتنشى وتهندم ، كأنهم ذاهبـون إلى حفل زواج ، كان رودى كنيبل ينافس فى لمعانه حبـة طماطم ، وكان روزن محصنًا بمنديل أخته الدانتـيلا الرقيق ، أما لوك الصغير فـقد جلس على أحد مجلَّدات موسـوعة بروكهاوس(*) ليبدو أكثر طولاً ، وأخـذوا جميعًا ينتظرون فى توثُّب محموم الحصة المشتركة .

وما كان للدكـتور بريت أن يتمكن اليوم من إنجـاز الشىء الكثير مع تلاميـذ السنة النهائيـة ، وبعد تمرينات الرياضـة البدنية المعـتادة ،

(*) بروكهاوس F.A.Brockhaus : عالم معجمى ألمانى ، أسَّس فى سنة ١٨٠٥ دار النشر المعروفة باسمه ، واشتهر خاصة من خلال الموسوعة الضخمة المعروفة باسمه أيضًا ، ومن خلال كتاباته عن الرحلات . (المترجم)

نودى على هانز ليجيب على سؤال ، فجانبه التوفيق وعرّض نفسه للزجر : « أنت أيضًا واحد من الأولاد العباقرة ، الذين يستطيعون إنجاز كل شىء من تلقاء أنفسهم ، وإنى أحذرك ! فأنت تتعلم لدينا الرياضيات واللغة اللاتينية والفرنسية والإنجليزية وغيرها ، ولكن أكثر ما يمكن أن تتعلمه فى المدرسة قيمةً هو العمل ، وهذا هو ما تتعلق الحياة به . فحين أجيل الطرف بين تلامذتى السابقين . . فمن منهم أجده صار شيئًا ذا قيمة ؟ ليس العباقرة . . كلا بل العاملين . فالعمل هو الذى يُحدث النهضة الاجتماعية » .

شعر هانز بوخز الكلمات ، كما لو كانت النهضة الاجتماعية هى هدفنا الأسمى . واصل بريت قوله :

« والمدرسة الثانوية ياعزيزى ،هى مؤسسة بورجوازية ،وتخدم المثل البورجوازية ، فمن يجلس مثل ديوجينيس (*) فى البرميل أو يأخذ فى قرض أبيات الشعر الخالدة للأجيال القادمة وهو قابع فى حجرة على السطوح ، فهو فى غنى عن شهادة الثانوية » .

(*) ديوجينيس السينوبى Diogenes von Sinope فيلسوف إغريقى ، عاش من سنة ٤١٢ إلى ٣٢٣ ق . م . كان منتمياً للفلاسفة الكلبيين ومذهبه احتقار الحضارة . ويقال إنه عاش فى برميل . أما سميّه ديوجنيس لا يرتيوس Diogenes laertios فقد عاش فى القرن الثالث الميلادى وهو كاتب إغريقى وضع فى سنة ٢٢٠ م عشر مجلدات تحت عنوان « عين الحياة ، رؤى وأقوال أشهر الفلاسفة » ، وهو عمل هام ومصدر رئيس فى تاريخ الفلسفة القديمة . (المترجم)

ومن أسف أن ألقيت هذه الكلمات الذكيـة على نخبة كان ذهنها وقفًا على أشياء أخرى .

أخيراً بلغت الساعـة الحادية عشرة ، فهبطوا بنبضـات خافقة إلى قاعة الفيزياء .

لم يكن ثمـة ما يسـترعى النظر . لا ضـفيرةً هنـالك ولا رأسًا ذا خصلات ، ولا فستان ولا شيء البتة .

ربما ينتظرن أسفل فى الصالة ؟

أبدًا . إنهن لا ينتظرن .

ربما سيأتين بعد ؟

يدخل شناوتس . لا يتبعـه أحد ، فيوصد البـاب . انتهى الأمر دارت رأس هانز .

شمل القاعة صمت تام ، وصدرت أصوات حفيف الأقدام (*) ، وصرير الأسنان (**) وشعر هانز أنه قد طُعن من الخلف .

عندئذ ينفـتح البـاب ، ويظهر المـدير وخلفه مـوكب الفـتيـات الصغيرات تقودهن المديرة .

(*) يستخدم الطلاب هذه الإشارة دلالة على الإخفاق . (المترجم)

(**) وهذه الإشارة للدلالة على الغضب . (المترجم)

آآآآآه !

كُنّ قد صففن صفوفًا داخل مدرستهن وارتصصن فى هيئة مهيبة حتى لا يبقين مع الفتية لحظة أطول مما ينبغى .

يقتـرب الموكب ، وتدخل الآنسات بأهداب مطرقـة ، ويجلسن حول طاولة التـجارب فى الدكك الناهضـة . فينتحى الفـتيان جـانبًا وكلهم احترام أخرق .

« جلوس ! »

يلتقط المدير الكلمة ويرجو أعزاءه التلاميذ أن يتقبّلوا الحقيقة التى لم يكن منهـا بد ، وقال إن الأمـر لا يعدو أن يكون وضـعًا مـؤقتًـا لبضعة أسابيع .

ثم يختفى ومعه المديرة .

يمكن البدء الآن .

سرعان ما اعتادت السـيدات الصغيرات الموقف ، وشرعن يقلّبن بصرهن فى رضًى فيمـا حولهن ، وسرعان ما شعـرن بالألفة كما لو كُنَّ فى بيوتهن ، وأمـا رتل الرجال فكان أشـد ارتباكًا ، فكل تلمـيذ منهم كان يشعر بأن جميع البنـات لا ينشغلن بشىء إلا تسريحة شعره وأرنبة أنفه ، وأدركـوا أن متعة الأمر لم تصـل إلى نصف ما تصوّروه عنه . على الأقل هذا ماحدث حتى الآن .

كــان شناوتس يسبح فى جـو من الحـبور ، فـصار يخطو أمـام الفصل متـعاظمًا فى خطى واسعـة تعمّد أن تبدو فى خفّـة الشباب ، ذاهبًا آيبًا متكلمًا كأنه كتاب .

لقد أعدّ نفسه إعدادًا ممتـازًا ،وتوجّه بحديثه كلية إلى الآنسات ، أما تلامـيذه فكانوا بالنسـبة له لاشىء . أخـذ يتحدث بـصوت أعلى وأوضح مما عُهد عنه ، واعتراه سرور بتنغيم عضوه الأنفى .

وبنفس الدرجة اعترى الفتيات السرور .

ولابد أن شناوتس قـد لاحظ ذلـك مع مـرور الوقت ، وطلب منهن الانتباه للدرس ، ملتزمًا فى ذلك بالابتسام ، ثم محذرًا فى أُبُوَّة ، وغاضبًـا تمام الغضب آخر الأمر . وفى كل مرّة يـحقق نفس الدرجة من النجاح : لهوًا وقرقرة متزايدين .

وتهدد الخطر سلطته . فقال بلهجته :

« سيـداتى ، إنكنّ تضطررننى لاتخـاذ إجراء عنيف . فلـسوف أفصلكن عن بعضكن لكى يتوقف الهمس بينكن » .

واتخـذ الإجـراء الحـاسم ، وجلسـت ستتُنا النهـائيـة فى ترتيب مُلوّن : كل فـتى جلس وجواره فتـاة . كانت من جلسـت إلى جوار فايفرهى إيفا بطبيعة الحال ، وذلك ضـد رغبتها . وحده لوك الصغير هو الذى لم يتبق له واحدة ، وهو لم يتوقع غير هذا .

كان لهـذا الخلط أثر حقـيقى ، فـقد تركوا شناوتـس يشرح فى هدوء بال ، وجعل جيـران المقاعد - الذين اصطفوا للتو كـأرغفة فى فرن - يتغامزون خلسةً ، ويعـضهم أعجب بالآخر ، وبعضهم أسف لأنه لم يول الأمر اهتـمامًا كافيًـا عند تبديل المقاعد . وكـان أكثر مَنْ سخط علـى حظّه هو روزن الطويل ؛ فقـد جلس إلى جوار أختـه . وتحول رودى كنييل إلى حبّة قرع مـتألقة ،وأنشأ ملفورم يصلى بوجد إلى السماء التى يتعبد لها آل مذهبه .

الآن يريد شناوتس أن يبين تجـربة بريق إحدى خـلايا السيلينـيوم فيظلم الحجرة .

للسيلينيـوم وزن ذرّى قدْرهُ ٧٩,٢ ، وإحدى خواص السـيلينيوم المميزة جـداً هى تغير مقـدار مقاومتـه حيال التيار الكـهربى بمجرد أن يسقط عليه ضـوء ،وبهذه الطريقة يمكن تحويل التغيـرات الضوئية إلى نبضـات كهربية ، وتسـتخدم خلية الـسيلينيوم لهذا الغـرض ، وتقوم عملية نقل الصور برقيًا على أساس ذلك (*) .

ثم ندّت عن شناوتس العظيم صيحة : هُوه ! فـقد شمل القاعة المظلمة صمت جليل .

(*) اخـتـرع الـعـالم الإنجليـزى داقـيـد إدوارد هـيـوز David E. Hughes (١٨٣١ - ١٩٠٠) جـهـاز التـلغراف الذى يقـوم علـى أسـاس هذه الفكرة ، والذى سُـمّى باسمه (تلغراف هيوز) . (المترجم)

وتصيح فتاة .

يتنحنح شناوتس مهدِّدًا .

ثم تصيح واحدة أخرى بصوت أطول وأقوى من الأوّل ، فيشعل شناوتس الضـوء ، فإذا بالجمـيع يجلسون بـيدين مشـبكتين فى أدب ويتعجبون .

سأل شناوتس بلهجته :

« من كان هذا ؟ »

لا أحد .

« من كان هذا ؟ »

يتطوع هانز ويرفع يده .

« هراء ، لقد كانت تلميذة . وسأكتشف الجانية » .

ويطلب من التلمـيذات أن تمرّ كل واحـدة منهن أمامه بالـترتيب وتصيح ، فـيفـعلن ذلك بحرارة ورغبـة . إيزوليتـه وحدها ترى من اللائق أن تغير صوتها وأن تنقنق بنبرة عميقة .

لكن ضميرها الحيّ يخونها .

« لماذا زعقتِ ؟ »

تهمس إيزوليته « لا أعرف » . وتنظر إلى شناوتس المسكين نظرة فاتنة بعينيها الزرقاوين كأنها صورة مريم العذراء ، فيضطرب اضطرابًا تامًا ، ويضطر إلى تحويل نظره ، ويصير كمن لا حول له .

« اجلسي ، وانتبهي أكثر في المرّة القادمة ، لكي تعرفي مستقبلا ، لماذا تصيحين » .

تعود إيزوليته متبخترة إلى مكانها ، وكانت تجلس إلى جوار رودى كنييل .

الآن عرفت الفتيات حقيقة الأمر ، فالبروفسور كراى لا يُعاقبهن ، ثم إنهن جميعًا قادرات على النظر بعينين كأنهما عينا مريم العذراء .

لكن شناوتس استجمع سريعًا قواه وواصل درسه ، ثم جاء إلى نهايته : « . . وهكذا ينتج عن هذه التجربة كمية وافرة من النتروجين . كرر ذلك يا فايفر ! »

وكرر هانز بوجه متكلّف ومقلدًا لهجة المعلّم :

« وهكذا ينتج عن هذه التجربة كمية وافرة من النتروجين » .

فمدّ شناوتس بوزه : « ألا زلت تنطق هذا النطق الأبله ؟ »

فيأتي صدى ذلك ضحكًا هادرًا من الفصل كلّه .

ولكن صوت الجواب من حناجر الفتيات غطى على صوت القرار الخشن للتلاميذ ، لقد صارت جوقة الرجال جوقة مختلطة .

* * *

عند العصر كانت حرم المدير ، السيدة كناور وابنتها تجلسان على طاولة القهوة ذات الشرشف الفاخر تنتظران السيد البروفسور كراى .

وكان ينبغى على إيفا أن تقوم بـدور ربة البيت الصغيرة ، فلفت حول وسطها مريلة صغيرة مزخرفة .

كانت فطيـرة الصينيـة الجبـارة الموضوعة على الطاولـة هى أيضًا صنعة يديهـا ، وطبعًا مـارست ماما إشرافًـا عليها خـلال إعدادها ، وكان الجانب المحترق فيها قد تمّت تغطيته بمهارة برشات من السكر .

كانت مامـا كناور عصبية بعض الـشىء ، فهى تارة تُعدّل وضع ملعقـة صغيـرة وتارة تعدّل من وضع قدح مـا فوق الطاولة ، وتدوّر الفطيـرة بحيث تأتى الجـهة الحسنـة أمام مقـعد البـروفسـور كراى ، وتوصى ابنتها بآخر التوجيهات :

« لابـد أن تكـونـى حـقًـا ظريفـة نـوعًـا مـا مـــعـه يا إيفـا ، وينبغى أن يلاحـظ بالتدريج أنك تحبينه . أنزلى البلوزة لأسفل بعـض الشىء واعـتـدلـى فى جلـسـتك . مُدّى صـدرك للأمــام ! تبـدين كطـفلة » .

يدق جرس الباب .

فتنادى على الخادم :

« يا بنت ، أدخلى السيد فوراً ! »

أخيراً ! سرعان ما تُدفع الكراسى بحيث تبدو فى صورة مستقيمة .

ويجلسان إلى الطاولة ،وتلتقط الأيدى أشغال الكروشيه .

بودٍّ من فضلك ! الآن يمكن للزائر أن يتقدم للدخول .

والزائر يُدعى هانز فايفر . يأتى حاملا معه عقوبته المدرسية ، وهو لم يتوقع استقبالا بهذا الاستعداد ، وقدّم نفسه للسيدتين . وقال إن السيد الناظر طلب منه الحضور .

ماما كناور لاتفهم جَلِيَّة الأمر تماما ، ولكن ربما كان لهذا سببه ، فزوجها لا يفعل شيئًا لم يتدبره جيداً ، ولم يكن أمامها إلا أن تدعو التلميذ إلى المائدة ، فيجلس بين الأم وابنتها ،وكان كراى مدعواً للحضور فى الساعة الرابعة . فلنبدأ مؤقتًا ، قهوة ، بالكريمة أفضل ؟ سكّر ؟ إنها فطائر معدة بالبيت .. تفضل ، كُل بِلا كُسوف !

يشعر هانز بذاته ، أخيراً يُعامل مرّةً أخرى كامرئ كامل . أخيراً لا يكون مجرّد تلميذ بائس ، وإنما زائراً .

راح يسلّى السيدتين على أفضل طريقة ممكنة ، وأنشأ يتحدث عن حصاد البن وعن إليونورا دوزه (*) وعن الأبحاث التى تجرى عن القطب الشمالى وعن سلحفاة المستنقعات وعن آلاف الأشياء الأخرى . بعض الشىء عن كل شىء . كأنه مجلّة .

وشعاره دائمًا : أذكى بعشر مرّات .

تنصت ماما كناور بكل حَوَاسّها لفايفر ، فيتملّقها هانز ، ويبدى إعجابه بفستانها وبروشها ، ويثنى على القهوة والفطائر ، ويخاطبها بقوله : « سيدتى المبجّلة » .لقد انزلق هانز بين ظهرانى الأسرة .

فجأة ينهض . فقد دخل بابا كناور .

وخلفه كراى .

« فايفر ، أين العقوبة التى أدّيتها ؟ »

فقال : « العقوبة ؟ » . ويحمر وجه إيفا ،وتعض على شفتيها ولاتعرف السيدة كناور ما الذى ينبغى أن تقوله ، ولا يعرف الآخرون أيضًا ماينبغى أن يقال . ويصبح الحال ثلجيًا ، تحت الصفر .

(*) إليونورا دوزه Eleonora Duse (١٨٥٩ - ١٩٢٤) ممثلة تراچيدية إيطالية ذات شهرة عالمية ، مثلت باقتدار فنى أعمالاً تراچيدية عديدة ، منها على سبيل المثال : « نورا » لإبسن و« غادة الكامليا » لدوما .(المترجم) .

وأخيراً تجد السيدة كناور بداية لكلام :

« إذن فنحن لانريد أن نؤخرك أكثرت يا سيدت فايفر » .

ويكمل البروفسور كراى : « ومؤكد أنه لازالت وراءك واجباتك المدرسية لتنجزها » .

يشعر هانز بالمهانة ، ويريد أن يقول شيئًا فيه حِدَّة .

« عفواً ، إنما كان ورائى . . . » .

فقال كراى : « ليس وراءك شىء . اجلس ! » .

ولا يجلس هانز فايفر ، وإنما ينحنى انحناءة خرقاء ، وينسل من بينهم مفعمًا بالخزى كأنه جَرْوٌ مبتل .

* * *

فى اليوم التالى لم يكن البروفسور كراى لطيفًا بدرجة ما مع هانز . فلم يكترث به ولم يُراع دوره فى أثناء الدّرس ، وتجاهله تمامًا . فقال هانز فى نفسه : من ناحيتى فأنا أستطيع أن أحتمل هذا طويلاً .

لكنه من سوء طالعه نسى أيضًا كتاب التاريخ ، عندئذ صار شناوتس شديد التهكم . « يا فايفر ، أنت إنسان يتلهف على دعوة لشرب القهوة ،عليك أن تأتى إلىّ اليوم عصراً فى مَسْكنى فى تمام الساعة الرابعة بالضبط ومعك الكتاب . ولكن لن يكون هناك قهوة وفطائر » .

وفى الساعة الرابعة بالضبط عصراً - بل قبل ذلك بعشر دقائق - كان هانز فايفر هناك ، ليس لدى السيد البروفسور كراى ، وإنما كان على الطريق الزراعى (نويراتر) الواقع خارج البلدة ، ولم يكن يحمل أيضًا كتاب التاريخ ، وإنما باقة ورد صغيرة ومضحكة ، جمع زهورها خلسة من حديقة مستشار الصحّة . كانت عصا صغيرة من الخيزران مطعمّة بماء الفضة تتلبلب فى يده ، وكان يلوح بها فى الهواء فيقطعه فى الفراغ مثلثات ومربّعات .

كان برج كنيسة يوجنا يدق تمام الرابعة ، إنها ستأتى الآن فى أى لحظة ولابد ، أما شناوتس فله أن ينتظر إلى أن يحتضر ،وغدًا يحصل على أى عُذر لتأخره عليه ، فلمثل ذلك توجد السيدة فيندشايد . أما اليوم فعليه أن يسوّى مسألة يوهانز فايفر وتصور ماقد يقوله لها : «صغيرتى إيفا ، دعك من الهراء . فما كنت إلا غاضبًا لأنى لم أستطع أن أخدع عقلك ، لكنك حقًا فتاة مفرطة الذكاء ، ثم إننى لا أريد أن أكرر ذلك أيضًا » .

أين هى إذن ؟ مؤكد أنها فى الطريق إلى هنا .

ولم تكن إيفا فى الطريق إليه .

فحين أرادت أن تزوغ من البيت كما هى عادتها لتذهب إلى صديقتها الموثوقة ليزبيث - ضبطتها أمها .

« إلى أين تريدين الذهاب ثانية » .

« آخ ، لاشيء البتة ، أردت فقط . . » .

« لم أستطع أن أتحمل صوت ركضك . وبالمناسبة ، يلزم أن أتحدث إليك » .

دقت الساعة في كنيسة يوحنا الرابعة والربع ، وكان هانز مايزال واقفًا وقفته عند طريق نويراتر الزراعي ، وأخذ صبره في النفاد تدريجيًا . فليس الانتظار بالجانب القوي في شخصيته ، لكنه هو أيضًا ألجأ شناوتس للانتظار ، فتؤاسيه هذه الفكرة .

ولكنه من العجيب أيضًا أن تدعه إيفا ينتظر ، ربّما كان هذا بادرة خير ، فالقليل من عدم الدقة برهان على نوع ما من رفع التكليف ، فالمرء يكون دقيق المواعيد مع الغرباء .

يتذرع بالصبر ، ويتمشى جيئة وذهابًا بين أشجار الطريق العام ، وراح يعد الخطى ، ثم يحسب عرض الطريق والمسافة بين الأشجار .

في الرابعة والنصف ينتهي الحديث بين إيفا وأمها ، ويتورّم وجه إيفا من العويل ، وتوافق على كل شيء .

« إذن يا بنيتي ، فأنت تعرفين الآن ما ينبغي عليك عمله . مدى يدك لتتعاهد ! » .

وتمد يدها بلا رغبة مشيحة بوجهها ، ثم تدخل حجرتها وتغلقها عليها .

كـان هانز في ذلك الوقت مـايزال واقفًـا بإخـلاص وأدب على قـارعة الطـريق الزراعى نويراتر ، ومع ذلك لا ينبـغى أن تؤخذ كلمتا (بإخـلاص وأدب) بمعناهمـا الحرفى ، ولم يـعد حـسـاب المسافـة بالخطوة يمثل له تسليـة من أى نوع ، فانصرف إلـى إفراغ غضـبه فى الأعشاب والنباتات والغـصون البريئة التى شرع يضرب أعناقـها بعصا التنزه ، وكان يلقى على ساعته نظرةً كل عشر دقائق .

وحين بلغت الساعة الخامسة إلا ثلثًا وجّه إلى إيفا إنذاراً مؤدّاه أنه سينتظر هنا خمس دقائق بالضبط ، لن تزيد ثانية ، وعند الخامسة إلا الربع مدّد الإنذار خـمس دقائق أخرى ثم ثلاثا بـعدها ، وعندئذ بلغ الأمر ذروته . فطـارت باقة الـزهور الصـغيرة فى منحنى كبير لتـستقر فى الحفر الموجـودة بجانب الطـريق ، وكادت عـصا التنزه تصحبها فى طيرانها .

عندئذ جـال البروفـسور كـراى بذهنه ثانيـةً وفى الوقت المناسب ففـكرة انتظـار شناوتس هو الآخر له منذ ثـلاثة أرباع الساعـة وكونه لابد قد انفجر حنقًا عليه فى أثناء ذلك ، كانت هذه الفكرة بالنسبة له كالبلسم .

وذهب ليشاهد ذلك.

فـتحت خـادم البروفـسور كـراى العجـوز الباب ، وقـالت إن البروفسـور قد خرج منذ قليل ولكنه سيعود حـالاً ، وسألت إن كان السيد الشاب يود الانتظار لحين عودته ؟

وحالما دخلت الخادم المطبخ ضبط هانز ساعة جيبه على الرابعة ، وضبط ساعة كراى الحائطية على الرابعة ، وضبط الساعة الموضوعة كتحفة بها رسم مُجنّح للعذراء على الرابعة ، وضبط المنبه المجاور الموضوع على الكومودينو هو الآخر على الرابعة . بينما كانت دقات الخامسة تتوالى من خارج البيت .

سرعان ما عاد شناوتس . ووفقًا لما تقتضيه قواعد اللعبة ، استسلم هانز للتوبيخ على عدم دقة مواعيده ، وسبب له هذا نوعًا من السرور ، وحين انتهى كراى ، وحاول أن ينتقل إلى تحذير أبوى ، سحب هانز ساعته بسحنة شهيد وقال : « سيدى البروفسور ، الساعة الآن هى الرابعة » .

« إذن فساعتك غير مضبوطة » .

« ربما كانت ساعتك هى غير المضبوطة ، سيادة البروفسور » .

« حقا ! » قالها كراى وهو يشير إلى شتَّى ساعاته ، وقد انخفض صوته بصورة كبيرة ، وفى نهاية المطاف أخّر ساعة جيبه حين غُلبت فى التصويت .

اغتم كراى بدرجة لاحدود لها لكونه وبّخ تلميذًا - حتى وإن كان فايفر - بغير وجه حق ، واعتذر بكل صور الاعتذار .

« لست غاضبًا منك سيدى البروفسور . فيمكننا أن نضيف هذا التقريع إلى رصيدى » .

كان يشعر فى قرارة نفسه بقـدر أقل من معهود شجاعته ، وحين انطلق ثانية إلى الشارع ، أدرك كل أبعاد بؤسه . ماذا دها إيفا ؟

يَعْدو إلى البيت .

ولا يعلم لماذا .

كان مستشار الصحة شتـاينهاور قد ذهب إلى الحمّام ليشطف كبد السكّير . ولابد أن كنول نقل مـحل إقامته ، فقـد فاض به الكيل من تعنيف السيدة فيدنشايد المستمر له ، وهرب بعلاقته كل مهرب .

ينزوى هانز داخل حجرته ، ويدق جرس البيت أسفل ، فيذهب هانز ليـفـتح ، فـيسـلمه طفـل خطابًا له ، وترتجف يده ، ويقـرأ ، يشـحب لونه ، ويكوّر الخطاب ويرمى به إلى الأرض ، يـقعـد على صندوق به زجاجات فـارغة ويشخص ببصـره إلى الكرة الورقية ، ثم يلتقطها ويفردها فى تكلُّف وبعناية ثم يدسها فى جيبه .

تسمع السيدة فيندشايد دبيب خطواته العنيـفة داخل حجرته جيئة وذهابًا ، دائمًا جيئة وذهابًا ، لمدة نصف ساعـة ، بل أكثر . فتسأله إن كانت تُعد له شايًا . فيطلق سـبابًا مفزعًا ، وينزل السلّم هادرًا إلى الشارع ، إلى الهواء .

يتجوّل فى المدينة بلا هدف ، فى طولها وعـرضها بلا غرض ، ويمشى فى شوارع لم يرها مـن قبل - وفى هذ المدينة الصغـيرة يكون لهذا معنىً كبير .

كان ينام نومًا قليــلاً فى الأيام الأخيرة ، وكان كل مــا فيه يلهث توقًا للتهوية وللحرية ، وهو يستشعر حــاجة لأن يُجهد جسده فيمشى عبر الحــارات يخبط خبط عشــواء ، ويتوقف عند مولينار البــستانى ، فيجد ابنه يقوم بزراعة الصبار ، بينما يغرس العجوز أوركيداً .

يشتــرى هانز شجــيرةً من زهور الــكيمبــيديوم لويــانوم بخمــسة وعشرين مــاركًا . إن بها مائة زهرة ، واليوم هو يوم الجــمعة . وفى ضحى يوم الأحد تسلَّم زهور الأوركيد لدى الآنسة كناور .

لايلبث أن يعود إلــى البستــانى بعد خروجــه من عنده ، ويلغى طلب الزهور قد كان فى الأمر خطأ ما . يحملق البستانى فيه بشدة ، ويخرج المال ليعطيه إياه ثانية .

يحل الغروب . تبــزغ نجوم فى قــبة السمــاء اللامعة . تخــتفى جمــالونات البــيوت والناس كــأنهم مغــمورون تحت الماء ، فــتصــبح بابنبيرج فينيتا (*) لكن بلاط الشارع يوحى بأى شىءإلا الرومانسية . إذ كيف يمكن أن يتعثر المرء فى سيره إلى هذا الحد ! يؤلمه باطن قدميه .

لن يذهب إلــى البــيت . كــل شىء إلا الذهاب إلى البــــيت ، ويواصل عرجه . فجأة يرى شيئًا كــالخيال ، فيبحلق مندهشًا ويمسك رأسه بيده . لقد جُنَّ جنونه لهول ما رأى :

(*) فينيتا Vineta مدينة أسطورية سلافية على جزيرة Wolin تقول الأسطورة أن البحر قد ابتلعها . (المترجم)

فأمامـه يقف ، كأنما انشقت الأرض عنهم ، رفاقه فى نبيذ ملقط الجمر : مستشار العـدل فلايش ، وإتسل العجوز ، وصاحب المشورة فروبل .

* * *

هاهم أولاء يجلسون فى حجـرة خلفية صغيرة بأكـسماخر المطل على السوق ، وفى صحبتهم تلميذ الثانوية هانز فايفر .

كان هذا شيـئًا جديدًا تمامًا على السادة الكهول : فـقد كان هانز فايفر يصر على وضع كاب التلاميذ على رأسه كلما رُفع عنه ، وكان يبدو بوجه كوجه پارتسيـال (*) ويرفع إصبعه استئـذانا كالتلاميذ وقد ضحكوا على ذلك حتى كاد يُقضى نحبهم .

ثم إن هانز كان لابد أن يحكى لهم ماحدث .

(*) بارتسيـڤال Parzival : كلمة من أصل أنجلونورمـاندى ، وتعنى الفتى النشيط السعيد المتسم بالتهور فى الفكر والتصرف ، وتطلق فى التاريخ الميثولوجى والأدبى لأوروبا على فارس أسطورى من حلقة الملك أرتوس Artus ، وهذا الفارس هو بطل ملحمة فرنسية لم تكتمل ، كتبها Chrétien de Troyes ، وأما الأديب الألمانى فولفرام فون إشنباخ Wolfram von Eschenbach فقد ربط فى روايته الشعرية التى كتبها عام ١٢١٠ بين موتيف بارتسيـڤـال ومـوتيف جـرال Gralsmotiv وهو حـجـر أو طبق سـحـرى على اخـتـلاف فى التـفاسير ، ربط إشنبـاخ بينـهـما ليـصنع صـورة فريدة للفروسية المسيحـية فى القرون الوسطى ، وعلى أسـاس ملحـمة إشنباخ تقوم أوبرا Parsifal لريتشارد فاجنر (عام ١٨٨٢ م) (المترجم) .

كان القلق عليه قد استبـد بهم فى برلين ، حيث لم يسمعوا من أخباره شيـئًا على الإطلاق . فقد كان - شأنه شـأن معظم الكتاب - على درجة عالية من الكسل عن الكتابة ، فلم يكن يرد على الخطابات إلا حين يتملكه غضب مما ورد فيـها ، واتصلوا مرةً بماريون ، ولكنها وضعت السمـاعة ، وفى نهاية المطاف اعترى الخوف السـادة أصحاب نبيذ ملقط الجـمر ،الذين يتحملون نوعًا من المسئـولية كآباء للفكرة ، فكان أن اتخذ وفد ثلاثى منهم سبيـله بحزم وسرعة للبحث عن ذلك اليمينى . والآن كانوا قد وصلوا .

إذن فقد راح هانز يـقص عليهم ماحدث . بدا كل شىء جـميلا منذ البداية ، من أول دقة بلييم . . بلييم ، مروراً بشناوتس وبوملى ، ونبيذ عنب الذئب والجبس المدرسى ،وصولاً إلى كبريتيد الهيدروجين وماتجم عنه ، وقد راح يقص بلا أدنى تزويق ، ولكم أثَّر فى نفوسهم كيف أنه أخذ مسـئولية كل هذه الموبقات العظيمة عـلى عاتقه ، حتى جريرة إخـفاء الحذاء ومسـألة اللافتة ، بخـضوع تام. غيـر أن السادة الكهول شرعوا فى الضحك حتى ترجرجت كروشهم ، إلى أن بردت شرائح البفتيك (آلاماير) وصينية الكبدة بالبصل المعدة فى الفرن .

ومن وقت لآخر كان يرد أيضًا اسم إيـفا ، وبدا كما لو لم يكن سبـيل لتحاشى ذكـره ، ومن ثمّ كان سادة نبـيذ ملقط الجمـر الثلاثة يرهفون آذانهم كلما ذكـر ، ولكن الذى سمعوه عنه كان قليـلا وغير متـرابط ، بل ولم يكن فـوق ذلك مضـحكًا على الإطلاق . لكنهم

حين كانوا يضحكون ، ليبدوا انتباههم لحديثه ، كان هانز فايفر ينهض فجأة من فرط الاستياء .

إذن فثمة شيء هنا ليس على مايرام ، فما كان لهانز بعد كل هذا القـدر من الدعـابة والمزاح أن يبـدو بهـذه الصـورة على الإطلاق ، فتـكأكأوا عليـه من كل جانب . لكن أقـواله صارت الآن جـميـعًا كلمات مقتضبة .

« من تكون هذه الـ إيفا على الإطلاق ؟ »

« لا أهمية لذلك » .

« هل هى على الأقل جميلة ؟ »

« ولماذا على الأقل ؟ »

« مثقفة ؟ »

« إنها تعد يوهانز فايفر رجلاً صغيراً » .

« ثريّة ؟ »

« دعونى فى هدوء ! »

« وماريون ؟ »

« انتهى » .

ينظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم بعضًا ، ويصدر التشخيص . حالة صعبة . ويقوم إتسل العجوز آخر المطاف بالهجوم الحاسم . « فتاى العزيز ، اسمع منا نحن الاستراتيجيين القدماء : لقد ألمّ بنا جميعًا ذات يوم ما أصابك ، ولا أحد يفر من قدره ، ولايوجد دواء للعشق إلا طريقة راديكالية: الزواج . وهو دواء خيول ، لكنه ناجع » .

يشخص هانز ببصره للطبق الموضوع تحت كأس جعّته ويقول :

« هراء . تلاميذ الثانوية لايتزوجون » .

« ماذا تقصد بتلاميذ الثانوية ؟ »

فقال وهو يكوّر كابه فوق الطاولة : « أنا هنا فى بابنبيرج تلميذ بالثانوية ! وحيث أننى كتلميذ رث الهيئة . . . فى صحتكم ! » ، وأذاب هانز بقية جملته بجرعة من الشراب ،وحملق ثانية فى مفرش الطاولة ذى المربعات الزرقاء والبيضاء .

« وماذا أيضًا ؟ »

« لاشىء مطلقًا مساء غدٍ أسافر معكم عائدًا . وانتهى ! خلاص ! »

« أتود إذن أن تنفتل من هنا مختفيًا عن مسرح الأحداث ؟ »

فأردف فى أسىً : « ليس كلية . فأنتم تعرفون شغفى بالنهايات الدرامية ، وصباح غد أذهب مرةً أخرى للمدرسة وأقدم

عَرْض الوداع وسيكون أثره – أقول لكم – كالقنبلة ، وسيكون عرضًا يطردونني بسببه فوراً شرّ طردة . هكذا أكون قد حققت الهدف من رحلتي . . على الأقل لن أكون عرضةً بعد ذلك لإغراء البقاء هنا فترةً أطول » .

خيَّم الصمت على حلقة الجلوس ، بينما يرضع مستشار العدل تبغه البرازيلي ، إتسل العجوز مشغول بطعامه ،وهانز يقلب بصره في قائمة الطعام، ولم تكن شهيته مفتوحة . كانت هنالك شرائح لحم مشويّة بالمايونيز – وصدرت الدعوة لتناول الطعام المقدم على صوانٍ فضية – كان الطعام الدافئ يقدم هنا حتى الحادية عشر مساءً .

« فايفر ، أنت مطلوب » .

يجول هانز ببصره ، فيجد البروفسور كراي واقفًا أمامه .

« فايفر ، ألا تعلم أنه لا يجوز لك بدون مصاحبة والديك أو من ينوب عنهما أن . . » .

« أوه ، لقد أحضرت من ينوب عنهما معي يا سيادة البروفسور أحضرت ثلاثةً دفعةً واحدة ، هل لي أن أتولى تعريفكم ببعض : السيد الأستاذ الدكتور كراي : معلِّمي . السيد مستشار العدل فلايش : الوصي عليّ . السيد إتسل ، صاحب بنك : الوصي المضاد . السيد صاحب المشورة فرويل : الوصيّ الأعلى » .

يبتسم البروفسور كراى باشمئناط ، ويقول لنفسه : تلموذ صعب المراس كهذا لابد له من ثلاثة أوصياء .

قالوا متَمَنّين ألا تفوتهم الآن فرصةُ الفكاهة :

« ألا تريد أن تتفضل بالجلوس ؟ »

يرمق كراى السادة بارتياب ، إنهم يعطون انطباعًا بالاستقامة ولاريب ، وفضلاً عن ذلك فلا مانع من ارتباط ما بين المدرسة والبيت ، فيتخذُ مجلسه ويطلب كأسًا صغيرةً من البيرة البيضاء ومعه جُلاش الفيليه الذى اعتاده .لكنه غير مستريح إذ يشعر أن تلموذه يراقبه فى حياته الخاصة لدى مأكله ومشربه ، ولا يتعدى الحديث مستوى مايدور فى صالون الحلاق .

كذلك فايفر لايشعر بارتياح ، فهو يخشى أن يفكروا فى اتخاذ شناوتس مادةً للسخرية ، وهو لايجد فى نفسه رغبةً فى ذلك بتاتًا . ثمّ ماذا دها إيفا ؟ يتململ فى جلسته يمنةً ويسرةً ، وينظر كل لحظة إلى الساعة .

قال شناوتس : « إذا كان مايزال عندك واجبات تنجزها ، فلا تعطل نفسك بالبقاء هنا . فالساعة الآن هى التاسعة » . « بل العاشرة » ، أراد الآخرون أن يقولوا ذلك ، لكن هانز أشار إليهم فأمْسكوا . وبرغم أن الوقت كان أسبق مما هو فى الواقع بساعة كاملة إلا أنه استأذن وخرج يدك الأرض بحذائه الطويل .

بذهاب هانز يُرفع الحرج ، وينطلق البروفسور كراى فى حديثه ، ويجد موضوعًا يتحدث فيه : « التلموذ فايفر ليس بلا موهبة ، ولكنه لايزال طفوليًا جـدًا جدًا . ويمارس عبثا كثيـراً » . ويحكى لهم قصة نبيذ عنب الذئب وغـيرها من جرائره ، كل ذلك من منظـور المعلم ، ويندهش السادة رفـاق نبيذ ملـقط الجمر الثـلاثة ، كيف أن كل شىء يبدو من وجهة النظر هذه مختلفًا كليةً ، ولم يعد فيه ما يثير الضحك مطلقًا .

تَواصل الشراب بشدّة أثناء الحـديث ، فكان الندمان يشربون مع كل كأس من الجعة كأسًا مضاعفًا من النبيذ وفقًا لعادة أبناء بابنبيرج ، ومع كل كأس ثالثة يتناولون شطيرة بلحم فخذ الخنزير المملّح . كأس النبيذ المضاعف يؤخذ كمعادل للجعّة الباردة ، وشطيرة اللحم كمعادل لكأس النبيذ المضاعف ذى التأثيـر القوى، لقد صار الشراب علمًا فى المدينة الصغيرة . لم يكن أمام الناس شىء أفضل من هذا .

أخذ شناوتس بالتدريج يَسْخُن ، وراحت أرديته المبطنة تسقط عنه قطعة بعد أخرى . سقط أولاً لقب البـروفسور ثم لقب الدكتور ، ثم لقب المدرس الأول ، ولم يتبقّ إلا الإنسان كراى . إنسان رائع جدًا ، مليء بالخيـر وحب البشر ، عقـلانى تمامًا وذو معرفة واسـعة وأفكار ذكية ، ويُمـسى التفاهم بينه وبين السادة القـادمين من برلين على خير

وجه . إنهم لايـفهمـون على وجه الإطلاق كـيف يستطيع فـايفر أن يجعل منه كاريكاتـيرا ، حتى نطقه للكلمات صـار من كأس لأخرى طبيعيًا أكثر فأكثر ، إلى أن صار آخر الأمر لايختلف عن نطق مواطن عادى أخذته سِنةٌ من السُكر .

حين رفع فـريتس منافض السـجائر ومـفارش المناضـد ، ورصّ الكراسى فوقها ، اتخذ السادة طريقهـم إلى البيت وقد انتابتهم حاجة ملحة للارتماء فى فراشهم .

والحق أن هذه الحاجة لم تكن قد ألـمّت بهانز فايفر حين ودّعهم فى الساعة العاشرة ، ثم إنه لايدرى سـببًا لذهابه عنهم . فراح يمشى فى المدينة مرّةً أخرى بلا هدف .

تُمسى شـوارع بابنبيـرج مـيـتةً عند الساعة الـعاشرة ، ولا يُرى بين الحين والآخـر إلا إحدى الخـادمات وهى تقـود كلب سادتهـا فى الهـواء الطـلق وتسـحبه مـن شجرة لأخـرى ، أو عاشقـان صغـيران لايـكاد المرء يبـصرهمـا وهمـا قـابعـان فى الظل المخـروطى لأحـد الفـوانيس ، أو هرّة تمـرق فى الشـارع كـأنـهـا طيف ، وتختـفى فى إحدى الحجرات الأرضيـة . كل ذلك يلفه هواء ليلى ناعم وبارد قادمٌ من النهـر . ومن بعيـد ينبح كلب . ثمّـة نافـذة تغلق ويصدر عنهـا صلصلة .

كل شيء فيما عدا ذلك ساكن ، حتى ليستطيع المرء أن يسمع أفكاره .

يتوقف هانز فجأة أمام المدرسة .

ما الذي يبتغيه هنا ؟ لاشيء . كيف وصل إلى هنا ؟ لايدرى . لابد أن سر ذلك مغناطيس ما .

هذا الصندوق الكبير صامتٌ الآن كالموت ومظلم ، ليس إلا نافذتان مضاءتان في الجناح الأيسر من الطابق الثاني : نافذتا حجرة الجلوس في مسكن كناور .

يتوقف هانز أمامها ويحملق لأعلى ، ها هي ذي الأسرة جالسة الآن هنالك . يبدو أن ماما تجلس ومعها دائرة المجلات المستعارة(*) ، وأن إيفا تلعب مع أبيها الشطرنج ،ولابد أنه تنازل مقدمًا عن إحدى طابيتيه - فهذا بعض ما تقتضيه السلطة الأبوية - ولكنها خسرت برغم ذلك .

لم يأتِ هانز إلى هنا لكي يرى إيفا ، فقد كان هذا أمرًا مستبعدًا تمامًا في ذلك الوقت ، وفضلاً عن ذلك فهو أيضًا لايجد في نفسه أدنى رغبة في ذلك الآن . كلاوألف كلا ! غير أنه كان من الممكن

(*) دائرة القراءة Lesezirkel نظام لاستعارة المجلات الدورية بانتظام ، وتطلق التسمية أيضًا على القراء المشتركين فيها . (المترجم)

على كل حال أن تقوم إيفا لتحضر للأب بعض البيرة . فهذا أمر وارد ، ولعل الحظ يسعفه .

لماذا كان يقف هنا ؟ ولماذا لا يصيب الظمأ الأب كناور ؟ لقد كان الجو حاراً اليوم .

شيئًا فشيئًا أخذ عنقه يؤلمه ، فاستند إلى أحد جدران المنازل . يمر عليه راكب دراجة متأخر تصر دراجته صريراً ، وفي مكان ما يعول طفل .

لازالت النافذتان مضيئتين ، ولكن في الدور الأعلى - الدور الثالث ، يضاء أيضًا نور ، لابد أن هذه حجرة إيفا . لم يعطش كناور فتذهب إيفا لفراشها .

يبقى النور مضاءً في حجرتها ، ويُطفأ الآن ضوء حجرة الجلوس . لابد أنها قد خلعت ثيابها منذ فترة . لعلها تقرأ ، أتراها تقرأ أحد كتبه ؟ هكذا يستطيع أن يحادثها من حيث لا تدرى ، يرتجف لورود هذه الفكرة على خاطره . لازال الضوء مسرجًا ، لعلها لاتقرأ - بل تحملق في السقف حزينةً - وتدرك أنها لن تغفو .

« أنت يا هذا ! ماذا تفعل هنا ؟ »

كان السائل شُرطىَّ الليل .

* * *

حين استيقظ البروفسور كراى فى حوالى السابعة والنصف فى الصباح التالى - كان يشعر بضغط غادر فى جمجمته ومذاق غير ذى طابع فوق لسانه . ماذا حدث فى مساء الأمس ؟ آه . . حقًا . لقد كانوا ولاريب أناسًا ثابتى الجأش فى الشراب .

يفتح شناوتس عينيه المغمضتين بصعوبة باحثًا عن المنبه . لم تتعدّ الساعة السادسة والنصف ، لذا فأمامه الآن نصف ساعة أخرى . عجبًا لزيادة الضوء صباح اليوم .

انقلب على جنبه الآخر وسرعان ما راح فى النوم ثانية .

فى ذلك الوقت كانت السنة النهائية ، مُدَعّمة بآنسات الثانوية للبنات ، قد اجتمعت فى قاعة الفيزياء ، منتظرين جميعًا أستاذهم ومصطفين فى صفوف مُلوّنة كما أوصاهم هو من قبل ، ولاريب أن بعض الأماكن قد تبدلت بما يلائم أصحابها . فجلس روزن بعيدًا عن أخته ، وكذا فعلت أخته أيضًا ، واقترب لوك من لوته الطويلة وشرع يصعّد فيها طرفه كأنما يتعبّد ، واستبدل كنيبل إزوليته بواحدة أخرى أقل صياحًا . أما هوزيمان الضخم فقد صادف إعجاب فتاة زئبقية صغيرة فانحنى مبتسما لها ابتسامة رضًى .

لم يجلس هانز فايفر إلى جوار إيفا . كان قد أحضر معه قطعةً كبيرة من الكرتون وراح ينبش فى حقائبه .

« أين يمكث شناوتس ؟ »

« قد ألغـيت الاشتراك فـيه »[*] قالها هانز بـصورة عابرة وتأبّط قطعة الكـرتون وأخرج من دولاب الفصل كـرة قدم تالفـة وخرج من الفصل حاملاً هذه الأشياء .

دلف من الممر محاذراً واختفى بعُـدته التى تشبه عُدة المسرح وراء باب تعلوه لافتة : « خاص بالسادة أعضاء هيئة التدريس فقط » .

وظهر بعد عدّة دقائق وقد تغيّـر تغيراً جوهريًا ، حتى وإن كان فى غير صالحه ، فقد استعان بباروكة ذات خصلات وبذقن شعثاء من الصوف وببعض من صمغ المصطكاء ليجعل من نفسه صورة صحيحة للبروفسور كراى . على أنفه الذى طلى بلون يميل للحمرة تقبع نظارة ذهبـية قمـاطة ، ويـرفرف من جـيبـه العلوى منديل حـريرى طويل كالحيـاة . كانت الكرة تصنع كرشًا ممتـداً تحت صداره الأبيض - لقد أعدّ كل شىء بصورة صفـيقة مبالغ فيهـا ، وبدا بالنسبة إلى شناوتس كأنّه كاريكاتير وقح له .

لم يكد يضع قدمه متجها نحو قاعة الفيزياء إلا وكانت الضوضاء التى انطلقت فى ابتهاج من حناجر تلاميذ وتلميذات حصة الفيزياء قد قرعت أذنيـه . وفى طريقه إلى القاعـة قابله تلميـذ بالصف السادس وحيّاه تحية تبجيل .

(*) abbestellen : يلغى الاشتراك فى مجلة ونحوها . ولايخفى ما فى التعبير من تهكم . (المترجم)

فى قاعة الفيـزياء كانت الجلبة قد استحالت صخبًا ، فقد رتب التلامـيذ حـفلة رقص صغيـرة ، جديدة ومـبهجـة . ففـوق منضدة التجـارب الكبيرة المـطلية بالزنك ، وعند مركـزها تمامًا جلست فـرقة الجاز مكونةً من رودى كنيبل على هارمـونيكا الفم ، وشرادر الأحمر الذى كان يضبط الإيقـاع على قوارير الأحماض وأنابيب الاخـتبار ، وكان المراقصون يدورون حولهما مع المراقصات مثنى مثنى .

لم يستمـتـع تلاميذ السنة النهـائية جميعًـا بدروس الرقص حتى الآن ، وكانت لديهم تصـورات شديدة التبـاين عن جوهر الرقص - فكان بعضهم يمسكون بمـراقصاتهم بأذرع ممدودة ومتصلبـة بعيدًا عنهم ويرقصون حولهن فى دوائر هائلة . بينما ضم آخـرون فتياتهم بحرارة إليـهم - ويبدو أن ذلك كـان لغـرض توفيـر حـيز المكان - لدرجـة انقطعت معها أنفاسهم ؛ وأمـا أكرمان ، صاحب العديد من الأسماء الشَّرَفـيَّة ، فـقد كان مـشغـولاً بكلتا يديه فى حـماية أدراج الأوانى الزجاجـية وحواملها من الراقـصين ، وكان ملفورم هو الوحـيد الذى يجلس منفردًا فى أحد المقاعد .

يفتح هانـز الباب بغتـة ويمشى متـعاظمًا داخل قـاعة الفـيزياء . ويقول بلهجة كراى :

« جلوس ! »

يصــدر عن الفــصل صــيــاح مكتــوم ويتفــرق المراقــصــون عن مراقــصاتهــم . ثانيتــان من السكون ، ثم يكتشف الــتلاميــذ اللعــبة ويحيون شناوتس المقلّد بصياح كزعيق الهنود الحمر .

يبقى هانز فايفر جامد الوجــه ويجلس على المنصة ، ويفتح دفتر الفصل ويسجل اسمه ، ويبــدأ الحصة على طريقة شناوتس ، ويشارك الفصل فى التــمثيليــة . لقد كانت تمثيلية هزلية باهرة ، خــسارة ألا يشهدها شناوتس ، لعله كان سيُسرّ بها .

قال هانز بلهجة كــراى : « إيفا كناور ، قفى . لماذا تضحكين ؟ أنا مدعو لتناول الطعام لديكم مــساء اليوم . أبلغى والدك بأننى رجل كبــير السن وأُفــضل الذهاب مبكراً إلى الفراش . فــهل لى أن أبعث التلميذ الفاسد هانز فايفر نائبًا عنى إليكم ؟ »

يشحب لون إيفا غيظًا . فتصر بأسنانها بغض الشىء .

« إيفــا كناور . اجلسى . أنت عــبــيطة . وينقــصك النضج فى مراعــاة الأدب . أكرمــان : سجل فى دفــتر الفصل اسم إيــفا كناور لقيامها بتصرف غيــر لائق . . ولوك لابتسامه بسعادة . . وكنييل لأنه لمس تلموذةً » .

كانت نعــمة من نعم الله أن تكون غرفة المدير واقــعةً فى الجناح المقابل من المبنى ولا يشعر أحد من الجالسين فيها بشىء مما يحدث فى حصةً الفيزياء الرائعة ولا بما صاحبها من صخب .

فى ذلك الوقت بالذات كان هناك فى غُـرفة المدير إجراء احتفالى ، إذ كان السيد مستشار التعليم الثانوى قد وصل بشكل مباغت لإجراء تفتيش على المدرسة وكان واقفًا وسط المدرسين الذين جعلوا يصافحونه ويبسمون له فى وُد ، حتى بومل تحدث بالألمانية الفصحى احتفالاً بالمناسبة . كان قد تناهى إلى سمع المستشار أن البروفسور كراى أصبح غير قادر على فرض النظام بالصورة المعتادة فى فصله ، بل إن شيئًا ما قد تسرب عما زُعم من إقامة حفلة سُكْر أثناء الدرس ، والسيد المستشار مقتنع بأن فى الأمر مُبالغة ما . لَكنَّه أعرب عن سروره فى أن يتحدث مع البروفسور كراى بهذا الشأن .

المدير كناور يريد أن يحضر شناوتس ، لكن السيد المستشار يشير بالنفى . فهو يريد أن يحضر الدرس بنفسه .

تتحرك الجماعة الصغيرة مرتبة ترتيبًا دقيقًا وفقًا للدرجة ولمدة الخدمة ، ويقوم المدير ود . بريت بقيادة المستشار قصير النظر .

كُلَّما اقترب الجمع من قاعة الفيزياء ازداد اللغط وضوحًا ، صياح حناجر التلاميذ الغليظة مختلط بالأصوات الفضية العالية للفتيات . ينحبس نفس المدير . يهمهم المستشار بينه وبين نفسه بشيء ما . نعم ، نعم ، يبدو أن أمر البروفسور كراى على غير ما يُرام حقًا ، فلا ريب أن النظام غير مُرضٍ بالمَرَّة .

يسعى د . بريت لصرف انتباه السيـد صاحب المقام الرفيع فيرفع صـوته بالحديث عـاليًـا ، لكن انتبـاه السيـد صـاحب المقام الرفـيع لاينصرف عـما يدور فى القاعـة ، ويعض على شاربه عـابس الوجه فيطرح بومل سؤالاً عمـا إذا كان السيد المستشار يود أن يتفـقد عواميد التسلق الجديدة فى صـالة الجمباز . السـيد المستشار لايريد أن يتـفقد عـواميـد التسـلق فى صـالة الجمـباز ، وإنما يريد أن يرى البروفـسور كراى . لم يعد تجنُّب الكارثة ممكنًا .

كان هانز فايفر قد وصل فى أثناء ذلك إلى ذروة تقليده الهازل ، ولم يعد فى إمكانه على الإطلاق السيطرة على العصابة . أخذ يصيح حـتى كاد حلقـه يدمى ، وراح يملى أقـصى عقـوبات الحبس ويهـدد بإحضار السيد المدير . وتدخل اللجنة الرفيعة إلى هذا الصخب الجهنمى .

من الغريب أن يتـحول فى مثل هذه الأحوال وبمثل هذه الـسرعة صخب يصم الآذان إلى صمت كصمت القبور ، وتتحول جماعة من الهمج الثائرين إلى تلامـيذ مثاليين مؤدبين . وفى التـو يجلس الجميع بنظام فى أماكنهم وينظرون بعيون واسعة لامعة فى الهواء .

هانـز فـايـفـر وحـده هو الذى لم يكن أمـامه خـط للرجعـة ، فوقف مـسربلا بأقنعتـه عاجزًا أمـام الفصل ومحـاولاً أن يغوص فى الأرض . وإذ لم يـوفق فـــى تحـقـيق ذلك اكـتـفى بـأن يبـحلق فى التمثال أمامه .

كان أثر المشهد باديًا حتى على أعضاء هيئة التدريس. فها هو ذا وجه المدير يتلون كأنه حرباء ، حتى لسانه بدا كالذى يذكرنا بهذا الحيوان الغريب ، فجعل يخرج من فمه ويدخل بسرعة شديدة سبع أو ثمان مرات متتالية بلا أى تدخل منه ، وينتاب الهلع فريدولين خشية انهيار الكون ، وحتى بريت صاحب الصدر الرحب فاق المزاح طاقة احتماله ، أما بومل فقد اختنق بنوبة سعال .

ولكن قبل أن يصدر عن المدير كناور أى لفظ كان المستشار ذو النظر القصير قد خطا نحو البروفسور كراى الوهمى وبدأ فى تحيته بظرف شديد :

« يسعدنى سعادة فائقة أن أراك مرة أخرى ياعزيزى كراى . لقد انقضى حقًا بعض الوقت منذ التقينا آخر مرّة ، لقد صرت أكثر رشاقةً إلى حد ما ، على الأقل فى النصف الأعلى ، أما فى النصف الأسفل فبإمكان المرء أن يزعم العكس تمامًا . إنه أثر السنين . نعم .. لا تعطل نفسك أيها الزميل كراى . كنت تحكى منذ لحظات إذن بعض الفكاهة . لابدّ من هذا أيضا ، فالمزاح بالنسبة للحياة كالتوابل . استمر من فضلك ! »

عندئذ استرد المدير أخيراً قواه وأراد أن يضع للأمر نهايةً . لكن بومل أمسكه من سترته بقوة وقال : « أفضل شىء ألا تقول شيئًا وأن تدع فايفر يستمر فى الدرس » .

اقتنع المدير بـالفكرة ، ولم يقل شيئًـا ، فهـو على كل حال لم يكن يرحب بالنزاعـات ، فترك فايفـر يستمـر ، ولكن أجهزة فـايفر تعطلت ، فراح يقلب بصره فيما حوله نشدانا للعون .

« إذن استمر من فضلك » ، كررها المستشار وتراجع ملقيا بنفسه على أحد المقاعد .

لازال هانز فايفـر غيـر مستـوعب للموقف ، فيـشيـر المدير إليه إشارات يائسة . لكن هانز فـايفر يبدو كمن تسمّـر فى مكانه لقد كان بالتأكيد كالكلب الصفيق ، لكن هذا الموقف يفوق صفاقته .

يتلقى المدير دفعة من بومل . فيندفع مقـتربًا بشدّة من هانز فايفر ويهمس له قائلاً : « فايفر ، أتوسل إليك ياعـزيزى فايفر أن تستمر ! واصـل أداء المسرحيـة ! لا ينبغى أن يلاحظ المستشار شـيئًا ! لا أريد هنا مشاكل ».

أخيـرًا استوعب شنـاوتس المصطنع . أم تُراه كان يصطنع الغـباء حتى تـلك اللحظة ؟ وهكذا أخذ الآن فى مـواصلة الدرس بناءً على التوجيه الجـازم لمديره ، واستمر فى تمثيل الكومـيديا ، ويدرّس حصّة الكيمـياء على طريقة كـراى ،فيـبذل كل ما فى وسعـه ويمنح المسألة أقصى ما لديه من طاقة ، فـيتجنب أية مبالغة ، ويصير نسـخة متقنة من شـناوتس ، لدرجـة تجعل الفصل يندمج معه بالتدريج وبين وقت وآخـر يومئ المسـتـشار هو الآخـر له ، ويتـلاشى حنقـه السـابق ،

ويكتشف أن درس كراى درس عصرى ، وجديد وجذاب ومتبّل بالدعابة . حقًا ! كثيرًا ما بزّت الصورة الأصل .

ولكن حرص فايفر على ألا يخرج عن الدور يكلفه مشقة تجل عن الوصف . وتستحيل الدُّعابة ألمًا . فيتفصّد جبينه عرقًا ، ويزداد بالتدريج استخدام منديل الجيب الهائل ليؤدى مهمته . وبين وقت وآخر يتوقف هانز خائر القوى ليلتقط أنفاسه ، ولا يعود صوته مواكبًا بعد لمواصلة الدور .

وعندئذ يهمس المدير له : « استمر يا فايفر ! استمر ! لا تتخلّ عنى فى هذه الورطة ! ولن ينالك عقاب ، وأعطيك على ذلك كلمة شرف ! »

تعاود الشجاعة فايفر فيستجمع عزمه .

بل إن شجاعته تفوق المطلوب . فيقول بلهجة كراى :

« واصل أنت يا فايفر » .

فلا يجيب التلميذ فايفر . ويستمر هانز :

« أين يختبئ هذا الفايفر ؟ طبعًا لابد أن يتغيب مرّة أخرى ، هذا الولد - من أسف أن يحدث هذا سيدى المستشار ، فقد كان بودى أن أقدم لك أكبر قط فى هذه المؤسسة . خسارة ! »

تتردد في الفصل ضحكات مرتابة . ويتصبب عرق كناور دمًا وماءً . ويختبئ بريت خلف منديله . وتحتبس أنفاس بومل .

ثم إن مستشار التعليم المدرسي يود أن يسمع شيئًا من الفتيات فينادي هانز على إيفا كناور ، فلا تنبس ويعتريها انزعاج تام ، ويركبه الشيطان مرّة أخرى . فلربما تكون هذه آخر مرة يستطيع الحديث إليها :

« أنت يا إيفا ، إنني غير راضٍ عنك . إنك لاتبحثين في أصول الأشياء بما هو كافٍ . حقًا ، ليس كل ما يلمع ذهبًا ، ولكن أيضًا ليس كل معتم قذراً ، فقطران الفحم مادة لزجة وقذرة وقميئة وسوداء ككاب التلاميذ ، ومع ذلك تكمن فيها أنفس المواد » .

يتعجب السيد المستشار من خطابه لإيفا بقوله « أنت » (*) ؟ فيسأل : « هل هناك قرابة بينكم وبين الآنسة كناور ؟ »

لا يعرف فايفر بماذا يجيب . ولكن المدير يعرف : « مؤكد يا سيادة المستشار ، ليست قرابة مباشرة ، ولكن شيء من قبيل . . » فيكمل هانز : « خطوبة » .

ويؤكد المدير : « خطوبة » .

(*) مالم تكن هناك علاقة قرابة أو صداقة يخاطب المرء الآخرين بالضمير Sie ويعنى حضرتك (م) وسيادتك (م) .. إلخ ، وإلا استخدم الضمير du وهو ضمير المفرد : أنت ، وقد استخدمه هانز هنا بلا مبرر من وجهة نظر المستشار .(المترجم)

يتلقى هانز تهنئة المستشار ويواصل الدّرس متنهدًا . فقد قاربت التجربة على النجاح .

فى هذا الوقت بالذات كان كراى الحقيقى يهب ناهضًا من نومه ، وكان يحلم لتوّه بأن تلاميذه الأشقياء فى السنة النهائية قد فجروا له صالة الفيزياء فتطايرت فى الهواء .

ولم تكن إلا صاحبة المسكن هى التى تقرع الباب كمدفع . « سيادة البروفسور ! سيادة البروفسور ! اقتربت الساعة من الثامنة والنصف ! » .

ألقى كراى نظرة على المنبه ، ونظرة على الساعة ذات هيئة التحفة وبها عذراء بجناحين . فقفز من السرير ودلّى جذعه من النافذة إلى الخارج : ساعة البرج تشير إلى الثامنة والنصف .

أطلق كراى على عكس كل عادة له لعنةً حرّى ،وزج بنفسه فى ثيابه بأقصى سرعة يتيحها رأس مثقل بالشراب ، وانطلق بذقن غير حليقة وبلا فطور إلى المدرسة .

لا ريب أنه لم يكن داعٍ لهذه العجلة ، فقد سارت الأمور بدونه على خير وجه ، ولم يشعر أحد بأدنى حاجة إليه .

كان السيد المستشار راضيًا كل الرضا عن كراى المقلّد وعن حصتة وبدا النظام فى الفصل أيضا على مايرام . وبدأ السيد المستشار يتأهب للانصراف .

كانت اللعبة قد وصلت ذروتها وآن لها أن تنتهى ، وكانت قوى هانز فايفر قد خارت هى الأخرى ، وتنفس الكل فى القاعة الصعداء . وأخذ المدير كناور يمسح عرقه المتصبب من جبينه ، فقد اجتاز أصعب ساعة فى حياته . هذا ما كان يظنه .

لعل كل شيء كان يمكن أن يسير بصورة حسنة لو أن المستشار أسرع خطوه بعض الشيء ، أو لو أن شناوتس الحقيقى لم يصعد السلالم بسرعة كأنما أصابته جنّة .

إلا أنه فى نفس اللحظة التى يرافق المدير ومعه « الزميل كراى » مستشار التعليم إلى باب الفصل بدافع المجاملة ، يأتى كراى الأصلى مسرعًا ويرتطم بكرش صورته المكوّن من كرة قدم .

أوب !

يقفان فى مواجهة بعضهما بعضًا : شناوتس (١) وشناوتس (٢) كأنما صورة فى مرآة . كلاهما يرتدى نفس الصدار ويحمل نفس الكرش الصغير ونفس منديل الجيب الكبير ، ونفس اللحية المدببة ونفس النظارة القماطة ، ويقف كل منهما بشحمه ولحمه أمام الآخر ويبحلق فيه ، بل يكاد يفترسه بنظرات هائلة . ولم يقدر أحدهما على أن ينبس بشيء .

صمت تام . لا أحد يضحك . تهزهم الواقعة ، فلا يستطيعون الضحك . ينسحب بومل وبريت وفريدولين خفية ، وأمام عينى المدير

تلوح دوائر ملتهبة تشبه الكعك . نسختان من كراى ، هذا فوق طاقة احتمال هذا الرجل الشيخ . وكأنما طار مُخه . فجعل فكره يدور فى دائرة مغلقة ، وكان ما يشغل فكره هو : إلام ينتهى هذا ؟ ولكن الأمر لا ينتهى مؤقتًا ، بل على العكس لا يبدأ جده إلا الآن .

هانز فايفر لا يفكر فى الانسحاب من الميدان ، لقد قال المدير له : استمر ، استمر ! وإنه ليريد حقًا أن يستمر .

فى غضون ذلك كان شناوتس الأصلى قد استعاد قدرته على الكلام .

« أنت أيها الجلف الوقح ! »

فجاء الرد :« أنت أيها الفظ الذى لا قرار له ! »

« سوف أحبسك ! » .

فصاح الصدى « سوف أحبسك ! »

« سيادة المدير ، أرجوك أن . . » .

« سيادة المدير ، أرجوك أن . . » .

بدأ الحوار يأخذ صورة التناسق السيمترى ، كأنه بالضبط صورة .

لكن المدير الذى ينشد الطرفان عونه يظل بمنأى عن التدخل ، ويحتفظ بحياده . إنه لا يحب المنازعات .

كان مستشار وزارة التعليم قد لاحظ بالفعل أن ثمة شيئًا ليس على مايرام ، فمسح نظارته وجعل يختبرها ، ولكن لا يمكن أن تكون هي علّة ماحدث . فلا شك أن الزميل المحترم كراى موجود بصورة مزدوجة ، ثم إن المرء يستطيع أيضًا وبوضوح تام أن يسمع هذا ، لأن نسختى شناوتس ينعقان فى وجه بعضهما بعضًا بلا توقف ، ولم يرد أحدهما أن يتنازل للآخر .

« أنت يا ولد ! »

« أنت يا فظ ! »

« يا جلف ! »

« يا عيّل ! »

شناوتس Contra (*) شناوتس .

فطرح المستشار تساؤلاً مشروعًا عن شناوتس الحقيقى فصاح شناوتس الأصلى : « أنا يا سيادة المستشار ! » .

فصاح غير الحقيقى بصوت أعلى منه ومقلّدًا دائمًا لهجته : « بل أنا يا سيادة المستشار ، فأنا الذى كنت هنا أولاً ! » .

(*) ضد . باللاتينية فى الأصل . (المترجم)

فيتوجه المستشار إلى المدير .

ويتصرف المدير كما لو لم يكن موجودًا ، فيتجه المستشار إلى المعلمين ، لكن هؤلاء ينسحبون بعيدًا إلى الخلف . فيتجه نحو الفصل ، والفصل كأنما ضرب حوله سياج .

عندئذ يقترب التنابذ من نقطة الحسم ، وكما تجرى بذلك دائمًا سنّة الحياة ، تكون الضربة الأخيرة لصاحب النفس الأطول . وكان هانز فايفر صاحب النفس الأطول .

يزداد صوت شناوتس الحقيقى خفوتًا وتتزايد فيه نبرة الشكوى ، إذ لماذا لا يهب أحد لمساعدته ؟ ماذا هنالك ؟ إنه يفقد الثقة حتى بنفسه . فربما لا يكون هو شناوتس الحقيقى إطلاقًا ؟ وبالتدريج يتخلى عن المقاومة ولا يستمر أكثر فى التنازع حول أمر يتيح شبهة أن يكون هو التلميذ الفاسد ، ويصل إلى نقطة النهاية . النهاية لصوته ولأعصابه .

الآن يعرف المستشار أى جهة يؤيد ، فيضم صوته - الذى كان مايزال له على الأقل أثره - إلى صوت هانز فايفر ، ويُجْهِزان معًا على شناوتس المسكين ، الذى ينسحق إلى ذرات ويتلقى كل ما يصيبه صابرًا . لكن حين يريد المستشار أن ينزع بيده الغاضبة لحيته التى ظنها مزيفة من على وجهه ، عندئذ ندّ عن شناوتس احتجاج خافت ولكنه كان محقًا فيه .

ثم يتركونه لقدره ، فيتكور فوق أحد المقاعد ، وبين وقت وآخر يقرص ساقه ليتحقق مما إذا كان واقعًا أو حلمًا مايرى . وفى أثناء ذلك كان مستشار الوزارة قد فكر فى وداعٍ مشرِّف فقال :

« أيها المدير كناور ، إننى أنتظر منك بلا إبطاء . . إحم . . تقريرًا حول هذه الواقعة اللامعقولة . ويحق لى أن أعتبر من البديهى أن يُفصل هذا الـ . . إحم . . طالب العاق بلا تردد من الدار » .

وفى أثناء ذلك كان المستشار يحدج البروفسور المتداعى بأعمق نظرات الازدراء ، ثم يدب خارجًا . ويترك الباب خلفه مفتوحًا على مصراعيه .

خمس ثوان لا يتحرك شىء ، ينظر الحضور لبعضهم بعضًا . يستيقظون . ويبدأون التفكير فيما جرى .

يتخفف المدير كناور لحد كبير من عبء الحدث ، فهو الآن يعرف ما ينبغى عليه عمله .

يتشبث بحقيبته الزرقاء الصغيرة ، ويعدو نحو هانز فايفر :

« أنت ! »

« نعم ! »

« أنت ! »

« أى نعم ! »

« أننت !!! » وينهمر سيل من التوبيخ على رأس هانز فايفر لدرجة تقافزت معها القوارير فى دولاب المواد الكيماوية وتساقط الذباب من سقف الحجرة .

ينتهى هانز عندئذ من تفكيك مكونات كرشه المدبّب ، ويبتسم ابتسامة صبىّ فى المهد ، ويدع العاصفة تمر عليه كأنها رشة مطر خفيفة تنساب قطراتها على معطفٍ مطاطى .

ينتهى المدير ، أنفاسه وألفاظه . لكن ما قاله كان إنجازًا تربويًا رفيعًا .

فيسأل هانز فى تواضع :« هل لى أن أسجل ملاحظة على شىء » .

« أنت تغلق فاك ! »

« هل لى مع ذلك أن أسجل ملاحظةً على شىء » .

« اغرب من فورك عنَّا إلى البيت . وإلا استدعيت البوليس » .

« لو فعلت لكان تصرفًا غير ودى منك يا سيادة المدير ، ولا أود أن أقول تصرفًا جاحدًا للجميل ، فى الوقت الذى انتشلتك فيه من ورطتك » .

« .. ؟ ؟ »

« لقد رجوتنى أن أفعل . وقلت لى : استـمر ياعزيزى فايفر . وطلبت منى أن أواصل تمثيل الـدور . وقلت لى : لا تتخلّ عنى فى هذه الورطة ، وأن مسـتشار الوزارة لا ينبغى أن يلاحظ شـيئًا ، ولم أتركك فى ورطتك ، وواصلت التمثيل ، ولم يلاحظ المستشار شيئًا . فعلت كل هذا مسروراً يا سيادة المدير ، من أجل خاطرك » .

« فايفر ، أنت أكثر من قابلت صفاقةً فى حيا .. » .

« دعْكَ من هذا ، يا سـيادة المدير . ولكن مـاذا عسـاك فاعـلاً بكلمة الشرف ؟ »

« ما .. ذا .. ! .. ؟ »

« أجل . كلمـة الشرف التى أبلغـتنى بمقتـضاها بألا أعـاقَب . السادة والسيدات شُهُودٌ على ذلك » .

تصدر عن الفصل موافقة هادرة على قوله .

يحاول المدير حل المسألة بطريقة أخرى . إنه يُفاوض:

« عـزيزى فايفـر ، لابدّ أن تدرك جلية الأمـر ، فقـد سمـعت بنفسك ما قاله مستشار الوزارة . فإن لم أفصلْكَ من المدرسة أكون قد انتهيت كمدير لها ، وعلىّ إذن أن أرحل » .

وهذا بالضبط مالا يريده فايفر الآن .

« سيـــادة المدير ، سأعـرض عليك اقتـراحًا توفـيقيًـا : لك أن تعاقـبنى بما يهواه قلبك ، ولك أن تطردنى من المؤسسـة مكللاً بالعار والشنار، ومـا تريده فوق هذا وأكثـر ، وأنا أحلّك من كلمـة الشرف التى وعدتنيـها - إذا التزمت على الأقل بكلـمة أخرى : فقـد أكدت محتفيًا منذ قليل أمام المستشار بأننى وابنتك خطيبان . موافق ! »

يدور بصر كناور فيـما حوله ويشير بإبهامـه إلى هانز « لقد صار معتوهًا » .

« حسن . إذن لا عليك من هذا ، لم يكن إلا اقتراحًا توفيقيًا . ولنبق إذن عند كلمـة الشـرف . فأنـت لن تعاقـبنى ، بل ولن تأمـر بتسجيل اسـمى فى دفتر الفصل ، ولا االكن . . كيف سـتسوى الأمر عندئذ مع . . المستشار . . وماذا ستقول هيئة التعليم المدرسى بالإقليم عن أمرك لى بتمثيل شناوتس أمام الفصل كله . . » .

« فايفر ، هذا ابتزاز ! »

« طبعًا ، . . إذن مُدّ يدك لنتفق ! »

يمد هانز يده ، ولايزال المدير مترددًا .فيصـدر عن المقعد الأخير هتاف ، وتقـفز إيفـا بحركة بهلوانيـة فوق كل الرءوس والمقـاعد إلى الأمام وتمسك بيد أبيها وتضغطها فى يد هانز .

يستسلم كناور ، فهو لا يناصر النزاعات . ولكنه مهموم : « الآن سيكون زوج ابنتى غير حاصل على الثانوية » . فتصيح إيفا وهى تتعلق بعنق هانز : « هذا لا يضر وسوف تعرف كيف نكسب قُوتنا . . وفضلاً عن ذلك فهو يريد أن يصبح ربما كاتبًا » .

فيتساءل بابا كناور متحسرًا : « بأربع درجات فوق الصفر فى اللغة الألمانية ؟ » (*)

تلتف دائرة ضخمة لتتحلق المتصر ، ويلوِّح ثلاثون ذراعًا بين أشقر وأسمر لهانز بإشارات الاستحسان ويهتف له ثلاثون صوتًا مابين فضىّ النغم وخشنه .

فتمتد قامة هانز عاليًا بصورة واضحة للعيان ويقول :

« الآن حققت الهدف : أطير من المدرسة ، وأفوز بإيفا . . أنا التلميذ هانز فايفر . كان لابد من إثبات ذلك . . وبالمناسبة ، هناك شىء كدت أنساه : هاهى ذى شهادة تثبت حصولى على الثانوية ، وهاهو ذا دبلوم الدكتوراه الخاص بى ، وهنا حساب من ناشر كتبى . وهذا يا حماى العزيز ما يهمك فى المقام الأول ، تقرير الضرائب عن دخلى » .

* * *

(*) التقدير الأول هو درجة (١) ، فهو حين يحصل على (٤) فمعنى ذلك أن مستواه ضعيف جداً فى اللغة الألمانية . (المترجم)

والآن وصلنا إلى الـ Happy - End (*) الحزينة .

فهانز لم يخرج من المدرسة ، ولم يفز بإيفا أيضًا .

وماكان لهذا أن يصح ، فهـانز لم يكن يومًا فى مدرسة ثانوية ، لا ولم يكن لمديرها ابنة .

ولم يكن هانز أبدًا فى مدينة بابنبيرج .

لأنه ليس هناك مدينة اسمها بابنبيرج .

وليس هناك بالأولى مدارس كـهذه بمدرسيـها وأشقيـائها ، ولم يكن يومًـا لمثل هذه المدارس وجود - أو عـلى أكثـر تقدير ليس لهـا وجود إلا فى مرآة الذاكرة التى تزين الأشياء .

أما هانز فايفر ، الذى لابدّ قد شكونا بصور مختلفة من قلة حبه للحقيقة ، فهو الذى اختلق القـصة كاملةً من ألفها وحتى يائها . لقد اختلقها اختلاقًا تامًا مثلمـا اختلق كل قصصه ، وحتى ذاته فى القصة مع ماريون والجائزة الأدبية ، فكل ذلك مختَلَق .

أما الحقـيقىّ فى القصة فليس إلا بـدايتها : نبيذ ملـقط الجمر . والحقيقى أيضًا هو الذكريات التى نحملها معنا : أحلامنا التى ننسجها ، أشواقنا التى تدفعنا . وبها فلنقنع .

تمت

(*) النهاية السعيدة - بالإنجليزية فى الأصل . (المترجم)

المترجم

سيد أحمد فتح الله أبو زيد

- كاتب وشاعر مصرى من مواليد (الكمالية - المحلة الكبرى) ١٩٦١ .

- تخرج فى كلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر ١٩٨٤ .

- حصل على الدكتوراه من جامعة « بادربورن » بألمانيا عام ٢٠٠٠ .

- له ديوان شعر باللغة العربية (مخطوط لم ينشر) وأشعار بالألمانية نشر بعضها فى الصحف الألمانية .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيميونوڤا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيترستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ - حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ - النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ - المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ - الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ - راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ - مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : ليس النقاش
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ - نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقولاى إيقانوف	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ - الفجر الكاذب	جون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ - التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ - فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ - إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ - الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ - مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ - ثقافة العولمة	مايك فيزرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ - الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ - تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ - فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ - مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	جوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ - پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ - قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دي ليبس	ت : على عبد الرؤوف اليمبي
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جي أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرْج علَوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صموبل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازار	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ - بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ - الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ - شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ - فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر	بول فيرابند	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ - دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ - حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ - المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديث بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ - مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ - عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ - الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ - مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ - فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ - الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ - الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ - مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ - العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ - فى انتظار البرابرة	ك. م كويتزى	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ - الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ - نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ - قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ - حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ - لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ - علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ - الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ - أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	روميلو جاليجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – رحلة إبراهيم بك ج٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ - مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ - فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ - سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ - مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ - فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهواني	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ - مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ - أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ - أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ - فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ - بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ - ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ - الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطى للتاريخ	چان - فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ - الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ - علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ - الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ - يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ - مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ - روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ - أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ - الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ - جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحى
٣١٦ - محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ - بلا غد	شير لايموفا - زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ - الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ - صور دريدا	جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ - لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ - وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كليتباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ - فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ - اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ - عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ - المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ - يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامي صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراي	ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ – الإسلام في بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل	آرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ – عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ – تاريخ الأدب في إيران جـ٣	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت في الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه نداني	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ – المتصوفة الأولون في الأدب التركي جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامي في الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ – الفن الإسلامي في الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ – التيارات السياسية في إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ – تلميذ بابنبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٤٦٢٢ / ٢٠٠٢

تلميذ بابنبيرج

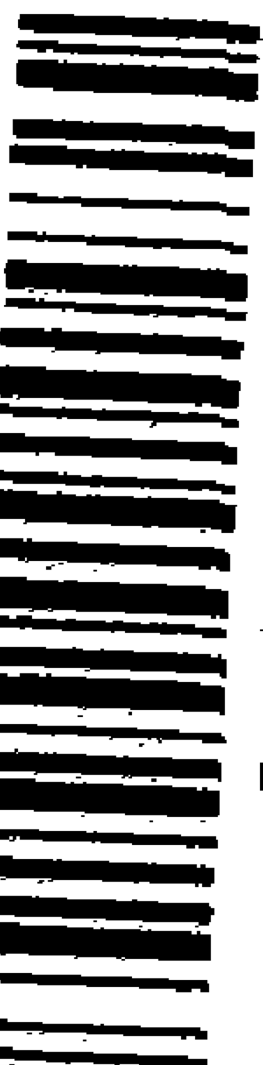
حياة فى ثنايا الحلم



هذه الرواية الشهيرة لهاينريش شبورل "تلميذ بابنبيرج" ظلت مادة للمطالعة المحببة لأجيال وأجيال، وربما كانت أجمل رواية مرحة فى الأدب الألمانى قاطبة. ولسوف يجد كل من يقرأها أنها تعكس جزءا من ذكرياته الخاصة فى الشباب وزمن المدرسة، حتى ونحن ننقلها اليوم إلى القارئ العربى فإنه سيجد فيها - رغم احتوائها على كثير مما لم يألفه - مشاهد كثيرة تخاطب وجدانه وتعكس ماضيه فى مرآة الذكرى.

صورت هذه الرواية فيلما سينمائيا وقام الممثل الألمانى هاينتس ريمان Heinz Ruhmann بدور بطلها الكاتب الشاب د. فايفر، الذى راح يتدارك ما فاته من أيام التلمذة ويجلس فى مقعد مدرسة بابنبيرج الثانوية ويدبر فيها أبدع مشاهد المقالب المدرسية.





تصميم الغلاف : سماء عجلان